المرأة في الإسلام

مكانتها وجهادها، وحقوقها وواجباتها وطريق نهضتها، ونهضة الأمة بنهوضها

بقلم
كمال أحمد عون
من علماء الأزهر
والمدير العام
لمنطقة التعليم الأزهرية بطنطا

الطبعة الثانية

دار العلوم
للطباعة والنشر
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

المرأة في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة في الإسلام

مكانتها وجهادها ، وحقوقها وواجباتها
وطريق نهضتها ، ونهضة الأمة بنهوضها

بقلم
كمال أحمد عون
من علماء الأزهر
والمدير العام
لمنطقة التعليم الأزهرية بطنطا

الطبعة الثانية

دار العلوم
للطباعة والنشر
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة
لدار العلوم للطباعة والنشر
ص.ب. ١٠٥٠ ـ هاتف ٤٧٧٧١٢١ ـ ٤٧٧١٩٥٢
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
ـ مقدمة الطبعة الثانية	٧
ـ مقدمة	١٣
ـ الاهداء	١٧
ـ تمهيد	١٩
ـ المرأة في التاريخ وكيف عولجت مكانتها فيه	٢٩
ـ المرأة العربية «ومكانتها في قومها»	٣٧
ـ هل تساوي المرأة الرجل في القوى الجسمية؟	٤٧
ـ المرأة والدعوة	٥٥
ـ مكانة المرأة في الإسلام	٦٩
ـ تعدد الزوجات	٨٥
ـ مشروعية الطلاق	١٠٥
ـ المرأة في الميراث والشهادة	١٢١
ـ المرأة والحجاب	١٣١
ـ المرأة والمسجد	١٤١
ـ المرأة والأزهر	١٥٥
ـ المرأة والحياة العامة	١٦١

الموضوع	الصفحة
ـ المرأة والحياة السياسية	١٧٥
ـ المرأة والشواطىء	١٩٣
ـ المرأة والأقلام المسمومة	٢٠٧
ـ في رياض القرآن وهدى الرسول	٢١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا رسول الله، وعلى آله وصحبه والتابعين. وبعد:

فمنذ أكثر من ربع قرن من الزمان، صدر كتاب «المرأة في الإسلام» وها هو ذا يعود إلى المطبعة، ليظهر في ثوب جديد.

ولئن كان حديثه عن مكانة المرأة وجهادها، وعن حقوقها وواجباتها، وعن طريق نهضتها، ونهضة الأمة بنهوضها، فلقد خاض البحث بضرورة موضوعه ميادين فسيحة، عن المرأة والرجل في ذات أنفسهما، وعن مكانة المرأة من الرجل والحياة، وعنها في التاريخ عامة، وفي الأمة العربية خاصة، ثم عن استقبالها الإسلام لأول عهده، وموقفها إيجابياً وسلبياً، وعن رعاية الإسلام لها بنتاً وأختاً وأمّاً، وعن مكانتها فيه، وعن حقيقة وضعها الكريم في الميراث والشهادة، وعن إقامة البيت المسلم، وموضوع تعدد الزوجات، ومشروعية الطلاق، وعما يسمى بالحقوق السياسية، وعن نهضتها الحقيقية عن طريق المسجد، وحق كل مسلمة فيه، وعن طريق التعليم الديني، ووجوبه عليها، ثم ضرورة صيانتها من دعاة السوء في كل صورهم.

* * *

ولقد لقي الكتاب عند ظهوره من تقدير أهل العلم، وكبار الباحثين، ما كان جديراً أن يسرع به إلى المطبعة، ليجده طالبوه ـ في الداخل والخارج ـ بعد أن نفدت الطبعة المحدودة في زمن يسير.

ولكن قضية هامة كانت تحول بيني وبين التعجل في إعادته إلى المطبعة، عرضت لها في جملة البحث عرضاً يبرز من دقائق التشريع الإسلامي وحكمته ما هو جدير بالنظر، وإن لم يخرج بها عن حيز الإجمال، باعتبارها فصلاً من

فصول الكتاب، تلك هي مشروعية الطلاق، وهي قضية تعرض للأسرة فتنال منها، ومما يكون منها من ذرية، وما يتصل بالزوجين من أهل وعشيرة.

والطلاق في الفقه الإسلامي، تشيع فيه ــ مع الأسف الشديد ــ آراء شبه مسلّمة، تعلق حياة الأسرة على كلمة ينطقها الرجل في أي وقت شاء، يحل بها ــ في رأيهم ــ عقد الزوجية. وهي آراء لا تثبت على النظر الصحيح، والبحث الفقهي السليم.

* * *

ولقد تلبثت زمناً طويلاً أنظر فيها، وتطالعنا مشاكل الناس يتلمّسُون المخرج، تحفزنا إلى مزيد من البحث، حتى انتهيت من المنهج الإسلامي في الطلاق إلى يقين، وإلى راجح رجحاناً يشبه اليقين، ورأيت وجوب نشر ما انتهيت إليه، مدعمًا بأدلته من الكتاب والسنة ــ وإن خالف ما شاع من تلك الآراء ــ خدمة للأسرة والأمة، ظهر ذلك في كتاب عنوانه: الطلاق في الإسلام محدد ومقيد ــ وكان في حقيقته ــ كما أضيف إلى عنوانه: في سبيل حل جذري من الفقه الإسلامي لمشكلة الطلاق.

ولم يكن يسيراً أن يضاف كل ما فيه إلى الفصل السابق عن مشروعية الطلاق، ولكن لا بد من التهدي بأهم ما فيه، ثم الإشارة إلى باقيه لمن شاء الاستيعاب.

بعض ما تحقق في عالم المرأة:

وفي هذا المدى الطويل، كانت قضية المرأة ماضية، تحقق أموراً هامة، من بعض ما طالب الكتاب به، أو فصل الزمن فيه.

□ في المسجد:

فلقد ظهر بوضوح حق المرأة في المسجد، وكان قبل غير واضح ولا مسلّم، ومن ذلك على سبيل المثال: ما أعلنه خطيب المسجد في طنطا من فوق منبره، في يوم جمعة على جماهير المصلين، من بشرى افتتاح مكان في المسجد، خاص بالمرأة، يسع ألفا من المصليات.

□ في الأزهر:

ثم ابتدأ الأزهر عقب ماعرف بقانون التطوير عام ١٩٦١م، يستقبل الفتاة المسلمة، ويحنو عليها كما يحنو على أخيها الفتى، ويعد لها كلية أزهرية خاصة بها، عمادها الدراسات الدينية والعربية، وتضم أقساماً عديدة، لشعب من المعارف متنوعة.

* * *

كما بدأت معاهد الفتيات الأزهرية إعدادية وثانوية، تقوم في المدن، وتعم كثيراً منها، ويتسابق الشعب في إنشائها، وتقبل عليها الفتيات المسلمات في رغبة قوية للتفقه في الدين، وفي مظهر كريم، وزي فريد سابغ، ويضمها الأزهر إلى معاهدة الرسمية، لتكون روافد لكلية البنات الإسلامية.

* * *

ومن قبل ذلك بزمن طويل، كانت البنات في مدارس تحفيظ القرآن الكريم ومكاتبه، يسابقن التلاميذ في حفظ القرآن، ودراسة ماتقرر من تعاليم الدين، ومن مواد ثقافية مناسبة.

□ في السياسة:

كذلك وصلت المرأة إلى ماكانت تراه لها من حقوق سياسية، احتدم الخلاف حولها حيناً، حتى حسم الأمر فيه قرار الحاكم سنة ١٩٥٦م بإعطائها حق الانتخاب، وجعله اختيارياً، لا إجبارياً كالرجل، كما أعطاها حق الترشيح للنيابة عن الشعب أسوة بالرجل، وبلغت في الحكومة المصرية مرتبة الوزارة للشؤون الاجتماعية.

* * *

على ان ماحسم في مصر، مايزال الآن على أشده في بعض البلاد الإسلامية كالكويت وغيرها... والبحث مايزال على أي حال، معروضاً بوجهة نظر كل فريق ومناقشتها، لمن شاء التماس وجه الحق في الموضوع، وتقدير المصلحة فيه.

المرأة السعودية وعوامل النهضة:

ولما صح العزم على إعادة طبع الكتاب، ونهضت بذلك دار العلوم بالمملكة العربية السعودية، ممثلة في رجالها الأماثل، توافقت الرغبة على الحديث عن شأن المرأة السعودية، وما يتاح لها الآن من عوامل النهضة المباركة.

ومع ان قضية المرأة هي في جوهرها واحدة، وبخاصة في بلادنا الإسلامية العربية، إلاّ انها تتفاوت في بعض مظاهرها وظروفها من بلد إلى بلد.

السعودية أفضل حظاً:

وإذا كان سبيل النهضة الحقيقية للمرأة هنا، هو ما ارتأيناه سابقاً لشقيقتها المصرية، ويتمثل بعد البيت المسلم في دور المسجد، وفي التعليم الديني الكامل، فإنا لنراها في المملكة السعودية أفضل حظاً من كثير من شقيقاتها في البلاد العربية، لما يسود البلاد السعودية من جو ديني كريم.

فأما حق المرأة في المسجد، ونهضتها الدينية عن طريقه، فارجع إليه في موضعه من الكتاب، ومنذ أكثر من عامين، وبتاريخ ١١ من ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ نشرت صحيفة المدينة المنورة، بعنوان: وظيفة المسجد في إصلاح الأسرة بحثاً للمؤلف،عن ضرورة الرجوع إلى الهدى النبوي في اصلاح المرأة عن طريق المسجد.

ومقام الحرمين في الديار المقدسة، وصلاة المرأة فيهما، باحتشام وتصون كاملين، حَرِيّ بالأسوة الحسنة.

فمن الخير أن يكون للمرأة السعودية مكانها الخاص في المسجد، تحضر من الصلوات ما شاءت، وتسمع من الوعظ والإرشاد، ما يملأ قلبها بنور الإسلام، وهدى القرآن. وبخاصة في المدن، حيث ترى العاصمة في أوقات الصلاة، مغلقة المحال التجارية، وقد توجه كثير من أصحابها والعاملين فيها إلى المسجد للصلاة.

بينما المرأة التي لم تستكمل شراء حاجاتها، منتظرة ــ على أرصفة الشوارع ــ انتهاء الرجل من الصلاة كي تتم شراء ما تريد.

النهضة التعليمية(1) والفتاة:

أما التعليم فإن النهضة الحديثة فيه تمضي على سواء، والمملكة بحكم استمساكها بعروة الإسلام، لا تقبس من نظم الغير سوى ما تراه نافعاً لها ــ وفي التعليم العام سواء مدارس البنات ومدارس البنين قدر من المواد الدينية والعربية والثقافية، يراه المختصون كافياً في المراد منه.

وتعليم البنات خاص بهن منذ نعومة أظفارهن، إلى أن تخرج الفتاة من كلياتها الخاصة، ومن دراساتها العليا إن شاءت.

وفي المملكة مجموعة طيبة من كليات التربية والآداب والعلوم. كذلك المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالرياض ــ وهي خاصة بالبنات منتظمات ومنتسبات، وتغطي عدداً من المدن الكبرى بالمملكة، تتزايد عاماً بعد عام، حسب تخطيط مرسوم.

جامعة الإمام والفتاة:

وفي الجامعة الدينية الكبرى بالمملكة، جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، وفروعها في بعض الأقاليم، والدراسات الدينية واللغوية موفورة الحظ، وإلى جانبها في بعض كلياتها شعب متنوعة للاجتماع، والتاريخ والحضارة، والجغرافيا، وعلم النفس، والمكتبات.

وحظ الفتاة من هذه الجامعة الكبرى قليل، وحقها الآن لا يعدو الانتساب، على أن تمتحن فيما يمتحن فيه المنتظمون من الطلاب.

وتزداد المنتسبات عاماً بعد عام في جميع الكليات، وفي كلية العلوم الاجتماعية أعداد كبيرة من المنتسبات، وترى لأكثرهن ــ كما تنبىء أوراق الإجابة في الامتحان ــ جداً وعزماً في التحصيل، يعوضن به ما فاتهن من دراسة منتظمة، كنَّ بها حريات، ويتفوقن أحياناً على الطلاب ــ على الأقل في بعض المواد.

ومن حق أولئك الطالبات، أن توفر لهن فرص الدراسة الدينية الجادة في كلياتهن الخاصة، وأن يمهد لهن سبل التحصيل العلمي، ليكُنَّ المرشدات الصالحات، لبنات جنسهن، والقدوة الفاضلة للمرأة المسلمة في كل مكان.

---

(1) أنظر: الكتاب الإحصائي الثالث ١٤٠٠ ــ ١٤٠١ هـ لتعليم البنات في السعودية.

وما من شك، في أن هذا البدء الرائع، لتعليم الفتاة في السعودية، مع هذا الإقبال المتزايد منهن على التعليم العالي في كل فروع المعرفة، مع الإمكانيات الموفورة، والحيطة التامة في صيانة الآداب والأخلاق، كل ذلك يبشر والحمد لله بمستقبل أروع.

ولقد بدت تباشير هذه النهضة، وتقدمت الفتاة السعودية، لتسهم في حمل رسالة الإسلام، وهذا حدَثٌ له ما بعده.

جاء في صحيفة المدينة المنورة بتاريخ ٢٠ من شعبان سنة ١٣٩٩ هـ تحت عنوان:

أول طالبة سعودية تنال الماجستير في الشريعة بامتياز ــ جاء حديث لمندوبة المدينة بمكة المكرمة وفيه:

إن الرسالة نوقشت في عصر يوم الإثنين ١٥ من الشهر الجاري، وهي أول رسالة مقدمة من قسم الطالبات بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ــ وتم ذلك عن طريق: **الشبكة التلفزيونية التعليمية**... وكانت الرسالة بعنوان (الحضانة في الشريعة الإسلامية).

وحضر المناقشة منسوبات الجامعة، وعدد كبير من سيدات وآنسات المجتمع بمكة المكرمة، في مبنى قسم الطالبات بحي الزاهر.

وأضافت قولها:

واليوم السبت ستجري مناقشة رسالتي ماجستير، من طالبتين من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. اهـ.

* * *

ولئن كان أول الغيث ــ كما قيل ــ قطرة، فلقد بدأ الغيث هنا بوابل من الماء الطهور، يحيي به الله بلاده وعباده، ويقوم به صرح النهضة الإسلامية، على أساس من الخير وطيد، وركن من الحق شديد، وهدى من الله رشيد، ومن الله سبحانه العون والتوفيق.

كمال أحمد عون

من علماء الأزهر

والمحاضر بجامعة الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم أستاذنا الجليل الشيخ محمد فوزي خشبة
أستاذ البلاغة والأدب بمعهد طنطا

. . . مسكينة هذه المرأة، ومسكين معها نصف هذا المجتمع الكادح المكافح في سبيل إعداد الأبناء والبنات، ليعد من أولئك وهؤلاء آباء وأمهات. . .

وكم من الأجيال والحقب تحاملت خلالها الأوضاع، وتحامل المشرعون على هذه المرأة، فازورّت عن إنصافها، وانصرفت عن الأخذ بيدها، والاعتراف بمالها من حق أو وجود. . وها هو ذا التاريخ يسجل بين ثناياه ما نالها من حيف لدى الإغريق والرومان، وغير الإغريق والرومان، من هذه الدول الغالبة، التي لم ترع للمرأة حقاً يذكر. .

ثم جاء الإسلام وجاء معه تشريعه الخالد، فسما بالمرأة سموا لم يكن لها على بال.

وقد تسألني أيها القارىء العزيز: كيف مكّن الإسلام للمرأة؟ وكيف أخذ بيدها وأنصفها؟، وما نزال نقرأ لبعض الأقلام اتهام الإسلام بالجمود، والحيلولة بين المرأة وبين ما ينبغي لها من منازل ومنازل!! أما أنا فلن أكلف نفسي مهمة إقناعك بسخافات هذه الأقلام، ولا بتحامل أصحابها رغبة في الشهرة، وإرضاء للشهوة، والشهوة الجامحة التي تعمي العيون عن رؤيا الحقائق ناصعة واضحة، وتصم الآذان عن الاستماع إلى الآيات البينات ــ ولكني سوف أدع هذا الكتاب القيم بين يديك، يكشف عن مدى ما كان للإسلام من فضل لم يُسبق إليه، ولن يلحق على مدى الأيام، في النهوض بالمرأة، والاعتراف بها، والحفاظ

عليها، والعناية بإعدادها، وتربيتها تربية ناضجة صالحة، تجعل منها إنساناً مسئولاً شاعراً بماله من حقوق، وما عليه من واجبات. . .

حسبك أن تقرأ هذه الفصول الممتعة، في هذا البيان الأخاذ، لتؤمن معي برسالة المرأة في الإسلام، ورسالة الإسلام في النهوض بالمرأة، وسوف يزداد يقينك وأنت تنتقل مع المؤلف من روضة مورقة يانعة، إلى أخرى مشرقة باسمة، بأن الإسلام لم يدع مجالاً لمجدد ما، كائناً ماكان نبوغه أو تقصيره، ولا لباحث ما، كائناً ماكان إخلاصه أو خضوعه لهواه، مجالاً لنقد أو مثاراً لتزيد، اللهم إلا أن تنكر العين ضوء الشمس من رمد، أو ينكر الفم طعم الماء من سقم.

ثم مالي أذهب بعيداً وهذه فصول الكتاب بين يديك، تتحدث بعناوينها عما تحمله بين ثناياها من تفنيد وتمحيص لهذه البحوث المحدثة والقديمة، المتعلقة بالمرأة في أسلوب رصين جزل، وتحليل جيد مشرق، وتوفيق في إصابة الهدف. . . ولولا ما عرفته للمؤلف مذ درست له وهو طالب في السنة الرابعة الثانوية من زهده في المدح، ورغبته عن الثناء والحمد، بينما كنت ولا أزال ألمس فيه تعلقه بالتوجيه، وحبه للنقد، أملاً في التوفيق، ورغبة في الكمال. . . لولا هذا ولولا أن أشق عليه وعليك، لكنت قد استعرضت معك فصول الكتاب وبحوثه فقرة فقرة؛ لتراها معي متراصة متساندة آخذة حجزها بحجز بعض نحو الهدف، وما كنت أرى بأساً ــ والإعجاب يملأ قلبي ــ أن أتلو معك البحث، ثم أدعك تقرأه وحدك، لتعرف معي أن كثيراً من فصول الكتاب ــ بله الكتاب كله ــ من حقها عليك؛ ومن حقك على معارفك وثقافتك، أن تقرأها مرة ومرة ليزداد إيمانك بجلال الفكرة؛ ويربو يقينك بعناية الإسلام بالمرأة والسمو بها، وبإعدادها إعداداً جامعياً في دراسة حرة طليقة، تتناول فيها مع الحاكمين شئونها المتعلقة بها، وشئوناً عامة كثيراً ما تتصل بشؤون الحياة العامة. وسوف تجد من باب «المرأة والمسجد» هذه الصورة الحية الصادقة للدراسة الجامعية، التي كان الإسلام أول من شرعها للمرأة، وأول من اهتم بتثقيفها أولاً، والأخذ عنها والإستنارة بآرائها ثانياً.

ثم هذا الموضوع الشائك، موضوع تعدد الزوجات للمسلمين عامة،

ولرسول الإسلام عليه السلام بنوع خاص، سوف ترى الكاتب، وقد طوف بنواحي الموضوع على تشعبها؛ وألم بفقرها وعناصرها، إلماماً يزيل الشكوك وينير الطريق، بتمحيص الروايات، وتزييف المدسوس منها. . ثم لا يدعك إلا وقد آمنت إيمان الدارسين الباحثين، بجلال الفكرة وسمو ذلك التشريع، وأنت بين يدي هذه الفذلكة الحلوة الأخاذة عند قوله: «ولعل أصدق دليل في هذا الصدد، صحة الحياة برجل مع نساء، وضياعُها بإمرأة مع رجال».

وستجد نفسك مقبلاً بعد على هذا الموضوع القيم الدسم، موضوع الطلاق ــ والطلاق فُرقة أباحها الإسلام على بغض لها، فأحاطها بسياج وأي سياج؛! سوف تقرأ هذا الفصل الممتع» وسوف لا تتمالك نفسك أن تكبر وتهلل، فلكم كانت في نفسك أثارة من عتب، وأثر من قلق، لما يبدو في هذا التشريع من قسوة قد تسيء إلى هذا الجنس اللطيف.

ولكنك إذ تفرغ من قراءة ذلك الطلاق مع الأستاذ «كمال» ستذهب عنك أحاسيس العواطف الحارة، وتستقبل المنطق والعقل، وفلسفة الإصلاح وهدى العلاج الناجع، وقد يكون آخر ذلك العلاج الكي كما يقولون.

وإن تعجب أيها القارىء الكريم، فعجب أن تجد نفسك وأنت ترتاد هذه الروضة الحافلة بأنواع البحوث الشيقة ــ قد وقفت أمام لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، وهي لجنة لها قداستها وهيبتها، ممثلة في هؤلاء الفحول من علمائها، وإذا بالمؤلف يخاصمها في شجاعة، ويتناول آراءها فيما يختص بالمرأة، ثم يتناول آراء المرأة وما تريده لنفسها من حقوق، وما يريده لها بعض الكتاب من هيمنة على شؤون التقنين والتشريع، أو قل المشاركة في هذه الهيمنة، ثم تجد شخصية المؤلف أبت إلا أن تكون حرة طليقة، تجول وتصول، في دقة وحذر، ثم تراه يدلي برأيه مؤيداً بالأدلة، موثقاً بالبراهين، وسواء لديه أن يصادف هذا الرأي الذي رآه هوى هؤلاء، أو يتبرم به بعض أولئك. . .

ومهما يكن من شيء فأنا إذ أحدثك عن توفيق الأستاذ «كمال» في كتابه أعتقد أن الكمال لله وحده، وأنه سوف يعود إلى قراءة كثير من فصول كتابه، ليفصل مجملاً، أو يستدرك نقصاً فاته، ويرحم الله العماد الأصفهاني حين كان

يقول: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن...

وإن رأيت أن ترجع إلى المؤلف معترضاً، أو ناقداً، أو مستفسراً، فسوف تجد من صدره رحوبة، ومن عقله نضوجاً، ومن خلقه ما يمكن لك من إبداء الرأي؛ فيبادلك حجة بحجة، وبرهاناً ببرهان، رغبة في الحق، وتحرياً للصواب.

وبعد: فهأنذا وقد امتلأت إعجاباً وتقديراً لهذا البحث القيم، في هذا العرض الموفق، يسرني أن أبارك هذا الغرس الكريم، راغباً إلى الله أن ينسأ في أعمارنا، حتى نرى هذه الآمال التي علقها المؤلف على الأزهر المعمور، قد آتت الثمر شهياً، في تخريج البنات مثقفات بتلك الثقافات الدينية المختارة، على أيدي أساتذة مختارين.

وها هي ذي تحياتي العطرة، ممزوجة بأطيب الأماني له ولك أيها القارىء العزيز، وسلام من الله ورحمة.

محمد فوزي خشبه

أستاذ البلاغة والأدب بمعهد طنطا

الإهـداء

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير».

«ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشداً».

وصل اللهم على النبي الأمين، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين. وبعد:

فإلى من تهمه قضية المرأة، ومن ورائها الأسرة والمجتمع،

إلى كل بنت وأخت ووالدة.

وكل ابن وأخ ووالد.

إلى كل من يرى في نفسه خيراً لإحقاق حق وإزهاق باطل، من العاملين لبلادهم، والساعين لخير أوطانهم.

إلى «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب».

إلى هؤلاء جيعاً أهدي هذا الكتاب راجياً من الله سبحانه أن ينفع به كفاء ما بُذل فيه من جهد، وصاحبه من إخلاص، وفوق ذلك من فضله إنه سميع مجيب.

طنطا: جمادى الثانية سنة ١٣٧٤هـ.
يناير (كانون الثاني) ١٩٥٥ م.

كمال أحمد عون

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يأيُّها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخَلقَ منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾[١].

﴿يأيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾[٢].

قضية خالدةٌ ما خَلدَت الإنسانية، باقية ما بقي الدهر، قديمة العهد، جديدة الذّكر، يهتّمّ الرجل بالمرأة، وتهتم المرأة بالرجل، ويهتم كلاهما بالحياة، حتى يُقَدِّما لها ما تفرضه عليهما من مادة جديدة، يبقى بها النوع، ويكثر النسل، وتعمر الأرض ﴿فطرت الله التي فطر الناسَ عليها، لا تبديل لخلقِ الله﴾[٣].

لم تَقُم الحياة بالرجل وحده ولن تَقُوم، ولم تقم بالمرأة وحدها، وما ينبغي لها، بل نفس واحدة من روح الله، خلق منها زوجها، فإذا الزوجان أزواج، وإذا النفسان عالم ضخم يموج بالأنْفُسِ، ويزخر بالحياة، يسير ما قدِّرَ له السير، ويمضي إلى غايته وأهدافه، يعين بعضُه بعضاً، ويُكمِل شطرُه الشطرَ الآخر، على نسَقٍ عجيب، فيه آيات للناظرين، وهدى للمُسْتبصرين.

---

(١) سورة النساء: الآية الأولى.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

(٣) سورة الروم آية ٣٠.

وما أبدعته يدُ القدرة في عالم الإنسان، أبدعت مثاله في عالم الحيوان، بل في سائر الأحياء على السواء ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[1].

تمضي قضية الرجل والمرأة، وموضع كلٍّ من الحياة، وموضع كلٍّ من صاحبه في الحياة، سائرةً مع الزمن، متأثرة به، مؤثرة فيه، فإذا اعتدل الميزان اعتدلت الحياة، وتعاون الطرفان على سنن قويم لا عوج فيه، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى تَلاح أو مقاضاة، فقد عرف كلٌّ مكانه، وَرَعى واجبه، وأدى رسالته، فاستقام أمر الأسرة ومن ورائها الجماعة.

وإذا انحرف طرف عن سوائه، آذن بانحراف يلِمُّ بالجميع، فيذيقهم من عواقبه وآثاره ما يذوقه كل منحرف عن الفطرة السليمة، والمحجة القويمة، حتى يرجع إلى الجادة، أو يؤذن بالعَفَاء.

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[2].

لا يقل أثر المرأة في الحياة عن أثر الرجل بحال، فلم تكن يوماً ما عاملاً ثانوياً، ولا كانت مجرد متعة الرجل، وموضع شهوته والترفيه عنه، وكيف؟ وما يخلق الرجل إلا من المرأة والرجل معاً، وما تخلق المرأة إلا من الرجل والمرأة كذلك، وما كان لبشر أن يبرز إلى الوجود من غير هذا الطريق سوى من شاءت إرادة الله، واختصه الإعجاز الإلهي من آدم، ثم حواء وعيسى عليهم جميعاً صلوات الله.

لقد حملت المرأة الرجل جنيناً، ووضعته وليداً، وسهرت عليه في مهده، وغذته بلبانها، وصنعته على عينها، فهي صانعة الرجل، وهي بذلك صانعة الحياة، سواء سيطرت على الحياة ظاهراً، أو دبّت إلى السيطرة دبيباً، أو هاضت الحياة جَناحها فتَحيفتها وتنكرت لها.

---

(١) سورة الذاريات آية ٤٩.

(٢) سورة الأحزاب آية ٦٢.

وخليق بمن كانت هذه منزلتها، أن تجد ما هي جديرة به من العناية والرعاية والتكريم، وأن تُحصَن بالتربية والتهذيب من آفات الانحراف الخلقي والروحي، وأن تصان بالعلم والمعرفة والقدوة الحسنة من زيف الآراء، وضلال الأهواء، حتى تؤدي رسالتها على خير وجه وأكمل حال، وتؤتي ثمرتها الطيبة في خلق جيلٍ سليم قوي، يحمل رسالة الحياة، ويحسن خلافة الله في الأرض.

والإسلام وهو دين الفطرة السليمة قدر المرأة قدرها، ووضعها مكانها وأعطاها كل مالها، وكلفها بكل ما عليها، فهو يخاطبها كما يخاطب الرجل، ويثق بها ويعَوِّل عليها، ويحوطها بعنايته ورعايته كما يحوط الرجل، بل لعلَّ حظها من ذلك أجَلُّ وأعظم، فلا عجب أن تُبلي المسلمة الأولى في نصرة الإسلام ورفع شأنه مثل بلاء الرجل، وأن تجعل من التاريخ سِجلَّ حمد، وصفحة ثناء وتبجيل.

قضية المصرية الحديثة:

والدارس لقضية المرأة المصرية في العهد الأخير يرى أمراً عجباً، هو في الواقع نتيجة منطقية لسير هذه القضية.

ولن يُغني الأسف الشديد شيئاً إذا ما قررنا ــ ونحن آمنون من الخطأ ــ أنها مضت تمشي برجل واحد، وسعت تطير بجناح، فكان أمرها أشبه بالطائر يثب وثوب الأعرج، ويضرب الأرض بجناحه ليطير فلا ينهض.

فمذ دعا صاحب المرأة الجديدة، وتحرير المرأة دعوته، والمعارضون المشفقون على أخلاق الأمة وآدابها وتقاليدها، كأمة شرقية إسلامية، يقفون موقفاً سلبياً من هذه القضية، مكتفين بالنّصح والتحذير، أو التجريح والتشهير، لم يتقدموا لعمل إيجابي، وإصلاح حقيقي يدفع بقضية المرأة إلى الطريق المستقيم، والمنهج القويم، وكان في وسعهم لو شاءوا أن يجدوا ذلك واضحاً في نور الإسلام، وهدى رسوله الكريم.

لقد كان للمرأة على عهد رسول الله ﷺ حظها من المسجد والجمعة

والجماعة،تشهد من ذلك ما يشهد الرجل، وتعلم منه ما يعلم، وكان لها حقها في مجالس الوعظ ومواقف الإرشاد، مستزيدة من ذلك بطلب أوقات خاصة بها، فوق ما يتاح لها شهوده مع الرجال، والرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يضن عليهن بوقت ولا مجهود، عارفاً لهن أثرهن الأكبر في نشأة الأسرة، وصلاح الأمة، ومجد الإسلام، حتى سجلت المسلمة في العصر الأول أنصع ما خلد التاريخ للمرأة من صفحات، وأروع ما شاهد من بطولات وتضحيات، بل شهدها التاريخ غير مقصرة عن الرجل المسلم في علم أو عمل، أو جهاد وتضحية، حتى عز الإسلام بأبنائه من الرجال والنساء، وارتفع لواؤه خفاقاً، وعلت كلمته في العالمين.

لم ينهج المعارضون الذين عرفوا بالمحافظين نهجاً عملياً، وملأ الخوف والإشفاق الأفئدة منهم والقلوب، فكانوا سلبيين متشائمين، لم يعودوا بالمرأة إلى المسجد لتعلم من دينها ما يجب أن تعلم، ولتسمو روحها وأخلاقها وآدابها بما في الدين من سمو ورفعة وتوجيه سليم.

ولم يحاولوا أن ينشئوا من المدارس الدينية للبنات ما ينبغي أن يُنْشأ، فحرمت المرأة المثل الصالح من بنات جنسها علمًا وعملاً وخلقاً، فاطّردت ساعية لا تجد أمامها إلا دعاة الحضارة الغربية، ممن تغربت عقولهم وأرواحهم، وتفتحت عيونها على رائع من المدنية، وخلاب من الحياة العصرية، فاندفعت تعوض بعض ما فات، واستمعت طويلاً، وقرأت كثيراً عن دعاوى الظلم الذي حل بالنساء فيما مضى من عهود، فكانت شديدة الحساسية فيما يتصل بقضيتها في الحياة.

وأولع بترديد هذه المعاني على أسماعها رجلان، متكلم ديني يريد أن يعرض فضل الإسلام على المرأة وإنصافه لها، ورفعه شأنها فيجسم أنواع ما كانت فيه من ضيم، وما لحقها من أذى، ليجعل من ذلك إطراء لما جاء به الإسلام، تاركاً ما كان للمرأة العربية في جل القبائل من مكانة رفيعة، وعزة منيعة، وما بلغته في بعض الدول من رتبة الملك وعرش السلطان. وما أغنى الإسلام بحقائقه وأمجاده وروائعه عن المبالغة والإطراء.

وكاتب اجتماعي ملكت عليه حياة الغرب لبه وفؤاده، فهو يدعو إلى حرية يهواها، ليست في الحقيقة إلا تحللاً وإباحية، فتراه يثير مشاعر المرأة وأحاسيسها بأقاصيص الظلم الذي نالها، وأفانين الحيف الذي قاسته، وصور الاستعباد الذي عاشت فيه، زاعمًا أنه من أنصارها والمدافعين عنها، وكأنه يقول لها حذار حذار من دعوى الفضيلة والاحتشام، إن هي إلا الدعوة المقنعة للذل والاسترقاق، الذي جاهدت للخلاص منه، والرجل يحن إليه، ويحرص عليه، فإن تراجعت قليلاً فهو القضاء على ما عليه تحرصين. إن دعوى الاحتشام رجوع بنا إلى أكثر من ألف عام، إن التصون والعفاف والستر نكوص إلى عهد الحريم.

بهذا وغيره كانت المرأة شديدة التأثر والحساسية في هذه الناحية، ترى أقل مظهر من مظاهر التفرقة نوعاً من العبودية، حتى ولو كانت أوفر بهذا التفريق حظاً، وأرجح نصيباً، ولعل تلك الظاهرة غير خاصة بالمصرية، بل لعلها شائعة في نساء القرن العشرين.

خطبت قانونية مصرية في مؤتمر القانونيات العالميات بتورنتو من مدن إيطاليا، تبين حقوق المرأة المصرية، فذكرت من حقوقها الصداق يقدمه الرجل آية على صدق مودته، وبرهاناً على اعتزامه القيام بأعبائه وواجباته، وانتوائه التضحية من أجل شريكة حياته، فقاطعتها فرنسية من القانونيات قائلة: إذاً فالرجل عندكم يشتري المرأة بالصداق، فكانت المصرية حكيمة موفقة إذ ردت المغالطة بما أخذ عليها السبيل حيث قالت:

إن ذلك على أي حال خير من أن تشتري المرأة الرجل فتدفع له (الدوطة)[1].

رأينا المرأة ــ إلّا من عصم الله ــ بتأثير (الأفلام) المنحرفة، والأقلام

---

(١) أنظر: فصلي المرأة في الميراث والشهادة، والمرأة والحياة السياسية. والدوطة: قدر من المال تدفعه المرأة المسيحية للرجل عند الزواج بها.

المسمومة[1] انحرفت عن سواء السبيل، وصار ما كان يدعو إليه قاسم أمين، من تخفيف الحجاب إلى الحد الإسلامي الذي يسمح للمرأة بكشف الوجه واليدين، والذي يبيح لها الخروج لحاجتها من علم وعمل، عرياً وتكشفاً وتهتكاً وانطلاقاً، يزرى بالمرأة والرجل، ثم يتمخض كل يوم عن مآس مريعة، تزلزل من الأسرة كيانها، وتصيب من الأمة سويداءها.

* * *

ونحن في عهدنا الجديد الذي اعتزمنا فيه بناء الأمة على أساس وطيد من الخلق المتين، والتربية الجادة أجدرُ بتبين طريق الصواب، واستهداء وجه الحق.

* * *

وهذه فصول في قضية المرأة متساوقة، يمهد أولها لآخرها، وينعطف آخرها على أولها، تصحح من حقائق التاريخ ما زيفه المبطلون، وتكشف من واقع الحياة ما أضله المخطئون، وتهدي إلى نور من الإسلام يهتدي به المؤمنون، ويعشى من ضيائه الجاهلون، ويعْيى دون فهمه المتغربون وأتباع المتغربين.

قد استقيتها من مصادرها الأصيلة، فلم أكتف بمنقول إليه عن المنقول منه، ولا بالفرع القريب عن الأصل المأخوذ عنه.

فصول حاولت بها أن تكون قضية المرأة في وضعها الصحيح، بعيدة عن حَيف من يحيف، ومحاباة من يحابي. لم أبغ بها وسطاً بين رأيين، ولا تقريباً بين متباعدين، إنما الحق وحده قصدت، ومن ضاق به الحق فالجور عليه أضيق.

وعسى أن تكون هذه الفصول داعية إلى خير، ومرشدة إلى برّ، كاشفة عن جانب من عظمة الإسلام في شأن المرأة، وهادمة لضلال كثير حول قضيتها، آخذة بيدها عن طريق المسجد[2] والأزهر إلى ما نرجوه للمسلمة الحديثة من عزة وكرامة، وعفة ومجد، واحتشام وترفع، كي تستعيد في الحاضر المرجو أمجادها الأولى، وفي الغد المأمول عظمتها الخالدة في صدر الإسلام.

---

(١) انظر: فصل المرأة والأقلام المسمومة.

(٢) انظر: فصلي المرأة والمسجد والمرأة والأزهر.

تأليف هذا الكتاب:

لعل حظي من اختيار هذا الموضوع لم يكن بقدر ما دفعت إليه دفعاً، فقد احتدمت المعركة الكلامية سنين، واشتد لظاها حول مطالب المرأة السياسية، وكنت شاهداً يقرأ ويسمع، وأحياناً باحثاً في الأمر بحثاً عارضاً، وفي أكثر من مرة، ولمناسبات تكررت في غير عام، كان ضمن مواضيع الإنشاء للفرقة الرابعة الثانوية الموضوع الآتي:

هل ترى للمرأة المصرية حقوقاً سياسية من الخير أن تمارسها؟ وَجِّه ما تقول، وفَنِّد رأي الآخرين.

وكان جمهور الطلاب وهم شباب في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث، يفيض قوة وحيوية، ويتدفق نشاطاً وتَوثباً، ويصغي لما حوله من الآراء، ويشدو إلى علومه الأزهرية طرفاً من الآداب، ويطالع أشتاتاً من الصحف اليومية والمجلات الأدبية والسياسية، كان جمهورهم عادة ضد ما ترى المرأة لنفسها من حقوق، وإن كان علاج الموضوع كما توحي صياغته يفسح جوانب من القول، ويدعو الطلاب إلى مناظرة فيها حرية البحث كاملة، يمحص الرأي فيها ويقلب على شتى وجوهه، ثم يمضي كغيره من الموضوعات.

حتى بلغ الأمر ذروته وتساءل كثيرون عن رأي الدين فيه، وصدرت الفتوى الرسمية من الأزهر الشريف بمنع اشتغال المرأة بالأمور السياسية، وعدم جواز دخولها البرلمان لأنه ولاية عامة، وبمنع اشتراكها فيما يكون طريقاً إليه من إعطاء صوتها في الانتخاب[1]. ولست أكتم القارىء أني أحسست عند صدورها بحلقة مفقودة فيها، مع إعجابي بلجنة الفتوى وإجلالي لأصحابها.

وجدّت الحوادث وتوالت، وقررت لجنة الدستور الفرعية بأغلبية ثمانية أصوات إلى ستة، مطالب المرأة السياسية.

وكما لاحظت في الفتوى جانباً يحتاج إلى بيان، لم أر ما قررته اللجنة رأياً سديداً، وعملاً حيداً. ذلك أن تجاهل الرأي الديني الرسمي للبلاد أمر

(١) انظر: الفتوى ومناقشتها في فصل المرأة والحياة السياسية.

لا تسيغه الأمة، ولا يقع منها موقع القبول، وليس يكفي أن تقرر لجنة مهما علا شأنها مطالب المرأة السياسية، محتجين لقرارهم بأن الدين لا يمنع ذلك، فيؤمن الناس بما تقول، ضاربين صفحاً عن فتوى لجنة الأزهر.

وقد سقط دستور ودستور، لأنهما لم يقوما على الحق الصريح ﴿فأمّا الزبدُ فيذهبُ جُفاءً، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض﴾[1].

* * *

واقترحت في كلمة حملتها الأهرام مشكورة أن يجتمع السياسيون والدينيون، ويتفاهموا على رأي سواء، جمعاً للكلمة، وحفظاً للوحدة، وتوفيراً للجهود، وليحتكم الجميع إلى الحكيم العليم، والله يقول: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[2].

ولم أكن مسرفاً في الظن الحسن، كي أعتقد بأن كلمة أو كلمات ــ ممن لا يملك سواها ــ تجمع الجبهتين المتعارضتين في صعيد واحد، ذلك أن الجانب الديني يرى أنه بلغ وأبرأ ذمته، وأن الجانب السياسي غالباً يتخذ الغرب قبلته، ثم جدت أمور وظهرت كتب، تحمل طابعاً خاصاً لم تشف مني غليلاً، ورأيتني مدفوعاً إلى درس هذه الناحية دراسة وافية، وبدأت أدرس وأبحث، وأراجع وأتقصى، وأقرأ في القديم والحديث، والعربي والمعرّب، وأطالع قضية المرأة، ومكانتها في التاريخ ومنزلتها في الإسلام، وما لها من حقوق وما عليها من واجبات، مستجلياً نهضتها الحديثة، ومكانها في الحياة العامة وفي الشؤون السياسية، متابعاً ما ينشر عنها في الصحف والمجلات. لم أدع من ذلك شيئاً يفيد في الموضوع ــ استطعته ــ إلاّ اطلعت عليه، حتى اكتمل الدرس أو كاد، فكان من ثماره هذا الكتاب، وها هو ذا أقدمه لكل باحث منصف يطلب الحق أني وجده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) سورة الرعد: آية ٢٥.

(٢) سورة النساء: آية ٥٩.

مصادر الكتاب:

لم أشأ أن أثبت في صدر الكتاب أو آخره سجلاً حافلاً بمصادره، كما هي عادة البحث العلمي الحديث، ذلك أن هذه المصادر كثيرة تحتاج إلى ثبت طويل، عدا أن منها الكتب العديدة يؤخذ منها الشيء الواحد، ومنها الكتاب الكبير يراجع فلا يؤخذ منه سوى القليل، فكان إثباتها جميعاً أشبه بالتزيد والمغالاة، حيث لا رغبة لنا فيها ولا حاجة بنا إليها، بيد أني لم أغفل منهج البحث العلمي الدقيق، فأشرت إلى المراجع التي آخذ عنها في ثنايا البحث وهامش الصفحات؛ ليسهل الرجوع إليها لمن شاء، ما لم يكن ذلك من الشهرة بحيث لا حاجة فيه إلى انتساب.

وبصفة عامة:

فالمرجع الأول في الناحية الدينية كتاب الله سبحانه درساً وفهماً، على وفرة التفاسير المرجوع إليها، ثم سنة نبيه ﷺ في منابعها الأولى. ومصادرها الأصيلة؛ إذ هي شارحة القرآن الكريم، ومبينة لأحكامه، ومفصلة لمجمله، على أن ما نقلته عن البخاري ومسلم والموطأ فمنها بلا واسطة، ومن بقية الصحاح والمسانيد فقد اعتمدت فيه غالباً على نيل الأوطار للشوكاني، وطرح التثريب للعراقي: ورياض الصالحين للنووي، والترغيب والترهيب للمنذري.

وفي الناحية الفقهية راجعت مجموعة من كتب الفقه، وفي مقدمتها بداية المجتهد لابن رشد، وزاد المعاد لابن القيم، وبعض موسوعات الأحناف؛ لما عرف عنهم القول بتوليه المرأة القضاء في غير حد وقود، وكذلك جملة القوانين الخاصة بالطلاق والزواج المعمول بها الآن في المحاكم الشرعية. ومذكراتها التفسيرية، وانتفعت في ذلك كله بجهود الأئمة الأعلام الذين خدموا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من القدامى والمحدثين، وما حرره العلماء والفقهاء جزاهم الله عن دينه خير الجزاء، على أن النصوص الدينية من الكتاب والسنة هي مقطع الصواب في ذلك، غير متعصب لقول خاص، ولا إمام بعينه، فكلهم من رسول الله ملتمس، ومن بحر القرآن مرتشف، أتحرى ما أراه أقرب وأمثل، وأمضي مع الحق أينما كان.

وفي الناحية التاريخية كان أهم المراجع القديمة سيرة ابن هشام، وأَسَد الغابة، والكامل لابن الأثير، والإصابة لابن حجر؛ ومروج الذهب للسعودي، ومعها كذلك الكتاب المقدس.

ومجموعة من الكتب الحديثة في علم النفس والتاريخ والاجتماع ووظائف الأعضاء، منها الخاص بالمرأة، ومنها ما يجيء ذكرها فيه مع غيرها، ولم أنقل شيئاً من ذلك خاصاً إلاّ أشرت إلى مصدره، أما الرأي العام الذي ليس وقفاً على أحد فلست أشير إليه إلاّ أن يكون اقتباس تعبير بعينه أنسبه لصاحبه.

فان كنت وفقت فيما إليه قصدت فذاك فضل الله منه وإليه، وان كانت الأخرى فما ألوْتُ الصواب جهداً، ولا الحقَّ ابتغاء وقصداً.

وأرجو أن أكون خالص النية في القول والعمل، والله حسبي، وهو سبحانه نعم الوكيل.

المرأة في التاريخ
وكيف عولجت مكانتها فيه

يذكر كثير من الباحثين أن المرأة غبنت في عصور التاريخ القديمة مذ قبلت أن تدخل شريكة في الأسرة، وتنزل عن بعض حرياتها للرجل، حيث لم يقنع منها بذلك، بل استبد بها وبالغ أحياناً في ذلك الاستبداد، حتى كان له أن يتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وينزل بها إلى دركة الحيوانات فيبيعها إن شاء، فهي عنده ليست إنساناً كالرجل.

وإذْ بلغ الأمر هذا الحد، فليس بعجيب مايذكره عالم فرنسي كبير[١] من: «ان مجمع ماكون في القرن الخامس الميلادي بحث في: هل للمرأة نفس كالرجل؟ ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالإيجاب إلاّ فيا يخص مريم العذراء والدة الله».

ويقول المرحوم قاسم أمين رأس الداعين إلى تحرير المرأة المصرية في كتابه «المرأة الجديدة»[٢] «وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها[٣]، لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكاً لزوجته، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء،

---

(١) هنري ماريو من الأخصائيين في تربية البنات بكلية الآداب بفرنسا في كتابه «خلق المرأة» ترجمة إميل زيدان.

(٢) فصل المرأة في حكم التاريخ.

(٣) ولنا أن نسأل: في أي عصر كانت المرأة في غير الأسرة؟!.

بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء، وهذا أمر يعرفه كل مطلع على التاريخ الروماني، ورواه (السائحون) المعاصرون لنا، يشتري الرجل زوجته من أبيها فتنتقل إليه جميع حقوق الأب عليها، ويجوز أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر».

ويقول في موضع آخر من الفصل السابق.

هذا هو مجمل تاريخ المرأة نلخصه في كلمتين: عاشت المرأة حرة في العصور الأولى، حيث كانت الإنسانية لم تزل في مهدها، ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي، ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق، واعترف للمرأة بشيء من الحق، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها بألا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها، ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة، وتساوت المرأة والرجل في جميع الحقوق أو على الأقل في معظمها ــ أربعة أحوال يقابلها أربعة أدوار من تاريخ التمدن في العالم. أ هـ.

وغير العالم الفرنسي والمرحوم قاسم أمين ينحون في معالجتهم لمكانة المرأة في التاريخ هذا المنحى، وهو رأي شائع، تراه كثيراً في الصحف والمجلات، وبعض المؤلفات، وتسمعه على المنابر. ولن يعوز هؤلاء الباحثين الاستدلال على ما يقولون ببعض الحوادث التاريخية.

ونحن لا نرد هذه الحوادث متى كانت في مصادرها المحترمة؛ ولكنا نلاحظ أن إعطاءها الصبغة العامة الشاملة، والحكم بها على مكانة المرأة في جميع العصور السالفة، ضرب من المبالغة والغلو ينقصه التحقيق العلمي، لأنا إذْ نقرأ هذه الحوادث التاريخية، نقرأ إلى جانبها كذلك للمرأة صفحات بيضاء من الأعمال المجيدة، والمكانة الحميدة، فهي فضلاً عن مضيها في وظيفتها الأولى من إنسال الذرية، واحتضانها لعمارة الكون غير متوانية ولا مقصرة، ولا باخلة بما يصحب ذلك من جهد ومشقة وتضحية، تشارك الرجل في جسام الأمور إن اضطر إلى معونتها وإسعافها، كمواقف الحروب والقتال.

بل إن من النساء في الزمن القديم من تربعن على كراسي العروش

والممالك، وليس ذلك على ندرة أو شذوذ، فتاريخ مصر شهد عدة ملكات علون عرشه؛ كذلك ملكت المرأة في روما، وملكت المرأة في الفرس الأولى، وملكت امرأتان من بنات كسرى قبيل الفتح الإسلامي، وملكت امرأة في بعض جهات العراق أربعين سنة، وهذه بلقيس التي حكى القرآن الكريم شأنها مع سليمان، ووصفها بأنها: ﴿أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ ملكت باليمن، كذلك ملكت الزَّبَّاء في تدمر.

وكان بعض أولئك النسوة يبدين حكمة وحنكة وبصراً بتدبير الأمور.

بل هذه هي المرأة الرومانية التي حدثوا عنها بأنها كانت في وصاية الرجل وكان له قتلها بيده إن شك في سلوكها[1] وله ألا يعترف بأبنائها، قد خرجت من خدرها، وشاركت الرجل في سياسة الدولة، وتغلغل نفوذها في كل مرفق من المرافق العامة «وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول في تعيين رجال السياسة وخلعهم»[2].

كذلك من النساء من احتفظت بشخصيتها في أروع بيئة وأقواها؛ فلم تَلِنْ صَفاتها، ولم تُغمز قناتُها، وإنما مالت باختيارها حيث شاءت، فقد تكون البيئة بيئة النبوة التي تملأ الفؤاد هيبة وروعة، ثم تختار المرأة دين قومها، وإن كانت في كنف النبي زوجها، وقد تكون بيئة الملك وصولته وجبروته، فلا ينخلع قلبها، ولا يشغف عليها فؤادها؛ فتهفو إلى ملكوت السموات، وتنظر إلى الملأ الأعلى وتقول: «رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة».

ذاك ما يقصه القرآن الكريم حيث يقول: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما . . . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت: ربِ ابن لي عندك بيتاً في الجنة، ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾[3].

* * *

---

(١) هنري ماريو في كتابه خلق المرأة السابق.

(٢) دائرة معارف المرحوم وجدي، الجزء الثامن، ص٦١٨. وكتابه المرأة المسلمة، ص١١٧.

(٣) سورة التحريم: آية: ١١ ــ ١٢.

وتذكر التوراة في مواضع كثيرة شؤون الرجل والمرأة فلا تنتقص المرأة بمثل ما يذكره الكاتبون، وتقرأ الأناجيل كذلك فترى الدعوة الدينية للمرأة والرجل على السواء، وترى أنصارها من الجنسين كليهما، وتجد الثناء عليهما إن قدما ما يجعلهما أهلاً للثناء؛ والذم لهما إن كانا بالذم جديرين.

ذكرت التوراة أن المرأة تكهنت، واستطلعت طلع الغيب، وأن من النساء من بلغت مرتبة النبوة، وكانت بالفعل نبية، وأن منهن من اختيرت فجلست مجلس القضاء السنين الطوال، ثم اشتركت القاضية في بعض المعارك الحربية، بعد إذ أبى القائد المضي حتى تصاحبه، وبفضلها انتصر الجيش على الأعداء[1]. كذلك تقوم امرأة حكيمة بمهمة كبرى إذ تفاوض قائد الجيش المغير، وتحدثه من فوق سور المدينة؛ وتقنع قومها بتسليم اللاجيء الغادر وينجو بذلك الحصن ومن فيه[2].

وأعجب من ذلك أن توصي التوراة بأن يكرم المرأةَ السَّبيةَ سابيها، ويبكي لها أباها إن أراد اتخاذها زوجة، أو يطلقها حرة إن لم تحظ في عينه ولم يرد زواجها، فلا تباع ولا تشرى كفاء ذلها السابق بأسرها[3].

* * *

ونحن لا نورد هذا لنقول: إن اليهود قد التزموا بكل ما فيه، أو أنهم حافظوا على دين الله فلم يغيروه، وحسبنا أن تكون هذه نظرة دينية في الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى، لنرى أن دعوى الإطباق على ظلم المرأة وهضمها في الأمم السابقة والعصور السالفة، إلى أن جاءت المدنية الحديثة، والاستشهاد على ذلك بالحوادث الجزئية، التي اعتاد الناس أن يسوقوها بل يتلقفوها في مثل هذا الموضوع، أمر لا يسيغه البحث التاريخي، ولا التحقيق العلمي.

فإذا اتفق لإنسان أو جماعة بدافع من حماقة جاهلية، أو قسوة اقتصادية، أن

---

(١) الفصل الرابع من سفر القضاة، ص٣٩٨.

(٢) سفر الملوك الثاني، الفصل العشرون، ص٥٣٩.

(٣) سفر تثنية الاشتراع، الفصل ٢١، ص٣٢٢.

عتبروا المرأة متاعاً أو سائمة، أو حسبوها بلا روح، أو روحاً نجسة خلقت لخدمة الرجل ـ إن جاز تحسين الظن بأمثال هاتيك الروايات التي أولع بها قوم ـ فما إخال ذلك أمراً عاماً يتعارفه جيل أو قبيل، وما هو ـ إن صح ـ إلا نزوة عارضة، ومرض طاريء يتداركه عقلاء الناس بالتغيير والتبديل.

على أن ما وقع من الحيف للمرأة، وقع مثله للرجل كذلك، وها هو ذا الرق في العالم القديم شمل الرجال والنساء على السواء، بل كثيراً ما وقعت المحن للرجال من دون النساء.

فإذا كان البعض يقتل المرأة خوف الفقر أو العار، فلقد كان الرجال يقتلون في بعض العهود خوفاً من سطوتهم وبأسهم. أولئك هم الذكور من بني اسرائيل، تعمل في رقابهم سيوف آل فرعون ليبيدوا، وينجو من ذلك النساء، وفي القرآن الكريم ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب؛ يُذبحون أبناكم ويستحيون نساءكم؛ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[1].

ومثل هذا حدث للولدان زمن نمروذ بن كنعان، وقد ولدت إبراهيم عليه السلام أمه بعيداً؛ وتركته بمغارة في فلاة من الأرض حتى كبر وشب، ورأى في الكواكب ما رأى وكملت نبوته[2].

كذلك زمن ولادة عيسى عليه السلام؛ وقد أمر (هيردوس) أن يقتل الصبيان ببيت لحم؛ فخرج يوسف به وبأمه إلى مصر، حيث أقام سنتين ثم رجع بعد موت (هيردوس)[3].

بل من تعاليم التوراة إذا كان الابن عاقاً لأبيه وأمه غير سامع لقولهما، فليقبضا عليه ويخرجاه لشيوخ المدينة ليرجموه حتى يموت[4].

---

(١) سورة البقرة: آية ٤٩.
(٢) ابن خلدون: جـ ٢ ص ٣٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٦.
(٤) سفر تثنية الاشتراع ف ٢١ ص ٣٢٢.

فأحر بهذه المظالم التي تنسب للمرأة أن تكون فردية أو وقتية، وفي عصرنا هذا ـ وإنه لشديد الفخر والاعتزاز بما نال من حريات وحقوق ـ توجد مظالم من هذا النوع، وإن اختلفت مقاديرها وأسلوبها.

فتلك عصابات تتاجر في الرقيق الأبيض، وأولئك آباء يبيعون أولادهم تحت سمع العالم المتمدن وبصره. وإليك مثالاً واحداً من كثير:

نشرت المصري بعددها الصادر في ١٩٥٣/١١/٣ ما نصه:

اليابانيون يبيعون أولادهم:

طوكيو في ٢٢ ـ يؤخذ من بعض الإحصاءات الرسمية التي أذيعت اليوم، أن أكثر من ألف وخمسمائة من أبناء اليابانيين قد باعهم أهلهم خلال هذا العام، ومعظم هؤلاء الأبناء من الفتيات اللائي تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والسابعة عشرة؛ وكان متوسط سعر الفتاة أو الغلام ١٠,٠٠٠ عشرة آلاف فرنك.

العدد تضاعف:

ويلاحظ أن عدد الأولاد المبيعين هذا العام قد تضاعف عما كان عليه في العام الماضي وتُعزى هذه الزيادة إلى القحط الذي ساد عدة مقاطعات يابانية، على أثر الخراب الذي أحدثته الأمطار والسيول والأعاصير اهـ.

فأين هذا مما يقوله شاعر النيل حافظ إبراهيم في اعتزاز اليابانيين وشجاعتهم بلسان غادة اليابان:

نبئوني برحيل عاجل | لا أرى لي بعده مُنقلبا
ودعاني موطني أن أغتدى | علّني أقضي له ما وجبا
قلت والآلام تفري مهجتي | وَيكِ، ماتصنع في الحرب الظُّبا؟
أحسبت القدّ من عدّتها | أم ظننت اللحظ فيها كالشبا[1]

(١) مفرده الشباة وهي حد كل شيء كالسيف مثلاً.

فــأجــابتني بصــوت راعني وأرَتْني الــظبى ليثــا أغلبــا
إن قومي استعذبوا ورد الردى كيف تــدعــوني ألا أشــربــا
أنــا يــابــانيــة لا أنثــنــي عن مرادي أو أذوق العطبا[1]

ماذا يصنع كاتب التاريخ بعد، إن هو نظر إلى جانب واحد فقط، وإن كان في جانب آخر امرأة هندية ترأس هيئة الأمم المتحدة عاماً كاملاً، وأخريات زعيمات وقائدات وسفيرات. لئن اقتصر فسوف يذكر بعض الحق ويهمل بعضه الآخر، وهو في ذلك من القاصرين بل من الخاطئين.

فإذا كان الرجل حيناً يعامل المرأة بالعسف، ويغتصب منها بعض حقوقها، فذلك من نقص الرجل في نفسه، وكما حدث في القديم، فإنه لا يزال يحدث كل يوم، وليس التظالم قاصراً على المرأة. فكما نقرأ كثيراً أخبار من قتل زوجته أو بنته أو أخته ليدفع العار عن نفسه، فكذلك نقرأ أخبار من قتل صديقه أو قريبه أو أخاه من أجل الشرف والكرامة.

ونستطيع أن نقول باطمئنان هذا هو القرآن الكريم يحدث أنَّ الله سبحانه خلق آدم ونفخ فيه من روحه،وخلق منه زوجه وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وهو في ذلك مصدق للتوراة والإنجيل ومهيمن عليهما، وقد أوحى ربك إلى الأنبياء السابقين بالهدى والنور كما أوحى إلى رسوله محمد ﷺ وكانت رسل الله تترى إلى البشرية؛ ولكل أمة رسول ﴿وإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذير﴾[2] ومكان المرأة من الرجل مكان الفطرة السليمة كما أبانتها الآية الكريمة ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3].

فلا بدع أن يعرف عقلاء الرجال للمرأة منزلتها وكرامتها؛ كما يعرفون

---

(١) ديوان حافظ.
(٢) سورة فاطر، ٢٤.
(٣) سورة الروم، ٢١.

ذلك لأنفسهم، بل لا عجب أن يعرف ذلك الفطريون والهمجيون، وكيف يستعبدها من يعلم أنه بضعة منها وأنها بدورها بضعة منه؟.

قال رجل لمعاوية: كيف أنت وقد ملكك نصف رجل؟ قال يابن أخي: إنهن يملكن الكريم، ويملكهن اللئيم، وهو لا شك قد انتفع بقول الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم».

أما مكانة المرأة العربية فإليك الحديث عنها في فصلها الخاص.

المرأة العربية
«ومكانتها في قومها»

وهل للمرأة العربية من مكانة في نفوس العرب وقلوبهم؟

وما ظنك بمن كانت مكانته في التراب، وعيشه في الرغام، يورث كالأنعام، ويدس في الثرى إن شاء مولاه؟

هذه فكرة سائدة، ربما ساعد عليها النظر السطحي في الآية الكريمة ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون﴾[1].

يقرأ القارىء هذه الآية، فيظن لأول النظر أنها تحدث عن العرب قاطبة، وعن فعلة فيهم شائعة، فيأخذ منها مكانة المرأة عند العرب، وسنعرض للآية الكريمة بعد، بما يتبين منها أنها لا تساعدهم على ما يظنون.

وترى كثيراً من الكاتبين يُعممون الحكم، والتعميم غير سليم، لا يسلم من ذلك بعض كبار الباحثين، فهذا كاتب كبير، له مكانه المرموق في مصر والشرق كالأستاذ العقاد، وكتاباته الإسلامية من أجل وأقوى ما كتب في بابها، يحدث عن المرأة العربية في كتابه المعروف «عبقرية محمد» ﷺ فيقول:

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية، وبعدما صارت إليه بعد رسالة محمد ﷺ.

---

(١) سورة النحل آية: ٥٨ ـ ٥٩.

«كانت متاعا يورث، ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين؛ فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه صاحبة حق مشروع، ترث وتورث، ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالها وهي في عصمته كما تشاء،وكانت وصمة تدفن في مهدها فراراً من عار وجودها، أو عبئاً تدفن في مهدها فراراً من نفقة طعامها فأصبحت إنساناً مرعي الحياة، ينال العقاب من ينالها بمكروه»[1].

هذا كلام أدبي جميل. ولنا عليه ما أخذناه على سابقه. فهو إجمال يحتاج إلى تفصيل، بل هو تعميم يجب فيه التخصيص، فلم تكن المرأة في جميع أحياء العرب وشعوبهم وقبائلهم متاعاً يورث، أو عاراً يدفن في التراب، وإلا فكيف جاءت الجحافل الجرارة، والبطولات النادرة التي دكت المعاقل. وثلت العروش، وغيرت وجه التاريخ؟ أمن تلك التي دفنت في التراب، أم من هذه الذليلة الحقيرة المستهجنة؟.

والحق أن المرأة العربية عند الكثرة الساحقة من العرب لم تكن بمنزلة كريمة عند الرجل فحسب، بل كانت شريكة حياته، وربة بيته، وموضع احترامه ومرادَ أنسه. ومهوى فؤاده[2].

ترى ذلك جلياً في أشعارهم وأخبارهم وتواريخهم، تزخر به أسفار الأدب وكتب التاريخ. وهاك بين يدي البحث نماذج من كلام العربي الصميم في خطابه ومعاملاته ونظرته إلى امرأته، حيث نراه يفتديها بنفسه، ويخوض الغمرات صيانة لها، وغيرة عليها، وفي ذلك يقول:

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تُقسم أو تهونا
يَقُتْنَ جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا[3]

---

(١) للأستاذ العقاد في كتابه الصديقة بنت الصديق كلام أوفى بموضوع المرأة العربية مما ذكره في عبقريا محمد.

(٢) من خير المؤلفات التي عرضت لهذا الموضوع باستيفاء محاضرات الأستاذ (محمد سليمان بدير) بكلية أصول الدين. وهي مطبوعة.

(٣) معلقة عمرو بن كلثوم.

يناديها نداء التكريم، ويكنيها بكنى التعظيم، ويخاطبها أجمل الخطاب:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضُمِّي إليك رحال القوم والقربا

ويستشيرها في الذي يعنيه من أمره، وفي كيفية نزول الضيفان به:

ماذا ترين أندنيهم لأرحلنا بجانب البيت أم تبني لهم قببا[١]

ويستدر عطفها ورضاها، ويتطلب فيه جميل رأيها:

صبأت الكاس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا[٢]

ويسألها الثناء عليه والشهادة له.

أثنى على بما علمت فإنني سمح مخالطتي إذا لم أظلم

. . . .

هلا سألت الخيل يابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم[٣]

بل إنه ليستنكر ضربها، ويعده غير لائق بكرام الرجال، ويطلق لها التصرف في بيتها ثقة برجاحة عقلها، وحسن تصرفها:

وما أنا بالساعي إلى أمّ عاصم لأضربها إني إذاً لجهول
لكِ البيت إلاّ فينةً تحسنينَها إذا حان من ضيف عليّ نزول

وليس ذلك بالنزر اليسير في آداب العرب وأشعارهم، ولا هو من خلائق بعض أفرادهم، بل إنك لتقرأ الوفر الغزير من شعر العرب وقصائدهم ومطولاتهم،فقلما تجد قصيدة تخلو من وصف المرأة وإطراء محاسنها وخلالها.

---

(١) الحماسة لأبي تمام.
(٢) معلقة بن كلثوم.
(٣) معلقة عنترة.

وتقرأ تاريخ العرب فترى من ملوكهم وأشرافهم من ينسب لأمه، ويعرف بها كما عرف بأبيه، ويمدح بها فلا يجد في ذلك غضاضة عليه، بل إنه ليزداد شرفاً إلى شرف، فهذا عمرو بن المنذر بن ماء السماء الملقب بعمرو بن هند، وأبوه المنذر غلب عليه لقب أمه ماء السماء لصفائها وبهائها، أو لجمال حسبها، وهؤلاء ملوك غسان يمدحون بأمهم مارية ذات القرطين، ويقول فيهم حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أبناء جفنة عند قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

ولبيد بن ربيعة يفتخر بين يدي النعمان بأمه أم البنين:

نحن بني أم البنين الأربعة ... ليوث حتف وجفان مترعة

ومدركة جد النبي ﷺ وأخواه طابخة وقمعة أبناء الياس بن مضر غلبت عليهم النسبة إلى أمهم فقيل أبناء خندف[1] ومزينة وباهله وبجيلة قبائل من العرب عرفت بأمها.

وضرب المثل بالمرأة في العز والمنعة كما ضرب بالرجل، فكما قيل أعز من كليب وائل، قيل أمنع من أم قرفة[2].

وتكهنت المرأة العربية كما تكهن الرجل، واحتكم الرجال إليها[3]،

---

(١) ذكره صاحب القاموس.

(٢) أم قرفة امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً كل سيف لذي محرم لها.

(٣) من ذلك ما رواه ابن اسحاق في حفر عبد المطلب زمزم ومعارضة قريش له، واحتكامهم إلى كاهنة بني سعد هذيم بأشراف الشام، وما حل بهم من العطش المميت ببعض الطريق وانبعاث الماء من نبع تحت ركبة بعير عبد المطلب فسقوا جميعاً، وأنصفه قومه وقالوا والله لا نخاصمك في زمزم أبداً إن الذي سقاك هذا الماء في هذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً. ولم يصلوا إلى الكاهنة.

راجع القصة بطولها ص ١٥٥ جـ١. من سيرة ابن هشام.

وتنبأت كما تنبئوا، فإلى جانب مسيلمة، وطليحة الأسدي، كانت سجاح التي انقاد إليها قومها من بني تميم.

وفي الفصل السابق رأينا بلقيس العربية ملكت في اليمن بالجنوب، والزباء أو زينب ملكت في الشمال، وسيمون كما يذكر المسعودي في مروج الذهب ملكت في بعض جهات العراق أربعين سنة.

وتقرأ أيام العرب وحروبهم ووقائعهم فكثيراً ما ترى الحرب هاجت بكلمة منها، أو لحادثة مستها، كما قد تهدأ رحاها عن رأيها ومشورتها، فحرب البسوس وقد دامت بين بكر وتغلب أربعين سنة، قامت انتصافاً لجار امرأة، وحرب ذي قار، وفيها انتصف العرب من العجم بسبب مقتل النعمان من أجل رفضه مصاهرة كسرى في خبر طويل[1] وتخرج المرأة كثيراً إلى المعارك الحربية، فتأسو جراح المجروحين، وتنزل الثبات على قلوب المتهيبين، وتشعل نار البسالة والإقدام في صدور المستبسلين، كما كان في موقعة ذي قار، وكما حدث في حرب الفجار. ولقد كانت أحياناً تجير على القوم، بل يتفق لها أن تكون من قبيلة نسباً وفي أخرى صهراً، فتكون ملاذ الفريقين في البأساء، يلوذون بحماها، ويحتمون بخباها، فيُجار من تجير، ويصان من تصون، كما حدث لسبيعة بنت عبد شمس في حرب الفجار[2].

وكانت تستشار في زواجها كهند بنت ربيعة، وكان من النساء من تملك عصمتها، ويكفيها لفراق زوجها أن تشعره بانصرافها وتحويل باب خبائها، وكانت أم عبد المطلب فيمن ملكن عصمتهن[3].

---

(١) الأغاني جـ٢.

(٢) الأغاني جـ١٩ في ذكر أيام الفجار أن مسعود بن معتب الثقفي ضرب لزوجته سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف القرشية خباء، وقال لها من دخله من قريش فهو آمن، فجعلت توصل في خبائها ليتسع لمن يلوذ بها من قومها، ثم دارت الدائرة على قيس فلاذوا بها فأمضى جوارها حرب بن أمية القرشي وقال لها يا عمة من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن، فخرج زوجها مسعود منهزماً لا يعرج على شيء حتى أتاها فجعل أنفه بين ثدييها، وقال لها أنا بالله وبك، فقالت: كلا، زعمت أنك ستملأ بيتي من أسرى قومي، إجلس فأنت آمن.

(٣) السيرة الحلبية ص ٧ نقلاً عن الهاشمية.

ونبغ من العرب الشاعرات والخطيبات، وكن يردن الأسواق الأدبية كعكاظ، فينشدن الأشعار ويخطبن على الرجال، ويساجلنهم أفانين القول، وضروب الكلام[1].

أما حرمانها من الميراث فكان ذلك في رأيهم لأنها معفاة من كثير مما كلف به الرجال فهي لا تباشر الحرب كما يباشرون، ولا تفتح بيتها للضيفان فتبهظها واجبات الكرم وضرورات الشرف،ومن حَرَمها فقد حرم الصغير لذلك.

وهي لا تُحْرم التملك، أو التصرف فيما تملك، والارتزاق والاتجار إن شاءت، غير أنها غالباً تُكفى بمن يليه لها من الرجال، على أن تكفيه البيت وما فيه.

أما وأد البنات في الجاهلية فلم يكن ذلك عاماً في العرب ولا فاشياً فيهم، وإنما كان في بعض قبائلهم خوف العار وخشية الفقر.

ذكر المؤرخون أنه في بني تميم ثم استفاض في جيرانهم، وسبب ذلك أن بني تميم وحلفاءهم كانوا يؤدون الإتاوة إلى النعمان ملك الحيرة، ثم منعوها في بعض السنين فجرد عليهم جيشاً هزمهم وساق أنعامهم، وسبى ذراريهم، فأرسل بنو تميم يطلبون السبايا من النساء والأموال فأبى، فسألوه النساء، فقال كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه، فكلهن اختارت أباها إلا ابنة لقيس بن عاصم سيد بني تميم، فإنها اختارت عمرو بن المشمرج وآثرت البقاء معه على الذهاب مع أبيها، فغضب قيس ونذر ألا تولد له بنت إلا قتلها، وغضب القوم لغضبه من أجل الشرف، وقلدهم بعض الناس في ذلك، وساعد عليه لدى بعض الأحياء غلبة الفاقة وخشية الفقر، كما روينا مثله عن اليابان في أيامنا هذه.

---

(١) الأغاني جـ٣ ص ٢٦ في أخبار بشار وقد سئل عن عربيته وعدم لحنه: فقال: ومن أين يأتيني الخطأ ولدت ههنا.. ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم وأيفعت فابديت حتى بلغت، فمن أين يأتيني الخطأ؟.

حتى إذا ثاب القوم لرشدهم، استنكر عقلاؤهم هذه الفعلة الشنيعة وأنكروا على قيس عمله، ورأوه أمراً إدّا[1]، وقام بعضهم يناهضها، ويفتدي البنات من أهلها، وشهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الشاعر المشهور وقال في ذلك يفتخر.

ألــم تــر أنّــا بـنـي دارم ... زرارة مـنـا أبـو معـبـد
ومنـا الـذي منـع الـوائـدا ... ت وأحيـا الوئيـد فلم توأد
ومـجـد بـنـي دارم دونــه ... مكـان السماكين والفـرقد[2]

هذا:

والآية الكريمة ليس فيها دلالة على أن جميع العرب كانوا يصنعون ذلك، وبقليل من التأمل في سياق الآيات قبلها يستبين لنا أنها تتحدث عن فريق زادت شناعة جرمهم، وكفروا بأنعم ربهم، يلجأون إليه في الشدائد، فإذا كشف الضر عنهم أشركوا به، وجعلوا الكفران بديلاً من الشكران، وما بك إلا أن تمد يمينك إلى كتاب الله فتقرأ فيه من سورة النحل ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون، ليكفروا بما آتيناهم فتَمتَّعوا فسوف تعلمون، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾[3].

والآيات بعد جلية في أن الحديث عن فريق من المشركين لا عن جميع المخاطبين، وهذا هو مورد النهي في قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق

---

(1) الأمر الإدّ بالكسر، وتفتح الهمزة: المنكر.
(2) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢٨٣ وما بعدها.
(3) الآيات من ٥٣ ــ ٥٩.

نحن نرزقهم وإياكم﴾[1]. وإن كان اللفظ عاماً، لأن أوامر الله ونواهيه تشمل جميع المكلفين.

وبعد:

فإذا كنا نحاول وضع قضية المرأة العربية في إطارها الحقيقي، فليس معنى ذلك الدفاع عن العرب، أو نكران ما كانوا عليه من نقائص ومساو. فالعرب قوم لهم حسناتهم وسيئاتهم، كافح الإسلام سيئاتهم وقضى على كثير منها، وزكى حسناتهم وانتفع بها أكبر انتفاع في حمل دعوته إلى العالمين. ﴿والله أعْلَمُ حيثُ يجعلُ رسالته﴾[2].

العرب أمة من الأمم فرضت عليهم معيشتهم وبيئتهم خلائق من الخير والشر؛ ولم يكونوا جميعاً يكرمون المرأة ويجلونها، كما لم يكونوا جميعاً يحتقرونها ويستهينون بها، وكانت لهم أنظمة في النكاح والطلاق، منها الصالح ومنها الفاسد، فما كان صالحاً أبقاه الإسلام، وما كان شرا محاه.

وحياة العرب في ظلال الحرية الكاملة التي لا حكومة فيها ولا سلطان غالباً إلا ما تعارفوا عليه وارْتضَوه، غلبّت عليهم الطباع الفطرية التي لا نفاق فيها ولا التواء، والتي قد تصل بأحدهم إلى أبعد مدى من المروءة والكرامة والنجدة، كما قد تنزل بالبعض إلى مهاوي الرذيلة والشراسة، وقلما تجد من بينهم وغداً خسيساً يقبل الضيم ويرضى بالهون، وكثيراً ما تجد الفاتك المتَقَحم يركب الشطط ويخوض الغمرات:

إذا هَمَّ لم تُردَعْ عزيمةُ همه ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بين عينيه همّه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في أمره غيرَ نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

---

(١) سورة الإسراء آية ٣١.
(٢) سورة الأنعام آية ١٢٤.

لا يبالي أهدم روحه أم هدم داره.

سأغسل عني العار بالسيف جالبا   على قضاءُ الله ما كـان جـالـبَـا
وأذهـل عن داري وأجعل هـدمها   لعرضىَ من باقي المذمة حاجِبَا[1]

هذا العربي قد يصل به العفاف والتكرم إلى حد قوله:

وأغُضُّ طـرفي حين تبدو جـارتي   حتى يُـواري جـارتي مخبـاهـا

وقد يسفّ إلى حد أن يُكره إماءه على البغاء تكسبا بأجورهن، حتى ولو أبَين ذلك.

ولو داخلك العجب من أمر كهذا، فلا بأس أن تذكر أنا منذ قليل، ونحن أهل الإسلام، وفينا كتاب الله يُتلى، وتُدرس آياته وعظاته، ومصرُنا العزيزةُ بلد الأزهر، وزعيمةُ المسلمين، ومع كل هذا فكان البغاء رسمياً[2] وكانت له دوره ومواخيره ونظمه، بل ولا يستحي أقوام أو أشباه أقوام أن يطلبوا إعادته بعد إذ قضى عليه.

أما البيئة العربية فكانت بما تجيش به من قوة وحيوية، وما تزخر به من خير وشر، وما يغشاها من ظلام دامس وضلال مبين، أنسب البيئات لنور الإسلام يمحو ظلامها، وصلاحه يزيل فسادها، وهُدَاه يكشف ضلالها، فإذا هي في نورها وصلاحها وهداها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهي عن المنكر، وتؤمن بالله، وهي في ذلك تحمل مشعل النور والهداية إلى الناس أجمعين.

وقبل أن أمضي في الحديث عن هذا النور الإلهي الأكبر، ونصيب المرأة فيه، أراني مضطراً إلى فصل أقدمه بين يديه، يتحدث عن المرأة والرجل في ذات أنفسهما قبل الحديث عن آثارهما وأعمالها.

---

(١) ديوان الحماسة قائلة سعد بن ثابت شاعر إسلامي أموي.

(٢) كان ذلك من آثار شراسة الاستعمار، فلما أفاقت الأمة من سطوته، عملت على إزالته، ومحو آثاره.

هل تساوى المرأة الرجل في القوى الجسمية؟...

هذه قضية ما كان أغنانا عن الحديث فيها، فللرجل مكانه من الحياة. كما للمرأة مكانها، وإذا كانت المرأة لا تغني غناء الرجل، فليس يُغني الرجل غناءها، ولن يقوم أحدهما بدون الآخر، فهما معاً مادة الحياة.

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾(١).

وإذا كانا يتكاملان ويتعاونان على مقتضى الفطرة وشرعة الله، فليس يعني ذلك أنهما حتما متساويان.

وإن مجرد النظر إلى كل منهما وقد أبدعته القدرة الإلهية التي أحسنت كل شيء صنعا، يرينا اختلاف جانب الرجل من الحياة عن جانب المرأة، فخَلقُه على ما هو عليه يؤذن بواجباته التي هدى إليها منذ الخليقة، كما أن صورةَ المرأة وخَلقها يوحي بما هو منُوط بها من الواجب الأقدس في الحياة، فكما خالفت الرجل في جسمه، خالفته في وظيفته وعمله.

ومن هذا التنوع في الواجبات والأعمال تكمل ضرورات الحياة، ويتم به العمران.

هذه حقائق واضحة ومحسوسة، يراها الناظر العادي، كما يراها الباحث الفلسفي، ولكن قوماً لا يُعجبهم التسليمُ بهذا الواضح البين، فتراهم يمارون

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

فيه، زاعمين أن الطبيعة وهبت المرأة والرجل مواهب متماثلة، ويحاولون التدليل على ذلك بإثبات مساواة الأنثى للذكر في عالم الحيوان، وتفوقها عليه في بعض الأنواع، وينسبون هذه الفروق الظاهرة بين الذكر والأنثى في القوة والجلد، إلى العادات والقوانين التي ظلمت المرأة وألزمتها القرار في بيتها، وحرمتها أنواع النشاط الخارجي، وكثرة التجارب والخبرة في الحياة، حتى عاد الرجل قيما عليها، يسلبها حقها، ويتصرف في جميع شئونها، فوَهَن لذلك جسمها، وحد الوهنُ من تفكيرها، وأضعف شخصيتها.

يقول المرحوم قاسم أمين[1]: المرأة وما أدراك ما المرأة؟ لا تختلف عنه في الأعضاء، ووظائفها، ولا في الإحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان، إلا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف.

ثم يزيد هذا المعنى تقريراً فيقول بعد:

«فإذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية، فذلك إنما لأنه اشتغل بالعمل والفكر أجيالاً طويلة، كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين، ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط في الشدة والضعف، على حسب الأوقات والأماكن».

وينقل في كتابه المرأة الجديدة[2]. عن جملة من العلماء الأوروبيين ما يؤيد وجهة النظر هذه، ويذكر عن أحدهم وقد وصفه بأنه العلامة (مانتجازا) المدرس لعلم الإنسان والعضو في مجلس الشيوخ الطلياني في كتابه (فسيولوجيا المرأة) قوله: «ما أكفر الرجل الجاه كبره أن يزور حتى في علم التشريح فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول في العالم، بل أراد أن يبرهن أن المرأة أقل منه في الإنسانية، وأنها في مرتبة بين القرد والإنسان، ولهذا فيكون له الحق في أن يجردها عن الحقوق التي منحها نفسه، وكأنه نسي أن الذات التي يريد أن يحط منها هي أمُّه. والحقيقة أن المرأة أمام علم التشريح ليست أقل من الرجل

---

(١) في كتابه تحرير المرأة فصل تربية المرأة.

(٢) تحت عنوان: حرية المرأة.

ولا أرقى منه، وإنما تختلف عنه لأن لها وظائف تقوم بها غير وظائف الرجل» ثم علق عليه بقوله: وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للإحساسات والعواطف.

وهذا الكلام لا يَرد علينا معشر الاسلاميين شيء منه، فلم تكن المرأة في نظر الإسلام يوماً أقل إنسانية من الرجل، فضلاً عن أن يعتبرها منزلة وسطاً بين القرد والإنسان، وليس هناك شخص في الإسلام له مثل واجب الأم من الرعاية والعناية والتكريم[1] ولئن كانت المرأة أمام علم التشريح ليست أقل ولا أرقى وإنما تختلف عنه لاختلاف وظائفها فذلك لا يجافي الإسلام، بل هو برهان له وتأييد، فإذا زاد عقل الرجل وزخرت عواطف المرأة فذلك فيهما معاً من كمال الفطرة وحظ النوع البشري، ولو كان الرجل عاطفياً فأنّى له أن يثبتَ في صراع الحياة وقراع الخطوب؟ ولو نضبت عواطف المرأة وغلبها عنصر التقدير والتفكير، فما الذي يغريها بذلك الحمل كرها والوضع كرها حتى تشارف الموت وتنظره، ويهون عليها ما يلي ذلك من آلام النفاس ورعاية الولد؟.

اللهم لا شيء إلا عواطف الأمومة الزاخرة، حيث تحتمل الأمُّ الآلام في سبيل وليدها، وتستعذب العذاب من أجل رضيعها، واجدة في مناغاته أجمل الألحان وأعذب الأماني،شاعرة بأن حياته من حياتها، وبأن سعادته من سعادتها.

هذا: والعالم الإيطالي الذي يرمي الرجل بالتزوير في علم التشريح، هو نفسه يثبت الاختلافات بين الرجل والمرأة.

ولو تجاوزنا عن تجارب العلماء وموازينهم، ومقاييسهم وتشريحهم، لأمكن أن نلاحظ بعيداً عن المعامل والمخابر بالأعين المجردة،فروقاً مما بين الرجل والمرأة لا يرتاب فيها عاقل، فصغر الرأس في المرأة واضح جلّي يعلمه العالم والجاهل، وسرعة نمو الفتاة عن الفتى، ونضوجها المبكر، وميلها إلى بناتها الصغار،

---

(١) وفي الحديث من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك، قال ثم من؟ قال، أمك، قال: ثم من؟ قال أمك قال ثم من قال: أبوك ــ رواه البخاري.. كتاب الأدب. باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟.

واعتبارها كل صغير بنتاً لها أمر مشاهد كذلك، دع عنك اختلاف الأعضاء الخاصة بكل نوع.

أما الزعم بأن هذا من أثر العادات والتقاليد، والحياة التي عاشتها المرأة سجينة فغير سليم، لأن هذه الفروق تشاهد عند المتمدنين الذين درجوا حينا على حجب المرأة، كما تشاهد عند القرويين والبدويين، حيث المرأة شريكة الرجل كثيراً في الأعمال، بل عند المتوحشين الذين يكلفون نساءهم الحرث والسقي والزرع، والذين لا يعرفون عادة حجب النساء كما يرويه الباحثون.

ولو صح ما يدعون فبماذا تعلّل هذه العادات والتقاليد والقوانين، وكيف نشأت وبقيت كل هذه الأزمان الطويلة منذ الخليقة الأولى، وكيف لم يتسن تغييرها في زمن من الأزمان حتى توافق الحق والعدل ولو في بعض الأحايين؟.

وكيف لم تَثر المرأة على الرجل كما ثارت طبقة على أخرى حتى يفيء الرجل إلى الاعتدال؟ مالنا نشاهد المرأة لا تعجب إلا بالفحل من الرجال، ذلك الذي تحس بالضعف بين يديه، ألأنها خلقت لتثور عليه، أم لتركن إليه؟.

لا شك أن بعض العادات والشرائع المتبعة عند كثير من الأقوام قد ضخمت الفروق بين الرجل والمرأة، فتبع ذلك إجحاف بحقوقها من جانب الرجال، ولكنه، ــ ولا ريب ــ لولا وجود الفوارق الطبيعية، والمميزات الجسمية والعقلية، لما نشأت هذه العادات وتلك التقاليد وإليك طرفاً مما أثبته العلم الحديث في الفروق بين الرجل والمرأة، سواء في البدو أو الحضر، والمدنيين أو المتوحشين.

يذكر الباحثون(١):

أن قامة المرأة في جميع الأجناس أقصر من قامة الرجل، وذلك منذ المهد فالذكر يولد أكبر من الأنثى، ومعدل الفرق بينهما عند تمام النمو(١٠

---

(١) من أهم الكتب التي انتفعنا بها في هذا البحث «خلق المرأة والمقارنة بينها وبين الرجل لهنري ماريون» دائرة المعارف للمرحوم وجدي، وكذلك كتابه المرأة المسلمة.

سم) وكذلك الوزن، ويظهر جلياً في الهيكل العظمي، فهيكل المرأة أخف وزناً من هيكل الرجل ليس في ذاته فحسب، بل كذلك بالنسبة لوزن الجسم؛ وتركيب الهيكل يجعلها أقل قدرة على الحركة والانتقال. وعضلاتها أضعف من عضلات الرجل بقدر الثلث ـ وتفضله هي في النسيج الخلوي الذي يحوي كثيراً من الأوعية الدموية والليمفاوية والأعصاب الحساسة، ويسمح باختزان طبقة دهنية، وعلى هذا النسيج بما فيه تقف استدارة شكلها، ورشاقة قدّها.

فإذا أتينا إلى الرأس وجدنا أن مخ الرجل يزيد في المتوسط عن مخ المرأة بمقدار مائة جرام ـ وليس ذلك راجعاً إلى اختلاف حجم الجسمين، لأنه قد شوهد أن نسبة مخ الرجل إلى جسمه كنسبة $\frac{1}{4٤}$، أما نسبة مخ المرأة إلى جسمها فهي $\frac{1}{4٤}$، وفرق بين النسبتين، وغير هذا فإن مخها أقل ثنيات، وتلافيفه أقل نظاماً، كذلك يوجد اختلاف بين المخين في الجوهر السنجابي الذي هو النقطة المدركة من المخ، فهو عند النساء أقل منه عند الرجال بدرجة محسوسة.

ولكن في مقابلة ذلك نجد مراكز الإحساس والتهيج عند المرأة أحسن تركيباً منها عند الرجل[1]، فإذا انتقلنا إلى الجهاز التنفسي رأينا المرأة متخلفة عن الرجل في سعة الصدر والرئتين، والتنفس لديها أسرع ولكنه أنقص من الوجهة الكيماوية، فالرجل أكثر امتصاصاً منها للأوكسجين وإطلاقاً للحمض الكربوني، ولذلك نجد المرأة دون الرجل في درجة الحرارة.

أما القلب فهو في المرأة أصغر منه في الرجل، ونبضه لدى المرأة أسرع وأكثر، بما يتراوح بين ١٠، ١٤ مرة في الدقيقة، ويشاهد مثل ذلك الفرق بين أنثى الحيوان وذكره.

وإذا كان بعض هذه الفروق مما يختلف فيه آراء الباحثين، فإن مجموعها ثابت لا سبيل إلى جحده أو الشك فيه، وهي بعد ليست لانتقاص قدر المرأة أو توهين شأنها، وليست شهادة بتزكية الرجل وإعلاء قدره، وإنما هي فقط دليل قاطع على تنوع الأعباء والواجبات في الحياة بما يناسب الفطرة ويزكيها، ويضمن

---

(١) أطلق عليها بعض الباحثين الجنس الحساس.

استغلال المواهب الإنسانية على أحسن حال وأكمل وجه «وكل ميسر لما خلق له».

* * *

هذه هي المرأة وقد كتب عليها في الحياة أن تكون والدة تحمل الجنين وتضعه،وترضعه في حولين كاملين أو أكثر، وتقوم على شئونه لتدفعه للمجتمع عضواً عاملاً ينفعه وينتفع به، فمن لها وتلك حصتها إذا لم يكن على الرجل تعاهدها ورعايتها والحنو عليها؟.

من يقوم بغذائها وكسائها وعلاجها وقد شغلها الطفل حتى عن نفسها؟

أليست هي في حاجة ماسة إلى معونة الرجل حينذاك؟.

أليس المجتمع يكون ظالماً إن ترك أمر عيشها إليها، فكلفها بذلك ضعف ما يكلف به الرجل؟.

يقول الأستاذ هنري ماريون[1]:

فلله در هكسلى القائل: «ما دامت الأمومة حصة المرأة فإنها حمل ثقيل عليها في ذلك السباق الذي يسمى الحياة، فواجب الرجل أن يخفف عنها ذلك الحمل، أو على الأقل ألا يضيف إليه أثقالاً أخرى،فيزيد الحيف الذي نالها من الطبيعة.

ويقول: إن في حياة المرأة على الخصوص في العارض الابتدائي (بين سن ١٢،١٤) وفي العارض النهائي (حوالي سن ٤٥) جملة أخطار تجعلها عرضة للضعف والعطب...

إن المرأة في أجمل دور من حياتها ــ حتى أقوى النساء وأرزنهن عقلاً وجسداً،عرضة لمشاق وشدائد تتفاوت في الخطورة، فقد كتب لها أن تعرف أيام تعب وضعف تتكرر في أوقات معلومة، وأن تكون شديدة التأثر والانفعال من أتفه الأسباب، كثيرة التعرض للغم والكرب والتخوف والتوجس، ميالة إلى العزلة والهدوء.

---

(١) المصدر السابق.

ذلك هو الجعل المفروض عليها تكبُّده للاحتفاظ بالجنس، ولهذا كانت ضرورة التكافل بين الرجل والمرأة قاضية بالتعاون التام بينهما،القائم على أساس تخصص كل في أعماله وأعبائه، بحيث يجيء من مجموعهما وحدة كاملة في حياتها وعيشها وأهدافها، على أساس وطيد من النظام والانسجام.

والإسلام وهو دين الفطرة الذي أنزله مبدع الكائنات، وباريء النسمات، لم يكن منه إلا رعاية هذه المفارقات لخير الطرفين على السواء، فصان المرأة ورعاها فتاة وزوجة وأمّاً، وأوجب لها من الحقوق الشيء الكثير على الرجل والمجتمع، فرضاً لازماً، وحقاً مقضياً، لا صدقة ولا تفضلاً، كفاء ما تقوم به من أعباء، وما تنهض به من تبعات لا ينهض بها الرجل، ولا تكون بغيرها الحياة.

المرأة والدعوة

ظهـرت المرأة في ساحة الإسلام منذ اللحظة الأولى عاملاً إيجابياً له أثره البالغ فيه، ثم لم يزل ذلك الأثر واضحاً بارزاً حتى أتم الله دينه، وأكمل يقينه، وارتفعت راية الإسلام وعلت كلمته في العالمين.

وإذا كانت المرأة المسلمة لها سجلها الحافل في تأييد هذا الدين، ورفع قواعده، فللمرأة الكافرة موقفها الإيجابي في مناوأته ومعاداته، مذ كان دعوة ناشئة، إلى أن صار أمة ناهضة تحمل المهند في وجوه الصادين عنه، حتى شرح الله صدرها للإسلام، فاجتذب قلبها فيمن اجتذب، أو تمادت في عنادها فقضى عليها فيمن قضى، وسنتابع هذا الجهاد في مراحله المختلفة.

وأول ما يلفت النظر في هذا السبيل، بل ويملأ القلب إعجاباً وروعة، هو الموقف الجليل من سيدة الإسلام الأولى، تلك التي استقبلت الدعوة فجراً صادقاً لم ينبلج نوره؛ ولم يستبن بعدُ ضياؤه، بل لم يطمئن الرسولُ نفسه إلى هدف ذلك النور ومبتغاه؛ فها هو ذا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وقد أتاه جبريل بحراء يبلغه آيات من القرآن الكريم، ويتلو عليه قول الله سبحانه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾. فيرجع بها وفؤاده يرجف، يقص على زوجته ما رأى، ويقول: «والله لقد خشيت على نفسي» فتهش له وتبش، وتبصر بظهر الغيب ما يمكن أن يكون لمثل ذلك الرجل الذي اصطفاه مولاه فصفاه، وأدبه فأحسن تأديبه، وصنعه على عينه وجمله بالخلق العظيم،

والخُلقُ الوسيم، والحكمة البالغة، والله أعلم حيث يجعل رسالته تقول له: ﴿كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، أبشر يا بن عم واثبت﴾ ثم لم يكفها ذلك حتى تنطلق معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرأ كبيراً مجرباً، تنصر وقرأ من الكتاب ما شاء الله فقالت: يا بن عم اسمع من ابن أخيك، فسمع ورقة منه، ثم بشره بأنه النبي المنتظر، وأن هذا هو الناموس الأكبر الذي أنزله الله على موسى، وتمنى أن لو امتدت حياته لينصر النبي.

بل ما لنا لا نمد أبصارنا وقلوبنا إلى ما قبل ذلك، لنعلم أن موقف خديجة أعمق من ذلك في حياة الإسلام وأبعد. لقد كان ربك يُعد نبيه أكمل الإعداد لحمل الأمانة العظمى، والرسالة الخاتمة، وكانت خديجة أكبر معين للرسول في هذه الفترة الهامة، ترعى له بيته وولده، وتهيىء له الجو الهادىء السعيد، وتعد له زاداً ليخلو بغار حراء، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع لأهله فيتزود لمثلها، إلى أن جاءه الملك. فكانت ــ رضي الله عنها ــ أول من آمن به ﷺ وكانت سكنه وملاذه من جهاد قومه، وكانت سند الدعوة بمالها وجاهها، حتى استحقت أن يقرئها جبريل السلام من الله الكريم، مبشراً إياها ببيت في الجنة من قصب[١] إلى أن اختارها الله لجواره.

يدعو الرسول إلى ربه، ويعلن على قريش دعوته، ويؤمن بها من شرح الله صدره للإسلام من الرجال والنساء، وتفتن قريش في الصدعن دين الله، وتبلغ من أذى المسلمين ما يبلغ الحياة نفسها، ويشاء الله أن تكون المرأة أول الشهداء في الإسلام، فهذه أم عمار بن ياسر في يد جلاديها ليفتنوها عن دينها، فتأبى حتى تقضي نحبها، وتفارق الحياة مؤمنة برب الحياة.

تلك وغيرها من المسلمات كثيرات يحتملن العذاب ألواناً؛ فلا يصدهن ذلك عن دينهن. ويفيض الأذى حتى يجاوز كل حد، ويحزن الرسول إشفاقاً على أصحابه، ويشير عليهم بالهجرة قائلاً: «لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكاً

---

(١) البخاري وغيره ــ والقصب هنا هو الدّر الرطب المرصع بالياقوت، أهـ قاموس.

لا يظلم عنده أحد.. حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.. فيخرج المسلمون بدينهم مهاجرين، يبلغون نيفاً وثمانين ومن بينهم ثمان عشرة امرأة.

وهذه الفترة من الدعوة، فترة الصبر والتحمل والثبات، لا تقف المرأة المسلمة الموقف السلبي صابرة محتسبة فحسب، بل تكون داعية ومؤيدة، فذانك بطلان من أبطال الإسلام قاما على دين القوم حينا حتى إذا شاء ربك أن يُعزهما بالإسلام ويُعزّ بِهما الإسلام، هيأ لهما المرأة لتدفعهما إليه دفعاً.

أما أولهما فصقر قريش وعم الرسول حمزة بن عبد المطلب.

حدث ابن هشام وغيره أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قنص له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة؛ وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلاّ وقف وسلم عليه وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة، فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته فقالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام!! وجده ههنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال له: أتشتمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد على ذلك إن استطعت. فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة، فإني والله سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتم حمزة ـ رضي الله عنه ـ على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله.

قال ابن أسحق: فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وأما ثاني البطلين فعمر بن الخطاب، وكان من أشد الناس إيذاء للمسلمين، فلما أراد الله له الهدى جاءه ذلك على يد امرأة من خاصته.

حدث ابن إسحاق قال: خرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه ــ وذلك بعد خروج من هاجر إلى الحبشة ــ يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين من بين رجال ونساء.. وفيهم حمزة وأبو بكر وعلي.. فلقيه نعيم بن عبد الله وكان مسلماً يستخفي بإسلامه، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ــ قال: فرجع عمر إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «طه» يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَينمةُ التي سمعت؟ قالا له ما سمعت شيئاً. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه اخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: «نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك»، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوي، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً فقالت له أخته إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه وقالت: يا أخي إنك نجس على شركك، وانه لا يمسها إلاّ الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال: يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام،

أو بعمر بن الخطاب،فالله الله يا عمر. فقال عمر فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. . فلما أسلم عمر كبر رسول الله وكبر بتكبيره المسلمون.

وكذلك كانت أخت عدي بن حاتم الطائي داعيته إلى الاسلام في خبر طويل(١).

وكان من النساء من تسلم وإن تأخر زوجها،ومنهن من تدعو إلى هذا الدين، تعلن ذلك إن استطاعت أو تخفيه.

فأم سليم بنت ملحان الانصارية تسلم مع السابقين، فيغضب زوجها مالك، ويخرج إلى الشام فيموت هناك. ولما خطبها أبو طلحة وكان مشركاً تقول له: ألست تعلم أن آلهك الذي تعبد نبت من الأرض؟ قال: بلى، فتقول ألا تستحي؟ أتعبد شجرة؟ إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقاً غيره، فيقول لها حتى أنظر في أمري، فيذهب ويجيء مسلمًا فتقول لابنها أنس زوج أبا طلحة(٢):

وقريب من هذه، تلك التي يخطبها فتأبى عليه حتى يهاجر، وبها عرف، وسمي مهاجر أم قيس.

وأم شريك القرشية العامرية وقع الإسلام في قلبها وهي بمكة فجعلت تدخل على نساء قريش وترغبهن في الإسلام،حتى ظهر أمرها لأهل مكة فأخذوها وأوثقوها، وساموها صنوفاً من العذاب، قائلين لها لولا مكان قومك لفعلنا بك وفعلنا بك،ولكنا سنردك إليهم(٣).

يقابل هذه الصفحة المشرقة التي سطرتها المرأة المسلمة في هذا الدور من تاريخ الإسلام، صفحة أخرى للمرأة المشركة في صدها عن دين الله وصرفها الناس عنه وإيذائها النبي والمؤمنين، وأبرز أولئك النسوة تلك الشقية التي برعت في حمل الشوك والأذى، تلقيه على منزل الرسول ﷺ وفي طريقه، وكانت أجدر

---

(١) ابن الأثير جـ٢، ص١٠٩.

(٢) الإصابة لابن حجر جـ٨، ص٢٤٣.

(٣) ابن الأثير في أسد الغابة، وابن حجر، في الإصابة.

بمواساته ومؤازرته، تلك هي زوجة أبي لهب، عم الرسول ﷺ والتي عبر عنها القرآن بحمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد.

وصورة أخف من هذه، أم تحاول صرف ابنها البار بها عن الإسلام، باعتزامها الصيام حتى الممات إن لم يرجع عن الدين الجديد.

روى ابن كثير في تفسيره عن الطبري بسنده عن سعد بن مالك قال: أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً...﴾ قال: كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمت قالت: ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي فيقال يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جهدت فمكثت.. حتى أتمت ثلاثاً، فلما رأيت ذلك قلت لها يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فكلي، وإن شئت لا تأكلي. فأكلت.

كذلك امرأة رافع بن سنان تحاول صرف بنتها عن الإسلام حيث أسلم رافع ولم تسلم المرأة فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت: إن أبا الحكم أخذ ابنتي ومنعنيها، فأمر رسول الله ﷺ أبا الحكم فجلس ناحية، وأمر المرأة فجلست ناحية، ووضع الجارية بينهما وقال: ادعواها فمالت إلى أمها فقال رسول الله ﷺ اللهم اهدها، فمالت إلى أبيها فأخذها[1].

* * *

وفي المرحلة الثانية مرحلة الإعداد لترك مكة الظالمة، بعد إذ طال أمد الدعوة ولم يعد في البقاء بمكة من رجاء يرتجي، يجيء ستة نفر من أهل المدينة فيؤمنون، ثم يتواعدون العام القابل فيزيد عددهم إلى اثني عشر رجلاً فيؤمنون

(١) الإصابة، جـ٨، ص ١٤٩.

ويبايعون على ألّا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوا في معروف، فمن وفى فله الجنة ومن أصاب من ذلك شيئاً فأمره إلى الله ـ عز وجل ـ إن شاء غفر وإن شاء عذب، وتعرف هذه البيعة بعد ببيعة النساء لأنها على غرار البيعة المذكورة في سورة الممتحنة: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألّا يشركن بالله شيئاً...﴾.

فإذا كان العام الذي يليه حضر كثيرون، يجتمع مع الرسول منهم ليلاً بضع وسبعون رجلاً وامرأتان من المسلمين،فيبايعهم ويبايعونه على النصر والجهاد (في خبر طويل) ثم تجيء المرأتان تريدان المبايعة، وكانت للرجال مصافحة، فيقول لهما الرسول قد بايعتكما على ما بايعت الرجال عليه، غير أني لا أصافح النساء. رواه ابن حجر وابن هشام وغيرهما وتسمى هذه بيعة العقبة الثانية. قال ابن الأثير: (في الكامل جـ)[٢] «وكانت البيعة في هذه العقبة على غير الشروط في العقبة الأولى، فان الأولى كانت على بيعة النساء، وهذه البيعة كانت على حرب الأحمر والأسود».

ويقوي ساعد الإسلام بأنصاره الجدد، فيعنف القرشيون في مقاومته، ويضاعفون الأذى والإعنات، حتى يأذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة،فيكون أول خارج رجل وامرأته وطفلهما،ذاك أبو سلمة وزوجه، تقول أم سلمة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة،ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح،فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريباً

منها، فمر بي رجل من بني عمي فرحمني. . . فقالوا الحقي بزوجك، ورد بنو عبد الأسد إلي ابني فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني ووضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحـد من خلق الله. . حتى لقيها عثمان بن طلحة، فأوصلها المدينة فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة[1].

ويموت زوجها وهي بالمدينة، وتكون خير مكافأة لها على جسيم تضحياتها أن تصير إحدى أمهات المؤمنين.

ويستقر الرسول وصحبه بالمدينة وتوضع اللبنات الأولى في صرح الدولة الناشئة، ويصطدم الإيمان بالكفر، ويجمع الله بينهما في صعيد واحد، حيث يلتقيان ببدر على غير موعد، «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد»[2]. وينتصف الحق من الباطل، وتأخذ سيوف المسلمين برقاب الكافرين، ويُكبتون حتى يموت بعضهم كمداً على قتلى بدر، ويضمون الصدور على إحن أشد حلوكة من السرار، ويكظمون الغيظ إلى أن يأخذوا بثأرهم، وللنبي فلذة كبد بينهم أفلا يشتفون منها؟ لقد كانت زينب بنت الرسول بمكة، تحت العاص بن خالتها لم يفرق الإسلام بينهما، فلما همت بالهجرة أخفت أمرها، وأحست بذلك هند بنت عتبة. . وهي الثكلى في أبيها وعمها وأخيها، فذهبت إلى زينب تعرض عليها العون والرفد من متاع ومال، قائلة إنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، وتقول زينب: والله ما أراها قالت إلاّ لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أردت الخروج ــ ثم خرجت زينب مختفية ومعها حموها، وتتابع رجال يمنعونها فَرُوِّعت حتى ألقت ما في بطنها، فجاءت هند مسرعة إلى أولئك الذين خرجوا إلى زينب، وأسمعتهم قارص اللوم والتوبيخ، وأنشدتهم:

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك[3]

---

(1) ابن هشام.
(2) سورة الأنفال: آية ٤٢.
(3) الأعيار الحمر، والنساء العوارك الحُيّض.

ثم تمضي راية الكفاح منشورة، وتقوم المعارك بين المسلمين والمشركين وتثأر قريش من المسلمين في أحد، وتهاجم الدعوة في مقرها الجديد، بغية استئصالها في الخندق فترتد عنها حسيرة، ويجزي الإسلام اليهود بلؤمهم ونقضهم الميثاق في قريظة والنضير، ويجيء عهد الحديبية، ثم فتح مكة، ويليه حنين والطائف، والمرأة في ذلك كله لم تغب عن مشهد واحد من مشاهده، بل كان لها في بعضها ما فاق مواقف الرجال، وعد في بطولة الأبطال، وأبرز ما يكون ذلك إذا حزب الأمر، وفدح الخطب، وطاشت الأحلام، وتكشفت الأمور عن المعادن الزاكية من النساء والرجال.

فهذه موقعة أحد والمرأة فيها تقوم بدورها الطبيعي من سقاية الماء وتضميد الجروح، وخدمة المحاربين، ولكن لواء المشركين يسقط فلا يجد من يحمله لكثرة من قتل دونه، فلم يزل صريعاً على حد تعبير ابن إسحاق ـ حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به[1].

وينكشف ظهر المسلمين بانصراف الرماة إلى الغنيمة، ظانين الموقعة انتهت، مخالفين وصاة الرسول ﷺ لهم، فتسنح الفرصة لخالد بن الوليد في خيالة أن يباغت المسلمين من خلفهم، فتختل صفوفهم ويضطرب أمرهم، وتبلغ بهم المفاجأة أن يفروا لا يلوون على شيء، ويثبت رسول الله ﷺ ونفر من صحبه قليل، ويعظم الكرب ويهول، فتقدم أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وتخوض المعركة، وتضرب بالسيف، وترمي عن القوس، وتغني ما لا يغني الرجال، ويدعو لها الرسول، ولزوجها، وولدها، ويقول: ما التفت يميناً أو شمالاً إلاّ ورأيت أم عمارة، ولمقام أمك ـ يخاطب ابنها ـ خير من مقام فلان وفلان.

بل لم تكن المرأة المسلمة التي قعدت في بيتها، ولم تخرج إلى الحرب بأقل أثراً، وأوهن خطرا من هذه التي خرجت ابتغاء مرضاة الله، فاسمع إلى ما يرويه

---

(١) لاذوا وأحاطوا به.

ابن إسحق بسنده قال: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين، قالت أرونيه حتى أنظر إليه، قال فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت؛ كل مصيبة بعدك جلل. تريد صغيرة[1].

فأي امرأة تلك التي تنصر الإسلام بزوجها وأخيها وأبيها، وكل ذلك عندما في جنب الله يسير؟ بل أي عبارة تستطيع الوفاء بحقها من التمجيد والتقدير؟.

وفي الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب جاسوساً يهودياً،كان يتسمع على حرم المسلمين.

وحضرت النسوة خيبر، وأعطاهن الرسول حظهن من الفيء، وشهدت الحديبية، وقد فدح المسلمين أمر الصلح،حتى لم يشاءوا أن يحُلوا من إحرامهم بعد أن أمرهم الرسول ثلاثاً، فيدخل إلى زوجته أم سلمة ويقول: هلك المسلمون، ويخبرها الخبر، فتشير عليه بأن يخرج فلا يكلم أحداً، حتى يحلق وينحر أمامهم، وما أن يراه المسلمون حتى يتواثبوا إلى القدوة برسول الله ﷺ.

وفي الفتح: يقبل الإسلام على مكة في قوته وصولته، ويروع أبا سفيان رئيس قريش ما يرى، ثم يرجع بالأمان إلى قومه، كاشفاً لهم عن قوى المسلمين، قائلاً يا معشر قريش: هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فتقوم إليه هند بنت عتبة زوجه، وتأخذ بشاربه وتقول: اقتلوا الحميت الدسم[2] قُبّح من طليعة قوم، فيقول أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ــ قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم والمسجد.

---

(١) ج ٣، ص ١٥.

(٢) الحميت أصله زق السمن تريد تشبيهه به لضخامته وسمنه.

ويفتح الله مكة على المسلمين، ويعم الأمان كلَّ من ألقى سلاحه وسالم، ما عدا أفراداً يُهْـدَرُ دمُهم من النساء والرجال لشناعة جرائمهم، وتجيء هند تائبة مستغفرة بعد أن رأت من نصر الله ما رأت، وشاهدت من عبادة المسلمين ما ملأ قلبها إعجاباً، فيعفو النبي عنها ويصفح، وتبايع فيمن بايع.

ويهرب فريق من الرجال، فتأتي نسوة تستأمن لهم، وتسأل الرسول العفو فيعفو، وتلحق أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجها عكرمة بن أبي جهل،وقد فر إلى اليمن فتجيء به تائباً،فلما أسلم أقر على نكاحها.

وفي الفتح تبرز للمرأة مواقف أخرى جديرة بالتسجيل، فها هي ذي المرأة المسلمة تجير، ويمضي الرسول جوارها، فقد استجار بأم هانيء رجلٌ من أحمائها فأجارته، فجاء علي ــ كرَّم الله وجهه ــ يريد قتله فمنعته منه، وحاكمته إلى رسول الله ﷺ قائلة له: زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان ابن هبيرة فقال رسول الله ﷺ قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء. رواه البخاري وغيره.

ولم يك جهاد المرأة ذلك خاصاً بالعهد النبوي، فلقد خرجت المرأة مجاهدة في عصر الخلفاء الراشدين، خرجت لقتال المرتدين تؤدي واجبها في خدمة الجيش،حتى إذا تحرج الموقف، وعظم الخطب، وزلزلت الأقدام، وقدّت الرقاب وتطايرت الهام، رأيت من أولئك النسوة من اقتحمت العجاج، وخاضت لجة القتال وصارعت الكماة والأبطال؛ فأم عمارة تكون مع المسلمين في حرب اليمامة ويقتل ابنها، فتأخذ السيف، وتقسم ألّا ترجع حتى يقتل مسيلمة أو تموت دون ذلك، ويبر الله قسمها، ويهزم الجمع ويصرع الكذاب مسيلمة، ويصيبها اثنا عشر جرحاً وتقطع يدها، حتى إذا عادت إلى المدينة يجيئها خليفة المسلمين أبو بكر يواسيها في ابنها ويدها، فتقول: وأي شيء هذا؟ إنه في رضا الله يسير.

وتأتي الفتوح الكبرى في العراق وفارس والروم، والمرأة تؤدي واجبها أكمل الأداء، وتبلي أجمل البلاء، وتذكي عزائم الرجال، وكثيراً ما يضطرها الحال إلى مباشرة القتال، كما في القادسية واليرموك فتأتي بالعجب العجاب، غير

هيابة ولا وجلة، ولا مباهية أو مختالة، وربما كانت منتقبة لا يعرف أهي رجل أم امرأة.

ويمضي عهد أبي بكر، ويجيء عهد عثمان ومعاوية على الشام، وتغزو المرأة فيمن غزا ملوكاً على الأسرة تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ.

حدث البخاري ومسلم وهذا لفظ مسلم: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان (وكانت إحدى خالاته من الرضاع) فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه فنام... فاستيقظ وهو يضحك قالت: فقلت ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: أناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثَبَج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة «يشك أيها قال» قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله كما قال في الأولى، قالت، فقلت: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت من الأولين. فركبت أم حرام بنت ملحان البحر زمن معاوية[1] فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت، ولم تكن الوحيدة من النساء بل معها كثيرات غيرها.

كذلك لم تنفض المرأة يدها من المشاكل الكبرى والأحداث الجسام، التي ألمت بالأمة الإسلامية أواخر أيام عثمان، وزمن علي ومعاوية، وموقف عائشة في الجمل معروف، وموقف غيرها من نساء المؤمنين في صفين ونصرهن علياً معروف كذلك، وثباتهن على الولاء له بعد انقضاء عهده، وما جرى بين بعضهن وبين معاوية لمما يثير الدهشة ويضاعف الإعجاب.

---

(١) قال النووي: «اختلف العلماء متى جرت الغزوة التي توفيت فيها أم حرام في البحر، وهل هي في ولاية معاوية على الشام زمن عثمان أو في خلافة معاوية نفسه؟ وقال ابن الأثير من ترجمتها في أسد الغابة: وكان أمير ذلك الجيش معاوية زمن عثمان وذلك سنة سبع وعشرين. وذكر مثل ذلك ابن خلدون في تاريخه.

هذا: وموقف المرأة المسلمة في تأييد هذا الدين وإعلاء رايته، يذكّر بموقف المرأة المعادية ومساماتها الرجل في الكيد له، والتربص به، والافتراء عليه ــ كما أشرنا إلى بعضه سابقاً ــ فمن نسوة قاومت الدعوة بأيديهن وأفعالهن، إلى أخريات قاومت بألسنتهن وأشعارهن، وكما تنبأ رجال وحاولوا التشبه بالرسول، واستهووا أقوامهم بحيل وأكاذيب، كذلك صنعت المرأة، فتنبأت وقادت قومها فمسيلمة الكذاب في اليمامة وطليحة الأسدى في بني أسد، كذلك سجاح التميمية لم يأنف قومها بنو تميم أن ينقادوا لها، ويحاربوا تحت لوائها.

حتى قضى الإسلام على جميع مناوئيه، وانتظم عِقده البلاد العربية، واندفع نوره يسرى بين الأحياء، ويغمر سائر الأرجاء، ويدحر فيالق الظلماء، والمرأة المسلمة في ذلك كله منبع الخيرات، ومصدر البركات، ومصنع البطولات، لاتني تصنع الصناديد، وتبعث بالأشبال الصيد، إلى كل جبار عنيد.

مكانة المرأة في الإسلام

رأينا في الفصل السابق كيف أن المرأة استقبلت الدعوة الإسلامية في أول عهدها فجراً صادقاً لم يَشع بعدُ سناه، وبرزت في أدوار الإسلام كلها مؤيدة وناصرة، أو جاحدة مكابرة، لا يخفى أثرها على الحالتين، ولا يجحد خطرها في الجانبين، حتى تأذن الله لنور الحق بالغَلب، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وظَهر على الدين كله، ولو كره الكافرون.

ونريد الآن أن نتبين مركز المرأة في هذا الإسلام، ومكانتها منه، وهي التي لم تبخل عليه بجهودها وجهادها، واحتملت من أجله التضحيات الجسام في نفسها ومالها، وبنيها وآلها، طيبة النفس، راضية الفؤاد، مستزيدة من الأعباء، مقبلة غير مدبرة، تُرى هل قامت بذلك كله للإسلام عن طيب خاطر، وهو ينتقصها ويمتهنها، ويحرمها بعض حقوقها؟ وهل هو يكرم الرجل ويحابيه إذ يجعل له درجة، ويبيح له من الزوجات مثنى وثلاث ورباع، ويجعل العصمة بيده، ويضاعف حظه من الميراث، ويعتبر شهادة الرجل أحياناً بشهادة امرأتين، ويجعل البيت مقرها؟.

أيصنع الإسلام ذلك وغيره كرامة للرجل وإيثاراً لأنه آثر لديه، وأكرم عليه؟.

أم نقول في ذلك: إنه أنصف المرأة وأكرمها، ورفع شأنها، وحماها من ضيم كثير كان واقعاً عليها ولاحقاً بها، فأعلى منزلتها درجات، ورفع عنها

إذايات، وأزال شكايات، ثم نذهب نعدد ما في المفارقات من حكم عالية، ومعان جليلة، ونقارن بين حالها الجديد وبين ما كانت عليه من قبل، لنعرف التفاوت الكبير، وأثر الإصلاح الإسلامي في الأسرة والمجتمع؟.

وفي الحق ليس يعنينا كثيراً أن نقارن بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية وما صارت إليه في الإسلام، وإن كانت الأشياء بضدها تتمايز، فالأمر كما قال القائل:

ألم تـر أن السيف يُـزرَى بقـدره إذا قيل هذا السيف خير من العصا

ذلك أن أية دعوة إصلاحية موفقة، ستأتي إلى النقائص الموجودة في المجتمع وأدوائه المتفشية فيه، فتعالجها بما ينبغي أن تعالج به، لتقضي عليها، وتتخذ غيرها خيراً منها، ولكن الإسلام حينما جاء إلى العرب يضم شتاتهم، ويجمع شملهم، ويوحد قلوبهم وأهدافهم، ويعالج نقائصهم وأمراضهم، لم يكن شأنه شأن أية دعوة إصلاحية أخرى، يمنع مظالم قائمة، أو يعالج داء محلياً، أو يقرر قاعدة مؤقتة، أو ينشىء أمة على غرار ما نشأ من أمم سابقة أو لاحقة... إنما كان أعمق من ذلك وأقوى، وكان أعم وأشمل.

الإسلام هو الحق الأول والأخير:

جاء الإسلام يقرر أنه دين الله الذي أنزله إلى الأنبياء جميعاً، وأنه هداه الذي أوحى به إلى عباده على لسان رسله، شرع فيه ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وأخوانهم المكرمين، فكان مصدقاً لما سبقه من كتاب ومهيمنا عليه، كاشفاً ما لحق به من زيف المبطلين، وباطل الخاطئين، راداً للناس إلى الفطرة الأولى، فطرة الحق والخير والعدالة.

وفي القرآن الكريم «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومُهَيمنا عليه[1]» ويقول سبحانه بعد ذكر طائفة من النبيين «أولئك الذين هَدَى الله، فبهداهم اقتدِهْ»[2].

---

(١) المائدة، آية: ٤٨.

(٢) سورة الأنعام آية: ٩٠.

ويقول الرسول الكريم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ويقول أيضاً مَثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها: قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة،ختم بي الأنبياء» عليهم الصلاة والسلام[١].

فالإسلام يقرر الحق الأول، ويرد الناس إليه، وينقيه من شوائب الأوهام، ويطهره مما لحق به من الضلال والبهتان، ويكمل ذلك البناء الشامخ من دين الله وهداه، ليكون مقر السعادة للإنسانية، وحصن النجاة للبشرية، وتمام النعمة لقاطنيه ومجاوريه، وكان غرة ذلك كله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[٢].

جاءت هداية الإسلام إلى الناس كافة، يخاطب الرجال منهم والنساء على السواء، يصلهم جميعاً بأصل واحد نشأوا منه، وتفرعوا عنه، ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء﴾[٣].

لا فضل لأحد على آخر إلا بعمله الصالح وتقواه ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٤].

يلفت أنظار الجميع إلى عبادة الواحد الأحد، وينعى عليهم جهلهم وشركهم وضلالهم، فيؤمن به رجال ونساء، ويكفر به رجال ونساء، ولكلٌ نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، لا تزر وازرة وزر أخرى، بل توفي كلُ نفس ما عملت «من يعمل سوءاً يُجْز به، ولا يجدْ له من دون الله ولياً ولا نصيراً، ومن يعملْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.
(٢) سورة المائدة آية ٣.
(٣) سورة النساء آية: ١
(٤) سورة الحجرات آية: ١٣.

الجنة ولا يُظلمون نقيراً»(1). ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض..﴾(2).

وفي الحديث: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسئولة عن رعيتها... ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(3).

وذروة ذلك كله هذا النسق البديع في كتاب الله سبحانه، حيث ساوت المرأة الرجل في أجل صفاته، وأكمل حالاته، فتم لها ما تم له من كرامة وفضل وأجر عظيم. قال الله تعالى: «إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما﴾(4).

إلى هنا وقد اكتملت شخصية المرأة في الإسلام كما اكتملت شخصية الرجل سواء بسواء، فإذا تفاوتت التبعات، أو تنوعت الحقوق والواجبات فلتفاوت الفريقين. ولتنوع الأعباء التي هيىء لها كل من الجنسين: «وكل ميسر لما خلق له».

وإذا قرر الإسلام في عمقه وقوته. وشموله وأصالته، علاقة المرأة بالرجل وعلاقة كل منهما بالمجتمع والحياة، فهو قرار الفطرة البشرية ممن فطرها، وهو منطق الحياة من خالق الحياة، لا يزيغ ولا يحيد، ما دام الرجل رجلاً، والمرأة مرأة، سواء في ذلك أن تكون الحياة بدائية، يسعى الرجل فيها على قوته وقوت

---

(1) سورة النساء ١٢٣ ــ ١٢٤.
(2) سورة آل عمران ١٩٥.
(3) رواه البخاري وغيره.
(4) سورة الأحزاب آية: ٣٥.

عياله، والمرأة في بيتها تعمل بمغزلها في ثيابها وثياب زوجها وبنيها، وأن تسير الحياة أشواطاً طوالا، وتقطع من عمرها أجيالاً وأجيالاً، وتطير المرأة في السماء، وتغوص في لجة الماء، وتعلو قمم الجبال، تلاحق الرجل وتسابقه، فهي كما هي، حواء آدم ﴿خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها﴾[1] والإسلام هو الإسلام، عام وخالد، لا يتغير ولا ينبغي له إلا أن تتغير الفطر، وتحول الطبائع، وتتبدل نواميس الوجود.

لقد وضع الإسلام الرجل موضعه، وأنزل المرأة منزلتها، ورسم لهما طريقاً واضحاً لا عوج فيه ولا التواء، وفتح لهما معاً أبواب المثل العليا عملياً، وأخذ بأيديهما سعياً حثيثاً إليها، ليصل بهما إلى ذروة ما قدر لهما من سمو ورفعة ونجاح.

وسنرى بعون الله تفصيل ذلك الإجمال فيما يلي من فصول.

إقامة البيت المسلم:

تنشأ الفتاة الصغيرة في رحاب أبويها كما ينشأ الفتى أخوها، ولها من العناية والرعاية مثل الذي له، حتى إذا تهيأت لدورها الطبيعي في الحياة، وكانت قادرة على إنشاء بيت جديد مع زوج لها، استشارها أبوها في شريك حياتها، ولم تنتقل حتى تأذن في أمرها، فإن كانت حديثة السن لا خبرة لها زوّجها أبوها بأذنها، وإن كانت رشيدة عاقلة، فهي أحق بنفسها من وليها، وليس له اعتراض عليها، إلا أن يكون رأيا يبديه، أو نصيحة يبذلها ما لم تسرف في حقها، وتندفع إلى التزوج بمن يشينها، ويسيء إلى مركزها، أو مركز أسرتها، كما لو كان الرجل غير مرضي الدين والأمانة، فلهم حينئذ أن يباشروا حقهم في حمايتها. بل كان واجبهم أن يصونوها من نزواتها، ويحفظوها من عواقب شططها.

انظر إلى هدى الدين في إقامة بيت الزوجية، وكيف شرع الرسول ﷺ لمن شاء الزواج من امرأة أن ينظر إليها، ويرى منها في حدود الصيانة والكرامة

---

(١) سورة النساء آية: ١.

ما يرغبه فيها أو يباعده عنها، حتى يكون من أمره على بينة، فلما جاءته المرأة الواهبة تعرض نفسها عليه، صَعد فيها النظرَ وصوَّبه ثم أطرق. فتقدم لخطبتها أحد الحاضرين في حديث طويل رواه البخاري وغيره. وتولى النبي أمرها. وفي الحديث: «إذا ألقى الله عز وجل في قلب امرىء خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها».

بل يطلب ذلك صريحاً مبيناً الحكمة فيه، حيث يقول للمغيرة بن شعبة وقد خطب امرأة: «انظر إليها فإنه أحرى أن يُؤدَم بينكما»[٢].

وإلى جانب ذلك يجعل للمرأة اختيار زوجها، ويرد نكاحها إن افتات أحد على حقها فيقول: «لا تُنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن، قالوا يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال أن تسكت»[٣]. ويقول: «الثيبُ أحق بنفسها من وليها، والبكرُ تستأذن في نفسها»[٤].

ولقد علمت المرأة هذا جيداً، على عهد الرسول ﷺ، وحافظت على حقها كما تحافظ على أداء واجبها، فلقد روى ابن ماجة وأحمد والنسائي أن فتاة جاءت إلى رسول الله ﷺ تقول: «إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته. قال: فجعل الأمر إليها، فقالت قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء ـ تعنى أن ليس لهم اكراههن على ما لم يردن»[٥].

وبهذا جمع الإسلام لخير الأسرة بين رضا الآباء والأولياء بغير طغيان أو استبداد، ورضا الزوجة وعصمتها من الشطط، وأرشد الرجل إلى اختيار زوجته لأنها موضع سره، وأمينة غيبه، وحافظة بيته فقال ﷺ «تخيروا لنطفكم»

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة

(٢) رواه الخمسة إلا أبا داود.

(٣) رواه البخاري وغيره.

(٤) رواه الجماعة إلا البخاري قاله صاحب نيل الأوطار.

(٥) نيل الأوطار جـ٦ ص ١٢٧.

وقال شارحاً الدوافع المرغبة في المرأة عادة، مرشداً إلى أفضلها وأولاها بالتقديم: تُنكح المرأة لأربع؛ لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك.

وزيادة في رعاية الأسرة واحتياطاً لأمرها، جعل لمن غرّه صاحبه من الزوجين على السواء، فأخفى من العيوب والأمراض الخطيرة ما لا يستقيم الزواج معه، أو تحسن العشرة به، حق الخيار في النكاح، فإن شاء فسخ، وللزوجة في الحالتين الصداق، ما لم تكن هي الغارة فيترك لها أقل الصداق الشرعي.

وعلى هذا الأساس الواضح البين من التثبت والتفاهم والرضا، ومن الأمانة والصراحة والإخلاص، يقوم البيت المسلم محققاً آية الله، راجياً معونته وتوفيقه وهداه، شاهداً بقوله سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

بعد المسلمين عن منهج الدين:

وبعيد عن منهج الإسلام في إقامة الأسرة، وإرساء قواعدها، ما عليه كثرة المسلمين من إفراط أو تفريط. فمن تضييق شديد يحرم الخطيبين حقهما الشرعي في رؤية كل لصاحبه، والتعرف إليه، مبالغة في الاحتشام والأدب على ما يظنون، إلى تحرر وانطلاق يتيح للخطيبين العصريين اختلاطاً كاملاً في المنزل، وفي ارتياد المتنزهات، ودور الخيالة والشواطىء وسواها، مما يفتح على الشباب أبواب العواطف المشبوبة، والحس الملتهب، والنزوات الطائشة، وكثيراً ما تنتهي أمثال هذه العلاقات بالفواجع، والمآسي الأليمة، وقلما تكون الضحية هنا غير الفتاة المسكينة.

---

(١) اسورة الروم آية: ٢١.

فكان موقف الدين كالعهد به وسطاً عادلاً، بعيداً عن عنت المتعنتين، وإسراف المسرفين، إذ جعل لكل منها في حدود الصيانة والاحتشام أن يعلم من صاحبه ما يرغبه فيه أو ينفره منه، حتى إذا آثر أمراً كان منه على بينة.

ولعل من الإسراف ما ذكره صاحب كتاب «المرأة بين البيت والمجتمع»[1] عندما روى عن رسول الله ﷺ «إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض مايدعوه لنكاحها فليفعل» ثم حمله على ما سماه «محدوداً بقيود الذوق العام وتقاليد أهل البيئة» فللخاطب على حد تعبيره في عصرنا الحالي أن يراها في الملابس التي تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حرج، مكشوفة الرأس والذراعين.

والإسراف هنا إسراف مضاعف لأنه في الدعوى وفي الدليل معاً ــ على عُرف أهل المنطق ــ فقد رأى أن ظهورها للخاطب بما تظهر به لأبيها وأخيها، وكشف الرأس والذراعين. أمر من الذوق العام وتقاليد البيئة. ونحن نسائله وهو الذي يتكلم في هذا باسم الدين: أيُّ عموم في هذا الذوق، وأيُّ بيئة لتلك التقاليد؟ أهي بيئة الريفيين التي تضم بضعة عشر مليوناً من المصريين[2]، وليس ذلك من ذوقهم ولا هو من تقاليدهم. أم بيئة أهل المدن؛ وما يزال فيهم المحتشمون والمتصونون، وليسوا قلة يُغض عنها الطرف أو تُطرح من الحساب؟.

لم يبق لهذا الذوق من عموم فيما نرى إلا في بيئة الغربيين ومن على شاكلتهم من المتغربين.

أما إسراف الاستدلال فإن الدين الذي قد يسّر على النساء في الآباء والأبناء، رفعاً للحرج في أمر مأمون العواقب لا ضير فيه، لم يُلحق الخاطب بهؤلاء وليس الخاطب ممن يحمل بين جنبيه للمرأة قلباً كقلب الآباء والأبناء. وفي آية النور ﴿وليضْرِبْن بخمرهِن على جيوبهن، ولا يُبْدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن، أو إخوانهن...﴾ (آية ٣١).

---

(١) للأستاذ البهي الخولي ص ٢٤.
(٢) تضاعف عدد المصريين الآن بحمد الله فأنافوا على الأربعين مليوناً ــ جلهم ريفيون.

وأحق من تحميل الحديث اعتبار الخاطب معتبر الآباء والأبناء، أن نحمله كما حمله صاحبه، وأبانه بالسنة العملية التي رواها البخاري وغيره في حديث الواهبة، حيث جاءت امرأة تعرض نفسها على النبي ﷺ فصعّد النظر فيها وصوّبه ثم أطرق. بل هو الحق لا سواه، فللرجل بهذا أن ينظر لوجه المرأة وشكلها العام فيرى مايدعوه لنكاحها، أو يباعده منها على صيانة في الحالتين واحتشام، من غير أن نفتح للشر أبواباً عكف عليها الشيطان، يَلجها كل من حاد عن الدين، وكان في أمره من المسرفين.

عُني الإسلام بإقامة الأسرة وصيانتها، عناية فائقة، ورغب الرجل أن يبتغي في زوجته قرة عين، فالمرأة من الرجل خلقت منه ليسكن إليها، ويجد راحة الأنس والمودة والرحمة بجوارها، وهو منها غذته بلبانها، وسقته من دمائها. ونشأته في أحضانها، وأدفأته بحنانها. وزوجة الرجل أقرب شيء إلى نفسه، وألصقه بقلبه وحسّه «هُنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن» وهي شريكة حياته، وأم بنيه وبناته، تدير مملكتها المنزلية كي يتفرغ هو لواجبه، ساعياً على رزقه ورزق أسرته، محتملاً في ذلك ما يحتمل، حتى إذا أوى إلى سكنه سكن إليه، ووجد في ظله القلبَ الحاني عليه، ولقي من الهدوء والطمأنينة ما ينسيه آلامه، ومتاعب أيامه، ومشاق عيشه.

عظم الإسلام حق المرأة على رجلها. فأوصاه بحسن عشرتها، وجميل مودتها،وكامل رعايتها، وعدّ خير الرجال خيرهم لنسائهم، وجعل النفقة على الزوجة والعيال أفضل من نفقة في سبيله؛ بل استثار في الرجل كوامن العزة، ودوافع المروءة، وأريحية الشمم فقال: «ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم».

كما عظّم حق الرجل على زوجته، فأكد حرمته، وأوجب طاعته، وقدّمه في ذلك على أقرب المقربين، بل على الناس أجمعين فقال ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» وجعل رضا الزوج من رضا الله «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة».

على هذا النمط العالي من العلاقة الكريمة تمضي صلة الرجل بامرأته، وصلة المرأة بزوجها، ولقد عرف المسلمون الأولون هذه المعاني، وقدروها قدرها، ورعوا الحقوق رعاية كاملة، حتى بلغ الأمر من رجل كابن عباس أن يقول والله إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي، بهذه الآية «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»،وكلمة المعروف نور طُرِّزت به غُرة الحقوق والواجبات، فليست العلاقة بين الزوجين مبادلة تجارية جافية، تقوم على التدقيق والتحقيق والمشاحة، إنما هي المعروف من الجانبين والرفق واليسر والمسامحة.

وللرجال عليهن درجة:

تُرى هل غبن الإسلام المرأة إذ جعل للرجل عليها درجة كان له بها رياسة الحياة الزوجية؟ ألم يكن الأقرب إلى طبيعة الإسلام دين المساواة أن يسوي بين الشريكين فيجعلها في منزلة سواء؟ فيرضي بذلك الغربيين والمتغربين ــ في هذا القرن العشرين ــ ولكن هل المساواة المطلقة من صالح الطرفين؟ وهل الطبيعة ساوت بينهما في القوى والملكات، وفي الأعباء والواجبات، حتى نطالب الإسلام برعاية هذه المساواة؟.

أو أن الضرورة قاضية بوجود الرياسة في المنزل، كضرورة الرياسة في كل أمر ذي بال، فللقرية رئيس، وللمدينة رئيس، ولكل مصلحة من المصالح رئيس، وللوزارة رئيس، وللدولة رئيس. والإسلام دائمًا يطلب هذه الرياسة ويحرص عليها لتحديد المسئولية، ولو في الأمور العارضة، فإذا حضر اثنان أو أكثر لصلاة الفريضة، أمّهم واحدٌ منهم، و«إذا خرج ثلاثة في سفر أمروا أحدهم»[1].

ويقضي العقل والحكمةُ أن تكون الرياسة لأقدرهم عليها، وأصلحهم لها وتفرض أمانة الإسلام ذلك وتوجبه، وفيه يقول الرسول ﷺ: «من ولى من أمر

---

(١) رواه أبو داود.

المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله»[1].

ولن تكون المرأة موضع هذه الرياسة ما لم يكن ذلك نقصاً في الرئيس الطبيعي، لأنها بضعفها الجسماني، وملكاتها، وغرائزها، ووظيفتها في البيت تكلف ما ليس في وسعها أن تحسن القيام به إذا أسندت إليها تلك الرياسة.

ثم هذا هو الرجل، مالك البيت، والقائم بنفقته ورعايته وحمايته، كيف لا يكون صاحب الكلمة العليا فيه؟.

فدرجة الرجال في الإسلام هي درجة الواقع المحسوس من عالم الأحياء، وهي درجة تضاعف الواجبات وتزيد في الأعباء، وهي درجة تقفهم موقف المسئولين عن أنفسهم وعمن حولهم، وهي درجة تصلح بها الحياة ويستقيم عليها الأمر.

إن خضوع المرأة لشريكها الرجل أمر طبيعي لا غبار عليه، إذ لا بد للأسرة وهي المجتمع الصغير من رئيس مسئول يكون الفيصل فيما يعرض من مشاكل وأزمات. وإن هذه المسألة من الأصالة والوضوح بحيث ترى المرأة السوية لا تسرها هذه الرياسة إن سلمت إليها، ولا يرضيها من الرجل أن تكون مالكة أمره، والمهيمنة عليه، ولدينا الأمثلة من الحياة كما عند الكثيرين ولا ريب، وهذه كاتبة انجليزية تقول[2]: لا تتعلق المرأة بالرجل الذي تديره كيف تشاء، وما ذلك إلا لأن المرأة تعلم أنه لا يمكن الأستناد إلا إلى ما كان صلباً متيناً، فلا غرابة إذا احتقرت من كان ألعوبة في يديها.

ويقول الأستاذ هنري ماريون[3] في مثل هذا المعنى: فقد تبين لنا الآن، لماذا خضعت المرأة للرجل، وأيضاً لماذا يتحتم عليها ذلك الخضوع إلى حد،

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) كانت كتابتها بامضاء جورج اليوت وهو اسم مستعار ـ خلق المرأة لهنري ماريون.

(٣) المصدر نفسه.

وإلا انقلب النظام البشري رأساً على عقب، بل لو أراد البشر خلاف ذلك لكان لهم في طبيعة المرأة: في تركيبها وخلقها ومزاجها ما يحول دون تنفيذ مرادهم.

ثم يقول: إن خضوع المرأة أمر مكروه متى رافقته خشونة الرجل وفظاظته، ولكنه طبيعي متى عدله تقسيم العمل، ولطفته روح العدل والإنصاف، بل ليس ذلك الخضوع إهانة أو مذلة، إذا نشأ عن تفاوت ضروري للتآلف والتوافق، وكان أساساً لوحدة العائلة، وهي الجرثومة البدائية في تكوين الجمعية البشرية، كما تتآلف الأعضاء، وتتوافق في خدمة الجسم البشري. اهـ.

فهذا الخضوع إذا كان ضرورياً كما رأيت فهو في الإسلام خضوع الرأي والمشورة والسمع والطاعة، لا خضوع الذلة والعبودية، أو العنف والاستبداد، فالإسلام يوجب على الرجل الرفق والكياسة والعطف، وينهاه أن يستبد أو يجور، بل لقد طالبه أن يحتمل من المرأة أخطاءها؛ وأن يغفر لها هفواتها، وأن يحسن إليها، لافتاً نظره إلى طبيعة المرأة، وما جبلت عليه حتى لا يلح في حسابها طمعاً في إقامتها «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن اعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا» وفي رواية «المرأة كالضلع، إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج» رواهما البخاري ومسلم.

فقد جعل الرسول ﷺ من طبيعة المرأة عذراً لها في الصفح عن هناتها والتجاوز عن أخطائها، وليت شعري هل يكون الخير للمرأة والرجل إلا بهذا العوج؟[1] وهل يستقيم الحال بعقل مثل عقل الرجل، وعاطفة كعاطفة الرجل وجسم كجسم الرجل؟ لعل فيما قدمناه آنفاً ما يغني عن إطالة القول، وإعادة الحديث.

على هذا المنهج الإسلامي في إقامة الأسرة، وبهذا الأدب الرباني في صيانتها، يقوم صرح البناء العائلي متين الدعائم، قوي الأركان، شامخ الذرا،

---

(١) من المؤسف أن بعض الباحثين الدينيين يبادرون إلى التشكك والتشكيك في الأحاديث الصحاح بدون التريث الواجب في تحري معناه وسياقها الذي وردت فيه، مجاملة أو تورطاً.

وارف الظلال، يسكن الرجل إليه، وتسعد المرأة فيه، ويقدمان للحياة متعاونين متكافلين، مادة الحياة من قرة عين، وبهجة نفس، وعماد ظهر، وامتداد أمل في بنين وبنات صالحين وصالحات. وبسلامة الأسرة وصلاحها تسلم الأمة والجماعة.

فهلا آن للداعين والداعيات إلى مؤتمر الأسرة وحل مشاكلها أن يعلموا أن صلاحها في الشرق لا في الغرب، وأنه في الدين لا في المدنية، وأنه في شرع الله لا في قوانين الناس.

قيل لرجل من تحب أن تزوج ابنتك؟ قال: ذو الدين إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها، وفي الحديث: ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله ـ رواه ابن ماجة.

والقرآن الكريم يقول للرجال: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[1]. ويقول في شأن النساء ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾[2].

الرجال قوامون على النساء:

وتمضي المرأة ناعمة البال، هادئة الضمير، تهنأ بذلك الجو العبق الذي تنفست عنه رياض الإسلام، من كرامة كاملة وحرية فاضلة، بل قد تجاوز بعض الشيء ما ينبغي أن تقف دونه.

هذه خير امرأة في خير بيئة، تعمد إلى صفحة من الطعام أهديت لرسول الله ﷺ، فترميها بفهر يحطمها غَيرة ممن أهدتها، تقول عائشة: «ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وهو في بيتي، فأخذني

---

(١) سورة النساء آية ١٩.
(٢) سورة النساء آية ٣٤.

أفكل»[1]، فارتعدت من شدة الغيرة فكسرتُ الإناء، ثم ندمتُ فقلتُ يا رسول الله: ما كفارة ما صنعت قال: إناء بإناء، وطعام بطعام.

ويقول عمر: صخبت[2] على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعْنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم كله إلى الليل، فأفزعني ذلك وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، ثم يذكر بقية الحديث، ودخوله على حفصة بنته، وسؤاله إياها عن مراجعتها للرسول، ويشتد عليها في ذلك.

وهذه امرأة تغضب زوجها، حتى يرفع يده ويلطمها، فتذهب هي وآلها إلى رسول الله ﷺ تشكو، ويحكم الرسول بالقصاص، فينزل الوحي من السماء ويتلو الرسول ما أنزل الله ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان علياً كبيراً﴾.

وترجع المرأة بغير قصاص، ويقول الرسول: «أردت أمراً، وأراد الله غيره» ويشاء الله أن تكون مثل هذه الواقعة سبباً مباشراً في أن يبلغ الكتاب أجله، ويخطو التشريع خطوة، فيحيط بالأمر من أقطاره، فما نزل الدين لملائكة يمشون في الأرض مطمئنين، إنما جاء لهذا الإنسان الذي خُلق هلوعاً، إذا مسَّه الشر جزوعا، وإذا مسه الخيُر مَنوعا، ذلك الإنسان الذي هو في خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ويقول عمر مرة ثانية: ذئرت النساء على أزواجهن فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل النبي ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله مخاطباً أصحابه «لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» ويقول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

---

(١) بفتح فسكون: رعدة شديدة كرعدة الحمى.

(٢) الصخب: شدة الصوت.

وفي الآية الكريمة توجيه لقوامة الرجل على زوجته، بينه سبحانه بما أجمل من سببين رئيسيين: بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم. فليس التفضيلِ بين متغايرين، إعلاء لجنس على جنس، أو صنف على صنف إنما هو تفضيلُ البعض من شيء واحد، كما تفضل الرأسُ الجسد، وشرفُ البعض شرف الكل. والرجل وقد كلف السعي على زوجته وعياله، والرعاية لهم، والإنفاق عليهم، فكان طبيعياً أن يشرف على مصرفه كما جهد في مورده.

ثم النساء تجاه ذلك فطر وطبائع، منهن صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، قرّة عين لزوجها، وبهجة نفس لقرينها، تبادر في رضاه، وتسعى في هواه، وتصون عرضه وتحفظ غيبه. ومنهن دون ذلك، لا غنى لهن عن تقويم وتهذيب، محتاجات لواحد مما ذكر الله في الآية الكريمة، على تفاوت المقامات، ولكل حالة لبوسها.

هذه الحقيقة الواقعة المشاهدة ينكرها أناس يدعون لأنفسهم رفاهة الحس، ورقّة النفس، ويغمضون أعينهم عن الواقع ودنيا الناس.

يقول واحد من أولئك شارحاً مدى التطرف في المعاملة الزوجية: لا أتكلم عن الضرب، لأن مثل هذا الزوج كان يجب أن يتزوج حمارة[1].

ونقول لأولئكم ما رويناه سابقاً من قول معلم البشرية «ليس أولئك بخياركم، وخيركم خيركم لأهله».

ولكنا نقدم إليهم مع ذلك ما يعلمه كل من له إلمام بخلائق النساء، من أن الشدة في بعض المواقف خير حل «فليقس أحياناً على من يرحم» وأنها بالنسبة لبعض النساء من أزواجهن، ترضي غريزة الخضوع فيهن، بل قد تدفع البعض منهن إلى التعلق بالزوج الشديد إعجاباً به ــ ويشرح لنا عالم نفسي هذه الظاهرة المعروفة عند علماء النفس، ويذكر اصطلاحها الخاص بها فيقول:[2] وتكون

---

(١) سلامة موسى في تقديم كتاب مدرسة الزواج لفؤاد باسيلي.

(٢) من كتاب علم النفس والأخلاق تأليف ج١ هادفيلد ترجمة أبو العزم وراجعه القوصي.

غريزةُ الخضوع انحرافاً في (الماسوشية) «حب التعذيب» وهي لذة أن يكون المرء متسلطاً عليه، إلى درجة احتمال الألم أحياناً، وهي شائعةٌ جداً خصوصاً بين النساء وإن لم يعرفنها، ومن أجلها اشتُهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل، وضاربٌ زوجته (ساديّ) محبٌ للتعذيب، ولكن الزوجة المضروبة تكون عادة (ماسوشية) تزيدها معاملتُه الوحشية إعجاباً به وحباً له» ويستطرد فيقول: ولا شيء يحزن بعضَ النساء مثل الزوج الذي يكون رقيق الحاشية دائمًا، لا يثور أبداً على الرغم من تحديهن، ولا يعرف شقاء هذه العيشة، ولا التوقَ إلى الزوج الذي يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة، إلا النسوة اللاتي جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز» اهـ.

وتنظر في الحادثة التي كانت سبب الآية الكريمة، والرجل وزوجته يرجعان معاً إلى بيتهما، يعيشان حياة راضية، ويحفظان بيتاً قائمًا، وتخيل لو أن هذا الرجل الذي حمله الغضب فلطم زوجته، وجاءت هي وأهلها يشتكون، ونفذ القصاص كما قضى رسول الله قبل أن يأتي الأمر من السماء، وقامت هي على ملأ الناس تضربه، كيف يكون الحال! أتراه يقبل العيش معها بعد ذلك؟ ولو قبله فأي عيش هو؟.

وليس شأنه في ذلك شأن المرأة، فحالتها النفسية، وشعورها بأنها في كنفه وحمايته، يجعل ما نالها منه في حال غضبه هنة صغيرة تحتمل.

لقد كان من لطف الله بالرجل والمرأة، أن وضع التراحم والتعاطف والود في قلوبهما، وجعلهما جزئين من كل، وجعل المرأة بمثابة القلب، وجعل الرجل بمنزلة العقل، فكان ذلك خيراً كله، بل لم يكن الخير إلا به، وهل لأحد في الوجود حياةٌ بغير قلب ينبض، أو هدى من دون عقل يقود؟.

تعدّد الزوجات

يكثر الجدل حول تعدد الزوجات، وبخاصة في هذه الأيام بمناسبة إعداد الدستور الجديد، وتطالب جل الجمعيات النسائية بمنع التعدد، وحظر الطلاق إلّا بإذن القاضي، تأميناً في نظرهن للمرأة، وصيانة للأسرة والأبناء.

والموضوع بحق خطير، يجب فيه الحيطة والحذر، فهو مسألة الأسرة والمجتمع.

وترى الداعين والداعيات إلى تقييد الزواج والطلاق يستندون إلى الإسلام كما يستند إليه المعارضون فيه، الراغبون في ترك الأمر على أصله من الإباحة، فأي الفريقين أصح نظراً، وأقوم قيلاً؟ وهل من طبيعة الإسلام هذا الخلاف؟ أو ذاك من تقصيرنا نحن في استيعاب أحكامه، والتهدي إلى غاياته وأهدافه، والتمسك بشعائره وآدابه؟ ولو «كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

وسنرجع بالقضية إلى أول عهدها في الإسلام، لنستبين وجه الرأي على هداه.

يقول الكتاب الكريم في معرض البر باليتامى ورعايتهم، والنهي عن ظلمهم وأكل أموالهم: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حُوباً كبيراً، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع، فان خفتم ألّا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾[1].

(1) سورة النساء: آية ٢، ٣.

ويروي البخاري ومسلم وغيرهما أن عروة بن الزبير سأل عائشة عن هذه الآية فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، وتشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلاّ أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن.

وهذه هي الآية الصريحة التي تبيح تعدد الزوجات على شريطة العدالة المحققة، فإن خيف الجور فزوجة واحدة.

وتذكر الآية الأخرى مدى العدالة الواجبة، وما على الرجل منها حيث يقول سبحانه: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حَرَصتم، فلا تميلوا كلَّ الميل فَتَذَرُوها كالمعلَّقة﴾ ويشرح النبي ﷺ هذه الآية عملياً، فيسوي بين نسائه في القسم والرعاية، ثم يقول وقد عرف من نفسه ـ وعرفه عنه ـ حبه لعائشة أكثر من سواها: «اللهم هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك». أي من ميل القلب.

ويقول المرحوم قاسم أمين «لو أن ناظراً في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات، لما كان حكمه بعيداً عن معناهما، لولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة في الجملة»[١] نعم إن السنة والعمل جاءا بالإباحة، والله تعالى يقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ ويقول ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ والرسول يقول: «أوتيت القرآن ومثله معه» أي السنة، ولم يعد بعد السنة والعمل خفاء في المراد من الآيتين. ولننظر إلى سنة الرسول ﷺ وهديه، وعمل صحابته.

أما الرسول فكانت له زوجة واحدة مدى الشباب والكهولة، فقد تزوج بعد أن نيف عن الخمسين كثيرات مات عن تسع منهن. وتقرأ في كتاب الله ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك، وبنات عمك وبنات عماتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك

---

(١) من كتاب تحرير المرأة فصل تعدد الزوجات.

اللاتي هاجرن معك، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي، إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين)[1].

هذا في جانب الرسول، أما المسلمون فقد أبيح لهم بالنص السابق أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء إلى أربع، وكانت الجاهلية تبيح أكثر من ذلك، فقد أسلم نوفل بن معاوية وعنده خمس نسوة، وأسلم عميرة الأسدي وعنده ثمان،وأسلم غيلان الثقفي وعنده عشر، فأمر النبي كلاً أن يمسك أربعاً ويفارق غيرهن[2].

وفقه المسألة يتطلب الحديث في مواقف: موقف الرسول في الدولة الناشئة وموقف الصحابة كذلك، والموضوع كتشريع خالد.

موقف الصحابة:

ونبدأ الكلام في موقف الصحابة، لقصر الحديث فيه كما يقول المصنفون. فنحن الآن أمام دعوة جديدة يغلي بها صدر الحجاز، وتهتز لها أرجاء البلاد العربية، ويسمع صداها خارج الجزيرة، وترى قوماً يفارقون ديارهم وأموالهم وأهليهم بمكة، فراراً بدينهم ليحتموا بالحبشة، أو يقيموا بالمدينة داراً جديدة لهم، والمرأة في ذلك تعمل بوحي ضميرها كما يعمل الرجل، فمنهن المؤمنات المهاجرات مع الأزواج أو بدونهم، وتنظر في المسلمين، فتجد إخوة في الله متحابين متعاونين؛ وترى بناة أمة ودعاة دين، قد علوا عن الماديات، وتنزهوا عن الصغار والأنانية، ووصل حب الأخ لأخيه ـ فوق ما أحله بيته، وأكرم وفادته ـ أن يعرض عليه مشاطرة ماله، وأن ينظر إحدى زوجتيه ليسرحها، فإذا اكتملت عدتها تزوجها، ويشكر له أخوه فضله وكرمه، ويأبى أن يرزأه[3] ماله

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٥٠.

(٢) ذكر الحافظ بن كثير حديث غيلان في تفسيره. وساق رواية الإمام أحمد. قال وهكذا رواه الشافعي والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي وغيرهم. وقال في إسناد أحمد رجاله ثقات على شرط الصحيحين وذكر حديث نوفل وعميرة وساق اختلافاً في بعض الروايات قائلاً إنه لا يضر لما له من الشواهد، وأقول فلا عبرة بإنكار بعض المنكرين.

(٣) ينقصه.

وأهله، ويقول: «دلني على السوق لأتاجر، هذا ما رواه البخاري في شأن عبد الرحمن بن عوف وأخيه سعد بن الربيع، وذلك الحب الذي توثقت عراه بين المهاجرين والأنصار هو الذي أشاد به القرآن الكريم حيث يقول»: ﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

وتمضي الدولة الناشئةُ تمكن لدعوتها الجديدة، وتبسط سلطانها العادل، وترد عدوان الكافرين، وتأكل الحرب الرجال والشباب، وتترك وراءهن الأرامل والأيتام.

فمن للمهاجرات اللائي تركن الأهل والأوطان؟ أيتركْنَ للتسول والفقر والضياع، وربك يخاطب المؤمنين بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن، الله أعلم بإيمانِهِنَّ فإن علمتموهُنَّ مؤمناتٍ فلا تَرْجِعُوهن إلى الكفار، لا هن حلٌّ لهم، ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن﴾[2].

ومن لأولئك الأرامل واليتامى يصونهن ويرعاهن وقد فقدن العائل والنصير؟ لقد كان بناء الدولة الجديدة يفرض على الجميع تعاوناً وتكافلاً، وكان تعدد الزوجات أمراً لا مفر منه، ولا محيد عنه، كمظهر من مظاهر هذا التعاون الوثيق، إلى ما فيه من مدد من النسل يعوض ما تأكله الحرب، ويطحنه الجهاد، فلم يكن عجباً حينئذ أن يعرض الرجل ابنته أو مكفولته على صاحبه، أو تعرض المرأة غيرها، بل قد تعرض نفسها كذلك.

فهذا عمر يعرض حفصة على أبي بكر وعلى عثمان، وتعرض أم سلمة أختها على رسول الله، وتعرض الواهبة نفسها عليه أيضاً.

---

(١) سورة الحشر: آية ٩.

(٢) سورة الممتحنة: آية ١٠.

موقف النبي في رعايته للدولة الناشئة:

أما رسول الله ﷺ، فقد تزوج بعد خديجة بكثيرات هنَّ أمهات المؤمنين، مات عن تسع منهن، وليس المؤمن في حاجة إلى مبررات لجمع هذا العدد الكثير، إلّا رغبة في العلم، واستزادة من المعرفة، أما أعداء الدين فيجدونها فرصة سانحة للنيل من الإسلام ونبي الإسلام، ويقول الأستاذ العقاد في عبقرية محمد من فصل رائع: قال لنا أحد المستشرقين: «إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا له: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء...».

والدارس لهذه الناحية من حياة الرسول الكريم، لا يجد في تعدد الزوجات ما يرى عادة من رغبة النسل، فقد كان أبناؤه ذكوراً وإناثاً من خديجة عدا إبراهيم فمن مارية سريته، ولعل كثيرات منهن لم تكن مستعدة للنسل، ولم يتزوج بكراً سوى عائشة. كما لا يجد في هذا العدد ما يعدّه راحة واستنامة بعد طول جهاد، فلقد كان ﷺ في بيته في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج، وعن عائشة وقد سئلت هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته قالت: نعم، كان رسول الله يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

بل لقد بلغ من حسن عشرته وتغاضيه أن لم تكن هيبة النبوة حاجزاً بينه وبينهن، فكن يطالبنه بما يطالب النساء بمثله من الزينة والسعة، ويكثرن عليه في ذلك إلى حد المشقة، حتى أنزل الله عليه آية التخيير تأديباً لهن، وإعلاءً لهمتهن عن طلب الدنيا، وهن قدوة المسلمات ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيمًا﴾[1] فخيرهن واحدة واحدة، وبدأ بعائشة فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

بل كانت الكثرة عبئاً تحمّله رسول الله ﷺ ولم يكن لغيره به طاقة، وكان

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٨ ــ ٢٩.

من تغايرهن حيناً وتحزبهن ما يؤلمه، حتى نزل القرآن مقرّعاً ثنتين من زوجاته، منذراً جيعهن: ﴿إن تتُوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، عسى ربُّه إن طلقكن أن يُبدله أزواجاً خيراً مِنكُن. . .﴾[1].

وإذا لم يكن من هذا الزواج طلب النسل، ولا رغبة الحس، ولا وفرة الخدمة البيتية، فليس إلاّ القصد الصحيح الذي ينبيء عنه النظر في هذه الزيجات، وترى كل واحدة على حدة، وتستعرضها جميعاً، فإذا مقاصدها جليلة جلية، فإما قبيلة يتألفها بصهره، أو كرامة وتشريف لكبار أصحابه، يزوج بعضهم من بناته ويأخذ من آخرين، أو مجاهدة يرعاها في اغترابها، أو ذات بلاء جميل يكافئها على حسن بلائها، أو قضية دينية يحتمل تجربتها من دون المؤمنين.

وكلهن مع ذلك مؤمنات صالحات، ومبلغات واعيات، ومعلمات للأمة من بعده، يبين ما خفي، ويحفظن ما ظهر.

أمهات المؤمنين:

وهاك طرفاً من أمر كل على حدة:

اقترن الرسول الأكرم ﷺ بالسيدة خديجة في سن الخامسة والعشرين، وظل معها إلى ما بعد الخمسين، وأنجب منها أبناءه وبناته سوى إبراهيم، وكان لها البر الوفي في حياتها وبعد وفاتها، حتى تقول عائشة: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، لما كنت أسمعه يذكرها، وقالت له مرة: وهل كانت إلاّ عجوزاً أبدلك الله خيراً منها، فقال لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء.

* **سودة، وعائشة**: ويفرغ بيت النبوة من سيدته الأولى، وتأتي امرأة

---

(١) سورة التحريم: آية ٤ ــ ٥.

مسلمة تشير على النبي بأن يتزوج، قالت عائشة: لما توفيت خديجة قالت خـولة بنت حكيم للنبي ﷺ: أي رسول الله ألا تَزَوّج؟ قال: من؟ قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً، قال: فمن البكر؟ قالت: بنت أحب الناس إليك، عائشة بنت أبي بكر، قال: فمن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة، آمنت بك واتبعتك، قال فاذهبي فاذكريها.

وكانت سودةُ قرشيةً من بني عبد شمس، وأمها أنصارية من بني النجار، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو، ورجع بها إلى مكة فمات، وتزوجها ﷺ قبل الهجرة.

أما عائشة فقد دخل بها في السنة الثانية للهجرة، ولم يتزوج بكراً غيرها، وروى البخاري غير مرة في صحيحة عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «أريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سَرقة حرير، فيقول هذه امرأتك، فاكشفها فإذا هي أنت. فأقول إن يكن هذا من عند الله يمضه». ولقد كان من عند الله فأمضاه، والخير كل الخير فيما أراد الله. وأي خير أبلغ من مثل ما يقول أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فسألنا عنه عائشة إلاّ وجدنا عندها منه علمًا، ويقول عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا خُطَب ولا شعر من عائشة[1].

* وحفصة بنت عمر: يموت زوجها بعد غزوة بدر، فلما تنقضي عدتها، يعرضها أبوها على أبي بكر فيسكت، ويعرضها على عثمان بعد موت زوجه رقية بنت رسول الله، فيقول ما أريد أن أتزوج اليوم، رجاء أن يزوجه النبي أم كلثوم بنته، فيسوؤه موقفهما، ويذكره للنبي ﷺ فيجيبه بقوله: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة، ويرضي صاحبيه معاً، ويعتذر أبو بكر لعمر في صمته بأنه علم أن النبي ذكرها، ولم يكن ليبنيء بأمر رسول الله من قبله، ويقول: ولو تركها نكحتها.

---

(١) طرح التثريب للعراقي. والإصابة لابن حجر.

فكان إصهاره إلى عمر كإصهاره إلى أبي بكر شرفاً كبيراً لهما، ومعرفة بعظيم بلائهما في الدين، كما شرف علياً وعثمان بالمصاهرة.

* أم حبيبة: بنت أبي سفيان تهاجر إلى الحبشة مصارمة أهلها، فيتنصر زوجها ويفارقها. ولم تكن لترجع إلى ذويها فتفتن في دينها، فيصون لها الرسول كرامتها، ويحفظها في غيبتها، ويرسل إلى النجاشي حيث يخطبها على النبي ويصدقها عنه أربعمائة دينار، وتصير بين المهاجرين أم المؤمنين، ويعلم أبو سفيان وهو رأس المناوئين للرسول بمكة فيرضيه ذلك ويقول: «هو الفحل لا يقدع أنفه».

* كذلك أم سلمة: تزوجها ابن عمها وكان من السابقين الأولين، وابن عمة رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاعة، هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وخرجت إلى المدينة معه مهاجرة، فابتليت بلاء شديداً سبق ذكره؛ حتى رق لها أهلها، وخلوا سبيلها فلحقت بزوجها بعد عام من هجرته، ومات عنها بالمدينة من جرح أصابه في أحد، وكانت تجله أيما إجلال. خطبها رسول الله ﷺ فاعتذرت بأنها مسنة، وذات غيرة، وأم أيتام، فيقول لها: أما السن فأنا أسن، وأما الغيرة فيذهبها الله، وأما الأيتام فإلى الله ورسوله، وتنال الشرف الأسنى، وتكون إحدى أمهات المؤمنين، وعرفت بالرأي السديد، والفكر الصائب ومشورتها في الحديبية معروفة.

* أما جويرة بنت الحارث: فكان أبوها وقومها يعدون لقتال المسلمين فالتقى الفريقان، وهزم الله المشركين، وأخذوا أسرى، وكانت هي في السبايا من سهم ثابت بن قيس أو ابن عم له، فكاتبته على نفسها، ثم جاءت رسول الله ﷺ تقول له: يا رسول الله أنا بنت الحارث[1] سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما تعلم، فكاتبت على نفسي، وجئتك أستعينك على كتابتي: قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت وما هو؟ قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك، قالت: نعم، يا رسول الله قد فعلت، فقضي عنها، وخرج الخبر إلى الناس أن النبي تزوج

---

(١) وكان إسمها برة فسماها الرسول ﷺ جويرية.

جورية ابنة الحارث. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم، قالت عائشة: فلقد اعتق بتزويجها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

* وصفية: بنت سيد قومها، أعتقها وتزوجها ووصل صهره ببني إسرائيل.

* وميمونة: بنت الحارث الهلالية آخر زوجاته قالت عائشة عنها: أما إنها كانت اتقانا لله، وأوصلنا للرحم.

* أما زينب: ولزواجها شأن. لغط من حوله اللاغطون، وغلط فيه المتسرعون،وهاك آيات[1] الله ليس بعدها مقال:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً، وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس، والله أحق أن تخشاه، فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له، سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفي بالله حسيباً، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين».

فزيد بن حارثة مولي رسول الله ﷺ وهبته خديجة له فخدمه طويلاً، ورأى من عظيم خلق المصطفى قبل مبعثه،ما جعله يفضله على عمه وأبيه وقد جاءاه بالفداء، فلما اختار الرسول أشهد على بنوته، فقرّت عينُ أبيه وعمه. وسمي بعد بزيد بن محمد.

وكان شأن المتبني في الجاهلية شأن الابن في النسب والميراث، حتى إذا

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٦ ــ ٤٠.

جاء الله بالإسلام، ونزل قوله تعالى: ﴿أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ وأراد الإسلام أن يُعفّي على آثار هذه العادة حفظاً للأنساب: وأن يقتلع من نفوسهم اعتبار الدعى كالابن الحقيقي؛ أمر رسوله بتزويج زينب من زيد، فلما خطبها عليه أنفت، وقالت يا رسول الله لست بنا كحته، قال: بلى، فانكحيه، قالت: أنا خير منه حسباً، وأنا أيم قومي، وبنت عمتك... فنزل قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ فلما علمت الآية قالت: «إذاً لا أعصى رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي».

وبقيت معه سنة أو قريباً منها، وكانت تتعالى عليه، وزيد يشكوها، والرسول يقول: أمسك عليك زوجك، وهو يعلم أن الله مزوجه إياها بعد زيد، ويخشى في نفسه قول الجاهلين إن محمداً تزوج حليلة ولده، فعاتبه الله في ذلك،وما كان له أن يخشى في بلاغ الرسالة شيئاً.

ويروي بعض المفسرين هنا عند قوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ قصة مؤداها أن النبي رآها مرة حاسرة عن ذراعيها، فأعجبه حسنها، فقال سبحان مقلب القلوب، فأخبرت زيداً بذلك فطلقها، ويبررون ذلك بإرادة الله للتشريع.

وكأن الأمر الذي قضاه الله ورسوله،ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خيرة في أمرهم. وأنذر العاصين بالضلال المبين، حتى رضخت زينب وأطاعت، وقبلت الزواج من زيد، كل ذلك لأن قلب الرسول لم يمل إليها، فلما أعجبه حسنها أوحى بالطلاق إليها ــ سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

فمتى كانت زينب غريبة أو بعيدة،حتى يكون حسنها مجهولاً لديه؟ولماذا أكرهها النبي على أمر ترفضه وتأباه، وهو الذي ينهي المؤمنين أن يكرهوا بناتهم على تزويج من لا يحبون؟ وكيف ينزل القرآن قاضياً ما قضى به رسول الله؟.

إن ما لهج به بعض القصاص والمفسرين يرده العقل والنقل، وقد أبطله المحققون وكذبوه.

وإذا أخذ على بعض المفسرين عدم التحرز فيما ينقلون، فأولى أن يؤخذ على كبير من علماء المسلمين أن ينقل هذا ويدافع عنه في محاضرات عامة على جمهرة من البريطانيين.

يقول السيد أمير علي الهندي من محاضرات ألقاها في جامعة لندن[1]:

«وقد حدث أنه ﷺ زار زيداً مرة في داره، فلما رأى زينب حاسرة الوجه، صاح كما يصيح اليوم المسلم الذي يرى صورة جميلة أو تمثالاً ويعجب بها: «الحمد لله الذي له السلطان على القلوب» وكانت زينب كثيراً ما تكرر ذلك على مسمع من زوجها، لتريه أن النبي يعجب بجمالها، فكان ذلك يؤدي إلى استياء الزوج طبعاً، وأخيراً قر قراره على أن يفارقها، فذهب إلى محمد... فأمره بإمساكها. بيد أن زيداً لم ينثن عن عزمه، فطلق زينب على الرغم من أمر النبي، فاستاء محمد من سلوك زيد هذا، خصوصاً لأنه هو الذي جمع بين الزوجين اللذين لم تتفق أخلاقهما وطباعهما، فلما طلقت زينب من زيد ذهبت متضرعة إليه أن يتزوج بها، ولم يرضها إلاّ أن صارت إحدى نساء النبي».

ولسنا في حاجة إلى تفنيد هذا الكلام الشعري، بعد ما قلناه وقاله الأئمة السابقون، وما بك إلاّ أن تنظر الآيات الكريمة مجتمعة أو متفرقة، فتجدها واضحة الدلالة في أن الله أمر نبيه بتزويج زينب من زيد، على كره منها إلاّ طاعة لله ورسوله؛ حتى إذا طلقها زيدٌ، زوجه الله إياها «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً» فهدم بذلك عادة جاهلية، وأقام سنة إسلامية، «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله».

وأكرمت زينب بما احتملت من التجربة، وفخرت على أمهات المؤمنين قاطبة، وهي تقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات.

* * *

هذه هي جملة الأسباب لتعدد زوجات النبي ﷺ لا تخرج عما قلناه سابقاً، من صالح الدعوة والدولة، في مصاهرة القبائل والأحساب، ومعرفة الفضل لكبار

---

(١) من كتاب مركز المرأة في الإسلام للسيد أمير علي الهندي. قاضي الهند سابقاً وعضو مجلس الملك، وعضو وزارة الهند، تعريب علي فهمي محمد.

الأصحاب، ورعاية الضعيفات من المؤمنات، ومكافأة المجاهدات المحسنات، إلى بيان أحكام التشريع، فكان ذلك عبئاً من أعباء الدعوة يحمل منه أكبر نصيب، ويرشد أصحابه إلى ما يطيقون.

وتقرأ في مثل هذا المقام أن الضحاك بن قيس يعرض ابنته على الرسول، ويقول: إنها لم تصدع قط فيقول لا حاجة لي بها[1] وتجيء امرأة تهب نفسها للنبي، فيزوجها لرجل بما معه من القرآن، وتجيء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وتهب نفسها للنبي فيزوجها زيداً، فتقول هي وأخوها: انما أردنا رسول الله فزوّجنا عبده، فيسمعون الآية الكريمة «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله...»[2].

ويرسل رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى بني كلب، ويقول: «فإن استجابوا لك فتزوج بنت ملكهم» فلما قدم عليهم دعاهم إلى الإسلام فأجابوا، وتزوج تماضر بنت الأصبغ[3] ملكهم وقدم بها المدينة، فكان ذلك كله من حسن سياسته في ربط الأواصر، وتألف القبائل بنفسه وبأصحابه، وكان بحكم إمامته ومكانته يحمل العبء الأكبر، كشأنه في كل شيء، لا يكلف أصحابه ما يكلف نفسه من عزائم الأمور، ألم تره يصوم فيوالي بين الأيام، ويمنع أصحابه الموالاة؟ فإذا ألحوا راغبين في الوصال اقتداء به قال لهم، لستم مثلي: إني أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني، ويقوم الليل إلاّ قليلاً. ونهى من قال منهم أقوم ولا أرقد وينهض بنفسه إلى الحرب، ويتخلف أحياناً تخفيفاً عليهم ويقول، لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية.

هذا موقف النبي والأصحاب في ظروفه وملابساته.

* * *

* تشريع خالد: وتنظر في الأمر كله كتشريع خالد، عماده القرآن والسنة، فترى الإسلام الذي سلك بأتباعه سبل الطهر والعفاف، وأمر بغض

---

(١) الإصابة لابن حجر.
(٢) ابن كثير في شرح الآية.
(٣) الإصابة.

الأبصار وحفظ الجوارح، وفرض صيانة الأعراض والأنساب، وأوجب على المسلمين أن يكونوا محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخذان، هذا الإسلام نظم علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المرأة بالرجل على نحو لم يعهد من قبل، وراعى الضرورات القائمة لصيانة الدولة، وحماية جميع أفرادها مادياً وروحياً حينما أباح التعدد، ومع ذلك فقد حد القرآن منه، وكأنه يشير إلى أنه الأصل في علاقة الجنسين، ما لم تكن هناك الضرورات القاضية، وقلما تنقطع.

والعبارة القرآنية الكريمة التي أباحت التعدد، جزء آية واردة في وجوب القسط لليتامى. «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت أيمانكم».

والنظر السليم حريٌّ أن يستبين الضرورة القاضية بإباحة التعدد في وضوح ويسر؛ فقد تكون الضرورة شخصية والرجل فيها غير المرأة، لأن استعداده أوفر، وموانعه أقل، فإذا اعتبرنا الناحية الجنسية بأغراضها العليا من عمارة الكون وحفظ النوع، كان الرجل قادراً على تقديم مادة الحياة في كل وقت، ولأكثر من واحدة، ولسنٍّ أعلى، لا يئوده في ذلك ما يئود المرأة من حيض ونفاس وحمل ووضع.

ولعل أصدق دليل في هذا الصدد، صحة الحياة برجل مع نساء، وضياعها بامرأة مع رجال، ذلك أمر معلوم لا سبيل إلى الشك فيه، ومتى كان الرجل أقوى من المرأة فقد يشق على كثيرين الاكتفاء بواحدة.

وقد تكون الضرورة اجتماعية؛ لأن المشاهد غالباً زيادة عدد النساء على الرجال في كثير من الدول، واطراد ذلك اطراداً هائلاً في أيام الحروب والثورات، والإحصاءات الأخيرة ــ على ما طالعتنا الصحف بها ــ في دول كثيرة تدل على ذلك، فالنساء في انجلترا تزيد على الرجال بأكثر من مليون ونصف، وغير المتزوجات بلغن خمسة ملايين امرأة، وفرنسا شبيهة بها وألمانيا نسبة النساء فيها إلى الرجال كنسبة ٥ : ٤، وروسيا قريبة منها.

فهل نجبر أولئك النسوة على حياة الدير والترهب صيانة للأعراض والأخلاق؟ وهل يستطاع ذلك لو أريد؟.

وأيهما أكرم للمرأة والرجل، علاقة شريفة تصونهما وتصون ما يجيء بينهما من النسل، أم سفاح ومخادنة تسيغهما دول الغرب، يكون للرجل الغنم، وعلى المرأة الغرم؟.

لقد كان تعدد الزوجات أمراً متعارفاً لدى الأمم السابقة، وذكرت التوراة لسليمان وحده سبعمائة زوجة وثلثمائة سرية[1] وجاء الإسلام ولا ضابط له عند العرب، فجعله في حدوده الضيقة، ولم يجعله مطلوباً لذاته ولا مندوباً.

فإذا اعترف الإسلام به فقد أوجبته الضرورات الجنسية والاجتماعية لصالح المرأة والرجل على السواء. وقد أوجب الله على الرجل العدالة المحققة وجاء في الحديث: «أيما رجل تزوج امرأتين فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل».

ولن يتوفر عدل في الذواقين والذواقات، أولئك الذين لا يريدون من الزواج ما أراد الله إذ يقول: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة» ولا يبتغون منه ما جعل الله فيه، فيقولون مثل ما يقول عباد الرحمن: «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين».

الغرب وتعدد الزوجات:

ولئن تناول الغربيون هذا النظام بروح السخط له، والتعصب عليه، كشأنهم في كل ما هو إسلامي، وقلدهم في نقدهم المتغربون، فلم يعدم الحق نصيراً من المنصفين بين صفوف المعادين، والفضل ما شهدت به الأعداء. يقول

---

(١) سفر الملوك ف ٢١ ص ٥٤٧.

غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب[1] منتقداً قومه في الحملة على تعدد الزوجات، ومشيداً به من فصل طويل: إن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة، وأنهضها بأدب الأمة التي تذهب إليه، وتعتصم به، وأوثقها للأسرة عقداً، وأشدها لأصرتها أزراً، وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالاً، وأوجه شأناً، وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية، أما في الغرب.. فالبقاء على الواحدة نص من نصوص القانون لا أمراً واقعاً، ولا حكماً نافذاً ــ وليس في قدرة أحد أن يعترض ما أقول، أو ينكر أن الوقوف دون ذلك السياج ــ سياج الزوجة الواحدة ــ أمر لا يستمسك به إلا الأقلون، ولست أدري على أية قاعدة يبني الأوروبيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام ــ نظام تعدد الزوجات ــ عن نظام التفرد المشوب بين الأوروبيين بالكذب والنفاق، على حين أرى أسباباً تحملني على إيثار نظام التعدد على ما سواه».

وليس ذلك الفيلسوف وحيداً بين قومه، وأهل ملته، فلقد شاركه الكثيرون والكثيرات فيما ارتآه، ودعوا قومهم إليه.

خطب اللورد كرومر خطبة انتقد فيها الشريعة الإسلامية في تعدد الزوجات وإباحة الطلاق، فرد عليه السيد رشيد رضا رداً قاطعاً، وجاء في حديثه أن من كاتبات الإنجليز من طالبت في الجرائد بإباحة تعدد الزوجات رحمة بالعاملات الفقيرات، والبغايا المضطرات، ونقل بعض مقالات لأولئك الكاتبات ومما جاء فيها: «لقد كثرت الشاردات من بناتنا، وعم البلاء، وقل الباحثون عن أسباب ذلك، وإذ كنت امرأة أراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزناً، وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وتفجعي، وإن شاركني الناس فيها جميعاً، لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجس، ولله در العالم الفاضل (تومس) فإنه رأى الداء الكافل للشفاء (وهو أن يباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة،

---

(١) نقلاً من كتاب دولة النساء للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي. والمرأة العربية للأستاذ عبد الله عفيفي الجزء الثاني.

وتصبح بناتنا ربات بيوت، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة، فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال».

وتحدثت عن الأولاد غير الشرعيين وقالت: «فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن»

وقالت أخرى بعد وصف الاختلاط، وتغرير الرجل بالفتاة وتركها بجنينها وذلها: «فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة، حتى قدرت على كفالتهم، والذي علقت منه لا ينظر إلى أولئك الأطفال، ولا يتعهدهم بشيء، ويلاه من هذه الحالة التعسة!!! ترى من كان معيناً لها في الوحم ودواره، والحمل وأثقاله. والوضع وآلامه، والفصال ومرارته؟»[1].

وإذا كان الذي طلعت به صحف انجلترا على الانجليز في سنة ١٩٠١ يعد قديماً، وإنه لكذلك، فماذا جد على صلة المرأة بالرجل في أوروبا كل هذه السنين؟ هل حُلت القضية حلاً عادلاً في مدى نصف قرن من الزمان؟.

لقد رأينا المرأة تشقى بالصلات الجنسية التي لا يحمل الرجل فيها عبئاً ما، فتراه ينسحب ناعم البال، هادىء الحس، بعد أن قضى ما أراد، ولتحمل المرأة عيشها وعيش وليدها. ولتقاس من ذلك العذاب الأليم.

وتكر الأيام والسنون، وتهتدي المرأة إلى حل لمعضلتها بعد تفكير شديد وتجمع المؤتمرات، وينتظم عقدها من النساء القانونيات للبحث في اتصال المرأة غير المشروع بالرجل» ويتفقن على وضع قانون يطالبن فيه بترتيب حقوق للمرأة ولابنها غير الشرعي، قِبَل من يتصل بها من الرجال.

---

(١) رد عليه في المنار، ونقل ذلك في تفسيره جـ ٤ وفي كتابه نداء إلى الجنس اللطيف.

نشرت الأهرام في سبتمبر عام سنة ١٩٥٣ نبأ مؤتمر تورنتو بإيطاليا، الذي عقده اتحاد القانونيات العالميات وسبق عقده من قبل في باريس وجنيف وستراسبورج وغيرها، ومثلت فيه مصر لأول مرة، ويعنى الاتحاد ببحث حقوق العائلة والأحوال الشخصية للمرأة، والعمل على وضع القوانين التي تكفل حمايتها وقالت الأهرام: وقد بحث المؤتمر في دورته الحالية مسألتين: حقوق النساء والابن الشرعي، وما سموه الأم الآنسة، أي التي أنجبت أطفالاً دون أن تتزوج ـ ورأت المجتمعات ترتيب حقوق لكل امرأة قبل أي رجل يتصل بها، وذكرت رئيسة المؤتمر أن الاتحاد وضع مشروع معاهدة لحماية الابن غير الشرعي، وعلاقة المرأة بالرجل.

وقد خطت امرأة انجليزية خطوة إيجابية لعلها من آثار الدعوة إلى هذه المعاهدة، ورفعت قضية على طيار أميركي تطلب النفقة لها ولوليدها منه، فرفضت المحكمة دعواها بحجة أن على فتيات الإنجليز أن يحرصن في علاقتهن مع الأميركان «وكانت هذه واحدة من سبعين ألفاً من الأمهات الأوانس في الأيام الأخيرة، شغلن الضمير المتمدن في نصف العالم الحر!!! بالاستماع لحظة إلى أميركي مسئول ينادي بعقد معاهدة في شأن أولئك النساء البائسات، علق عليها رئيس تحرير الأهرام بتاريخ ١٩٥٤/٢/١٨ بقوله في ما قل ودل: «ستعقد بين بريطانيا وأميركا معاهدة من نوع جديد، فلا هي سياسية ولا هي عسكرية، ولا هي مالية... إنها معاهدة غرامية... يقول السناتور جرين عضو لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأميركي: «إن الضمير الأميركي يجب أن يتحرك، وإن معاهدة لتصحيح الموقف يجب أن تعقد... أما الموقف فهو خاص بسبعين ألف ابن حرام، ولدوا بسبب الجنود الأميركان..» فلما حاولت إحداهن أن ترفع قضية نفقة حكم القضاء البريطاني ضدها، وقال القاضي في حكمه: إن العبرة تقضي بضرورة أن تحرص هؤلاء الشابات في علاقتهن مع الجنود الأميركان حرصاً أكثر من ذلك... وبذلك سقطت نفقة ٧٠٠٠٠/ألف فتاة وامرأة. اهـ».

فليت شعري ما عسى أولئك الكاتبات الانجليزيات يقلن، لو امتد بهن

الزمن، فرأين ما وصل إليه حال بناتهن ونسائهن؟ بل ما عساهن قائلات لأولئك المصريات المسلمات اللائي انعقد مؤتمرهن من ست وعشرين هيئة نسائية في منتصف أبريل(١) لبحث شئون الأسرة، وطالبن فيه بمنع تعدد الزوجات.

وماذا ستصنع هذه الملايين الخمسة من نساء الانجليز غير المتزوجات، والملايين سواها من نساء الغرب في نداء الجنس؟.

هل من عجب بعد ذلك إن عضدن القانونيات العالميات في المطالبة بترتيب حقوق لكل امرأة قبل أي رجل يتصل بها، وفي وضع المعاهدة لحماية الابن غير الشرعي ــ فلو أن ذلك الوالد اللص والزوج الكاذب. زوجاً ووالداً شرعياً فضم المرأة والولد قانوناً، كما احتواهما فعلاً، وقام لهما بواجب الزوج والوالد، أكانت تهدر حقوق المرأة ووليدها على هذه الصورة الشوهاء؟!.

ثم هل يكون جهد أولئك المثقفات عندنا، بعدما رأيناه ونراه، أن نمضي خلف أولئك الأقوام، ونقتفي آثارهم، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، ولو دخلوا جحر ضب خرب دخلناه.

على أننا في وضع قانون كهذا مقترح لا نكون سوى مقلدين في نقل سيئات الآخرين حباً في التقليد، فموضوع تعدد الزوجات عدا أنه ضرورة اجتماعية، لم يعد مشكلة ذات بال، فقد رغب الناس عنه، وصار أمراً نادراً لا يقدم عليه كثيرون، وكما قاله رئيس المجلس المختص بالقرية والأسرة: إن تعدد الزوجات أقل بكثير من الماضي بسبب ثقل الأعباء الزوجية، بل تكاد هذه الظاهرة تتلاشى.

التقييد المحدود:

وأخيراً فإن هناك فوق ذلك كله من دقائق التشريع الإسلامي وروائعه، ما لو علمته المناديات بالتقييد لطربن له وحسبنه حجة لهن، وهو بعد آية على عظمة هذا التشريع وقدرته على مواجهة ما يعرض للفرد والجماعة من حاجات،

---

(١) سنة ١٩٥٤.

ذلك أن التقييد أجازه الدين إجازة محدودة، تحقق الخير الذي يكون فيه، ولا تعدوه إلى ضرر التعميم، فللمرأة في نظر الإسلام أن تقدر ما فيه خيرها، فتشترط على زوجها إن شاءت ألا يتزوج بغيرها، وعليه الوفاء لها، بل لقد قرر بعض الأئمة أن الإفراد إن كان عادة قوم درجوا عليه، فليس للزوج أن يقترن بغيرها ولو لم تشترط عليه، لأن المعروف كالمشروط، وقد أخذوه من أصله الأصيل فقد روى البخاري في عدة مواضع من صحيحه عن المسور بن مخرمة قال: سمعت النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: «إن بني هشام ابن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب؛ فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها» وفي رواية أخرى: «إن فاطمة مني وأنا أتخوف أن تفتن في دينها، ثم ذكر صهراً له من بني عبد شمس فأثنى عليه في مصاهرته إياه قال: حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله (ﷺ) وبنت عدو الله أبداً».

ولئن نهى الرسول ﷺ أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله، ولم يكن ذلك لائقاً، فقد علل الحكم أولاً بأنه يخشى أن تفتن في دينها، وأخذ العلماء أن الشريفة التي يؤذيها أن يتزوج رجلها بمن دونها، لا يحل إيذاؤها بالتزوج عليها، كذلك إن اشترطته على الرجل، أو كانت عادة قوم فعليه الوفاء.

هذا هو عدل الله بين العباد، وشرعه الحكيم للناس يوجههم إلى ما فيه خيرهم وعزهم وسعادتهم، لم يعي بصغير من الأمر أو كبير، ولا بقليل أو كثير، أحاط المرأة بالرعاية الواجبة، وضمن صيانة المجتمع، ونوع الإباحة والتقييد، ليواجه بكل منهما ما يناسبه، ولو أراد التقييد عاماً لما أعياه، ولو علم الخير في تعميمه لما أهمله أو جامل فيه.

هذا هو الإسلام يواجه المجتمع الراقي في كل زمان ومكان بمدد من التشريع الإلهي العادل، تنزيل من حكيم حميد.

فماذا لو عنينا برفع مستوى الأسرة دينياً وثقافياً ومادياً، وعملنا على إنارة القلوب، وملئها بالخير والرحمة والحنان، وبذلنا الجهد لاحياء الضمائر، وتنوير

البصائر، وتركنا مباحاً ما أباحه الله؟ ولئن شكونا تجاوز البعض لحدود الله فليكن لنا من النظم ما يكفل الخير العام، ويضرب على أيدي المعتدين الطغام، على أن يكون من معينه الصافي الذي لا كدر فيه، على أن يكون من دين الله، وفي حدود إرشاده وهداه، فالله أرحم بالمؤمنين، وأحكم الحاكمين، وليجتمع المسلمون بدينهم على كلمة سواء، ولا يتفرقوا بين شرع الله وأهواء الناس، فذلك أجدى على المجتمع الإسلامي، وأهدى سبيلاً.

مشروعية الطلاق

عُني الإسلام بأمر الزوجية عناية كاملة، عرفانا منه بأن التزواج مادة الوجود، وسبيل عمارة الكون ليس في الإنسان وحده، بل في الحيوان والنبات كذلك «ومن كل شيء خلقنا زوجين، لعلكم تذكرون»[1] لهذا تراه يقيم البيت المسلم على أساس وطيد من البصيرة والتثبت والرضا، يتجلى في تخير الزوجة، وتقديم رضاها، وتفضيل ذات الدين والخلق الجميل، وفي إرشاده إلى رؤ ية كل من الزوجين لصاحبه قبل عقد الزوجية، لأن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر اختلف.

فإذا قام البيت وتم بناؤه، دعا الزوجين إلى حفظه وصيانته، وأرشدهما إلى ما يقويه ويدعم أركانه، ويشد أواصره، فعظّم حرمة كل على صاحبه، وجعل الحقوق والواجبات كفاء، وأعلمهم أن خير الرجال خيرهم لأهله، ودعاهم إلى الرفق والمياسرة، واللطف والبشاشة، وإلى كل ما يثبت الحب في القلوب، حتى إن النبي ليغري الزوج بملاعبة زوجته، ويقول لجابر: «هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك»[2]. بل إنه ليجعل اللقمة يضعها الرجل في فم زوجته قربة عند الله تعلى درجته، ويدفعه إلى نشدان السعادة والبهجة وقرة العين في زوجته، مقدماً لها على ذريته، سالكاً إلى ذلك ألطف السبل، حينما يذكر من صفات

(١) سورة الذاريات آية (٤٩).

(٢) البخاري — باب تزويج الثيبات — وفيه سؤال النبي ﷺ أبكراً أم ثيباً؟ فأجاب ثيباً قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك...

الصالحين عباد الرحمن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، أنهم ﴿يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماماً﴾[1]، كما يأمر المرأة بطاعة زوجها واحترامه، ويجعل رضاه سبباً لرضا الله سبحانه.

وهو في ذلك لا يجعل الزواج قصوراً سعيدة من الخيال والأوهام، أو يخفي ما فيه من تبعات وأعباء جسام، بل تسمع إلى الرسول في معرض التذكير والتبصرة بحقائق الأمور يقول: «إن المرأة خلقت من ضلع، فإن ذهبت تقيمه كسرته؛ وكسرها طلاقها» تلك طبيعتها فطرت عليها، فيجب إكرامها ورعايتها والإحسان إليها، لا في الرضا فحسب، بل ولو تغير القلب عليها أو فتر حبه لها، حيث لا ريبة ولا نشوز ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[2].. «لا يفرك[3] مؤمن مؤمنة، إن أبغض منها خلقاً أحب منها خلقاً آخر» وقد أخبر الله تعالى عن الصالحات بأنهن «قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله» هذه حياطة الإسلام للبيت، حتى تمضي ريحه رخاء لينة. يستمتع الزوجان فيها بحياة سعيدة هانئة، وينشئان أسرة كريمة صالحة.

علاج كلّ من الزوجين لصاحبه:

ولكن الحياة ليست كلها وروداً وأزهاراً، بل إن أشواكها من حول الورود، وسماؤها لا تأمن السحب أو الأعاصير، فواجب الزوجين في نظر الإسلام الحكمة والتريث والبصيرة والعلاج.

فإن بدا من الزوجة نشوز أو تمرد بعد كل ما قدمنا من رعاية الرجل وإحسانه ومداراته، فلا جُناح عليه أن يقف منها موقف المربيّ الحكيم بلين القول، وصواب التوجيه والإرشاد، أو بالهجر في الفراش حتى يطامن من

---

(١) سورة الفرقان آية (٧٤).

(٢) سورة النساء آية ١٩.

(٣) لا يبغض.

كبريائها عليه ـ فإن لم تفد نصيحة، ولم يغنه إغضاء وهجر، فقد رُخّص له في ضرب خفيف، فإن أطاعت المرأة واستقامت على الجادة عاد الرجل إليها على خير ما كان، وليس له عليها من سبيل. هذا ما يرشد إليه اللطيف الخبير إذ يقول: ﴿واللاّتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾[1].

كذلك إن خافت المرأة من زوجها نشوزاً أو فتوراً في مودتها، فلا بأس أن تحاول ترضيته وإصلاحه، بما أوتيت من لطف وكياسة، وتخفض له جناحها، وترفق به في بعض رغباتها وحقوقها. قال تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشحّ. وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيمًا﴾[2].

وكثيراً ما ترى ذلك العلاج اليسير دافعاً لشر كبير، وخطر جسيم يتهدد العلاقة الزوجية، فيداوي أمرها ويطب لدائها.

التحكيم:

أما إن تفاقم الخلاف بين الزوجين حتى خيف الشقاق، فليس للرجل أن يغالي في إيذاء، أو يتعمد إهانة وقسراً، بل هناك الحكمان ينظران في أمرهما، ليصلحا ذات بينهما، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليمًا خبيراً﴾[3].

ومن لطف القرآن، وحسن تهديه إلى غايته، ورغبته في دوام عشرتهما، أن يذكر الإصلاح، واعداً منحهما التوفيق من عند الله، ويضرب صفحاً عن ذكر ما يقابله. عن ابن عباس قال: أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل

---

(١) سورة النساء: آية ٣٤.
(٢) سورة النساء: آية ١٢٨.
(٣) سورة النساء: آية ٣٥.

الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته، وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ثم مات أحدهما فالراضي يرث الكاره، ولا يرث الكاره الراضي.. رواه ابن كثير في تفسيره للآية المذكورة من سورة النساء.

وبعث عثمان رضي الله عنه ابن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل بن أبي طالب وزوجته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة[1] وقال: إن رأيتما أن تجمعا فجمعا وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما، فقال معاوية ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما، فرجعا من حيث جاءا.

هذه هي الخطوات الإسلامية في رعاية الحياة الزوجية وتقويمها، وإصلاح ما يطرأ عليها، فإن تباعدت مسافة الخلف، ولم يُجْدِ كل ذلك في عودة المياه إلى مجاريها، وعجز الحكمان عن التوفيق، فليس إلا التسريح باحسان «وإن يتفرقا يُغنِ الله كلاً من سعته».

الطلاق عملية إنقاذ:

فقد شرع الله الطلاق حال ضرورة لا معدى منها، ولا محيد عنها، شرعه علاجاً من خطر محقق لا يقاس الطلاق إليه شيئاً ــ خطر انهيار الحياة الزوجية انهياراً يجعلها جحيماً لا يطاق، ذلك الخطر الذي نشاهد بعض آثاره لدى قوم لا يباح لهم الطلاق، وناهيك بخطر يحمل صاحبه على الفرار من دينه واعتناق سواه، أو يدفعه إلى الخروج من إنسانيته بقتل النفس وإزهاق الروح، أو يُدليه

---

(١) وكانت تكثر عليه في السؤال عن أبيها وأخيها قتيلي بدر، وتقول له أين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، فلما ألحت عليه قال لها: على يسارك في النار إذا دخلت، فشدت ثيابها فجاءت عثمان فذكرت له ذلك فضحك وأرسل الحكمين.

إلى الكفر برجولته، فيغرى آخر بالوصول إلى حليلته، لتضبط متلبسة بجريمة الزنا فيتاح له فراقها.

ليس من شك في أن الطلاق علاج، والعلاج لا يحتاجه الصحيح، ومن العلاج ما يكون بتراً، ولن يغض من فكرة التداوى أن يخطىء مريض أو مرضى في تعاطى الدواء، أو يسرفوا فيه فيشقوا به. والطلاق بعد ذلك في نظر الإسلام مُضيق فيه كل التضييق، مبغض إلى الله ورسوله. وقد رأيت كيف تصان الحياة الزوجية، ويصبر على شدائدها، ويعالج الزوج زوجته، والزوجة زوجها، ثم الحكمان يعمدان إلى الإصلاح.

فإن استقر أمرهما على الفراق، وعزما على الطلاق، فقد جعل الإسلام حينئذ لمن بيده العصمة عادة وهو الرجل، أن يوقع الطلاق في حال لا يتعداه إلا ظالماً، وهو ما أمر الله به في قوله: «يأيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلقوهن لعدتهن» أي مستقبلات لعدتهن، وذلك في طهر لم يمسها فيه، أما إن كانت حائضاً أو طاهراً مسها فلا يجوز له طلاقها.

روى البخاري ومسلم أن ابن عمر طلق امرأة له وهي حائض، فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ، فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجِعْها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض، فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء».

وفي الحديث على هذا النحو من التقدير لأحاسيس النفوس ودخائلها، وفيه من دقائق التشريع وروائعه ما يراه الفاحص لأي ناحية من نواحي الإسلام.

فالنبي لم يُقر الطلاق زمن الحيض، وأمره بإعادتها كما كانت وإمساكها، لا مدة الحيض فحسب ولكن طهراً كاملاً بعده، ثم تحيض مرة أخرى ثم تطهر فإن شاء أمسك، وإن شاء طلق، وتنعم النظر في الهدى النبوى فتراه إصلاح ذات البين إن كان إليه سبيل، فالمرأة غير مرغوب فيها زمن الحيض. ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذًى، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن

حتى يطهرن﴾[1] وقد يكون الرجل ثائر الأعصاب، ضيّق الصدر من حيث لا يشعر، فلا يباح له الإقدام على أمر يهدم به بيتاً عامراً في ثورة نفسية عارضة قد يندم عليها أشد الندم، فحظر عليه الطلاق أثناءها، حتى إذا جاء الطهر الأول أمره كذلك بالإمساك، عسى أن يكون فيه ما يكون بين الرجل وزوجته، فيزول ما بنفسه وتسكن فائرته، ويعود إليهما الصفاء، وقد تحمل المرأة فيدعوه حملها إلى إمساكها.

أما إن أصر بعدُ على الفراق، فلن يكون ذلك غالباً إلا لحاجة ظاهرة، أو ضرورة قاهرة، فله أن يطلقها، مستقبلةً لعدتها في طهر لم يمسها فيه، ومثل ذلك ما لو طلقها حاملاً قد استبان حملها، ولم يعطفه ذلك عليها، دل صنيعه على تمكن الخلاف والشقاق، فليطلقها تطليقه، وليتق الله في معاملتها، لا يخرجها من بيتها التي هي فيه، ولا ينبغي لها أن تخرج «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» أي فلعله يندم على تطليق زوجته، وتندم هي على فراق زوجها، فيفيئا إلى باحة الرضا قبل حلول الأجل.

فإذا أشرف الأجل على انتهاء، وآذنت العدة بالانقضاء، فقد وجب البت في شأن العلاقة المعلقة، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وليشهد الأمر عدلان صالحان، عسى أن يكون حضور الأخيار داعية الخير والرضا قال تعالى: يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لا تُخرجوهن من بيوتهن، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم، وأقيموا الشهادة لله، ذلكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[2].

وهذا الطلاق الأول هو المعروف بالرجعي ــ واحدة من ثلاث ــ لحقّ

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

(٢) الآيات من صدر سورة الطلاق وقد رسمت حدود الطلاق المشروع.

الرجل في ارتجاع زوجته قبل نهاية العدة. ومن طرائف المقروء في هذا الصدد ما نشرته صحيفة المصري بعددها الصادر في ١٩٥٤/١/٥ ونصه: «وضع قانوني انجليزي كبير مشروع قانون يقضي بإيجاد نوع من الطلاق تحت التجربة، وذلك لكي يُتيح للزوجين غير المتفقين فرصة مراجعة أفكارهما، وتحديد الأسباب التي تدفعهما للطلاق، حينما يكونان في حالة انفصال بيتي، وقد أيدت الكنيسة الانجليكانية هذا المشروع».

في النصف الثاني من القرن العشرين أي بعد نزول القرآن الكريم بقرابة أربعة عشر قرناً من الزمان يهتدي أحد المفكرين القانونيين إلى نوع من الطلاق يكون تحت الاختبار، ليراجع الزوجان فيه أنفسهما، ويحددا في هدوء موقفهما النهائي، فماذا نقول في هذا الذي «ابتكره للانجليز» أحد المفكرين، وباركته كنيسته إن صح ذلك وأخذ به؟.

أنقول انه الرجعية إلى أكثر من ألف عام، أم نقول إن هذا التشريع الذي كانت صخور الصحراء ورمالها مهبط وحيه، ومشرق صحبه، قد أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، والذي وضع في النفوس فِطرَها وغرَّز غرائزها، والذي يحيط بمكنونها، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ بلى وربي إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون.

ولنمض في الموضوع نتملى آياته، ونستجلي بيناته، وتنظر في القرآن الكريم فتراه لم يقطع الزوجية بمجرد الطلاق، بل أمر المرأة بالتربص والانتظار ثلاثة قروء، فإن كانت حاملاً وجب إعلانها للحمل عسى أن يتعاطفا، ورجلها أحق بها إن أرادا صلحاً، وذلك قول الله سبحانه ﴿والمطلَّقاتُ يتربَّصْن بأنفسهن ثلاثة قروء، ولا يحلّ لهن أن يَكتُمن ما خلق الله في أرحامهن إن كنّ يؤ منَّ بالله واليوم الآخر، وبعولتهن أحق بردِّهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾[1] وليس له أن يراجعها ليُضارَّها ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٨.

نفسه﴾ وكان الرجل في الجاهلية يطلق ما شاء، ويراجع ما شاء فكانت العلاقة الزوجية ألعوبة في يد السفهاء، حتى بلغ من أمر رجل أن يقول لزوجته: والله لا آويك. ولا أفارقك، قالت: وكيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك... فشكت المرأة لرسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾[1] وبهذا كان للزوجين فرصتان للتراجع، وكان الزوج في فسحة من أمره مرة ومرة، فإذا جاوزهما إلى الثالثة فقد أفلت الزمام من يده، وضيق من أمره ما كان واسعاً، وليس له حق ارتجاع مطلقته بعد أن ظهر جلياً ألا خير في حياة مضطربة مليئة بأسباب الشحناء والبغضاء.

فإذا قضت المرأة عدتها فقد حل لها النكاح بمن شاءت من الأزواج.

فإن سعدت بحياتها الجديدة في ظل الزوج الجديد فذاك، وكثيراً ما يداعب خيال المرأة حياتها السابقة، فتود لو رجعت لسابق عهدها، وقد تستبد بها الرغبة، وبخاصة إن لم توفق في زواجها، بل لعل ذكرى الزوج الأول تكون هي السبب لاخفاقها، وقديماً قال الشاعر:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحبُّ إلّا للحبيب الأول

فلو طلقها الثاني، وشاءت الرجوع إلى الأول فلا عليها، إن ظنا استقامة أمرهما. عن عائشة قالت: «دخلت امرأة رفاعة القرظي، وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما معه مثل الهُدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، قالت وخالدُ بنُ سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له فقال: يا أبا بكر ألا تنهي هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم فقال رسول الله ﷺ كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عسيلتك»[2].

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير، والترمذي والحاكم.

(٢) رواه أحمد والبخاري والنسائي.

النهي عن التحليل:

ومن شروط الزواج الثاني ألا يكون بقصد التحليل فقد نهى النبي عنه أشد النهي، ولعن فاعله وسماه التيس المستعار، وبذلك لا تكون الصلات الزوجية ألعوبة في يد اللاهين. روى الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد والحاكم أن رسول الله ﷺ لعن المحلّل والمحلل له وعن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل: قال لا، إلاّ نكاح رغبة، لا نكاح دُلسة. ولا استهزاء بكتاب الله، ثم يذوق عسيلتها.

فإن طلقها الزوج الثاني فلا بأس بزواجها من الأول كما تقدم، وذلك قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فإن طَلَّقَها[1] فلا تَحِلُّ لَه مِنْ بَعْدُ حتى تنكحَ زَوْجاً غيرَه، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله...﴾[2]. وعسى أن يكون في هذه التجربة المريرة على الرجل والمرأة معاً ما يردهما إلى الصواب والاعتدال، والمحافظة على الواجبات ورعاية الحقوق المتبادلة، ولعل ذلك يطامن من كبرياء الرجل إذ رأى امرأته وقد صارت حليلة رجل آخر، يملك من أمرها ما أضاع هو بحمقه وجهله؛ فلا يعود في معاملتها إلى شطط وإسراف.

وقد يناسب هنا أن نورد ما تذكر التوراة في هذا المقام. جاء في سفر تثنيه الاشتراع[3]: إذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلاً، ولم تحظ عنده لعيب أنكره عليها، فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه إلى يدها ويصرفها من بيته، فإذا خرجت من بيته ومضت وصارت لرجل آخر فأبغضها الرجل الآخر وكتب لها كتاب طلاق فدفعه إلى يدها وصرفها من بيته، أو مات الرجل الآخر الذي اتخذها له زوجة، فليس لبعلها الأول الذي طلقها أن يعود ويأخذها لتكون له زوجة

---

(١) أي للمرة الثالثة.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣) ف ٢٤، ص ٣٢٦.

بعدما تدنست، فإن ذلك رجس لدى الرب، فلا تجلب خطيئة على الأرض التي يعطيكها الرب إلهك ميراثاً.

ولئن كان هنا يبيح الطلاق لعيب في المرأة: أو لبغضه إياها، ثم يراها بالزواج الثاني دنّست فلا ترجع إلى الأول، فقد اعتبر الانجيل الطلاق إلا لعلة الزنا محظوراً، وجعل التزوج بالمطلقة زنا «قد قيل من طلق امرأته فليدفع لها كتاب طلاق، أما أنا فأقول لكم، من طلق امرأته إلّا لعلة زنا فقد جعلها زانية، ومن تزوج مطلقة فقد زنا».

ولم أورده مقارنة فقد جل الأمر عن المقارنة، وإنما لنتأمل واقعية الإسلام ورحمته واعترافه بالضرورات، وحرصه على زابطة الزوجية وقداستها إلى أكبر الحدود، ورعايتها في الحب والبغض وإعطائه الفرص للزوجين كي لا يفترقا إن استطاعا ذلك. ولم لا؟ وقد ورد ما «أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق».

حق المرأة في حل الزوجية:

وكما جعل الإسلام العصمة بيد الرجل حفاظاً على هذا الميثاق المؤكد، وأباح له أن يحل عقدتها على النهج الذي رسمه، متحملاً تبعات عمله، وما يترتب عليه من أعباء النفقة والمتعة والسكنى، كذلك أجاز للمرأة أن تطلب التحلل من هذا العقد، إن لم تجد فيه ما تنشده من مودة ورحمة وهناءة، وللرجل استرداد ما منحها من الصداق أو بعضه، إن لم يكن هو الحامل لها بظلمه على طلب الطلاق، فتفتدي منه بما تراضيا عليه، يقول الله تعالى: ﴿ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتمُوهن شيئاً إلّا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

وجاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله إني ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام ــ تعني التقصير

(١) انجيل متى ف ٥، ص ٨٠.

في واجب الزوجية ــ ما أطيقه بغضاً، فقال رسول الله ﷺ أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة»[1].

وشرع الفداء تُقَدمه المرأة نظير ما طلبته من الفراق، حتى لا يكون عقد الزواج وسيلة لاقتناص مال الرجل، والاستمتاع بخيراته وهباته، وما يسوق من صداق، فإذا استنفد أغراضه لم تعدم المرأة اللعوب اختلاق الأسباب للتحلل منه.

أما إن دفعها الرجل بظلمه لها إلى طلب الطلاق، فلا يحل له ما أخذ منها، جاء في الموطأ في باب الخُلع: قال مالك في المفتدية من زوجها إنه إذا علم أن زوجها أضرّ بها وضيق عليها، وعُلمَ أنه ظالم لها مضي الطلاق، وردّ عليها مالها.

وقد حذر الإسلام المرأة من طلب الطلاق في غير ضرورة فقال ﷺ: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» هذا هو الطلاق في الإسلام بين الرجل والمرأة، ما أحله الله إلاّ رحمة، وما ضيّق فيه إلاّ رحمة، وهو سبحانه أرحم الراحمين.

بعد الفراق:

لم تقف حقوق المرأة عند حد قيام العلاقة الزوجية، وتبادل المنافع والرضا بين الجانبين، بل امتدت إلى ما بعد ذلك، فلها زيادة على صداقها النفقة والسكنى ما دامت في عدته، وذلك قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن...﴾ وسكناها في منزل الزوجية مدة العدة مستتبع نفقتها حتمًا كما هو مبين في السنة.

ولها فوق ذلك حق غير محدود القدر، وإن كان محدود الوصف، تطييباً لخاطرها، وهي المتعة التي قال الله فيها: ﴿ومتعوهن على الموسع قَدَرُه، وعلى

---

(١) رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة والدارقطني باختلاف يسير بين الروايات.

المُقتِر قدره . . . ﴾[1] وقال: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾[2].

وفي الإحسان إلى المرأة في حالة الفراق زيادة على المسمى لها ما يشعر بكرامتها على الرجل، وكأنه تكفير عن خطيئته في حقها، وقطع لقالة السوء في شأنها، وتحقيق للروح العام الذي يأمر به الإسلام بين الزوجين، حتى في مواطن المشاحة والشقاق إذ يقول سبحانه: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم، والله بما تعملون بصير﴾[3].

المسرفون على أنفسهم:

وإن قوماً أسرفوا على أنفسهم، فلم يعبأوا بهذه الروابط المقدسة، ولم يرعوها حق رعايتها، وتنكبوا سبيل الدين، فشَقوا وأشقوا، وعبثوا بحرمة الزوجية حينما اتخذوا الطلاق توثيقاً لأيمانهم، وتأكيداً لأقوالهم وترويجاً لباطلهم، ولعل مما ساعد على ذلك وأغرى به ما قرره بعض الفقهاء السابقين من اعتبار الطلاق من الأيمان الشرعية، حتى بلغ الأمر في ذلك أن يعرفوه بقولهم: اليمن حلف بالله، أو بحل عصمة. ولم يشرع الطلاق لليمين، ولا هو من صيغه، والحديث الشريف يقول: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» رواه البخاري وغيره. كما جر المتاعب الكثيرة والمفاسدة الخطيرة ما عليه الجمهور من القول باعتبار الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاث طلقات.

وقد كانت القوانين الأخيرة التي صدرت في النصف الأول من هذا القرن، لتنظيم الأحوال الشخصية، خطوة جيدة في سبيل القضاء على فوضى الطلاق وما يتبعه من مفاسد التحليل.

وقد تكلم الناس قديماً وحديثاً في تطليق الرجل زوجته ثلاثاً بلفظ واحد

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٣٦.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٤١، ٢٤٢.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٣٧.

مع إجماعهم على أنه مخالف لما شرعه الله سبحانه من جعل الطلاق مرة مرة فقالوا: هل يلزم في ذلك ما ألزم به نفسه فيمضي الطلاق ثلاثاً؟ أو يلزمه واحدة لأنه لا يملك في المرة أكثر من ذلك؟ أو أن طلاقه على هذا النحو لغو من القول فلا يلزمه شيء لأنه ليس بشرعي؟ أقوال ثلاثة ولكل منها أدلته، ولها اعتبارها.

ومضى العمل أخيراً على التوسط واعتباره واحدة، كما اعتبر اليمين بالطلاق لغوا لأن اليمين لا يكون إلاّ بالله.

ويقول المرحوم الشيخ المراغي في تعليل ذلك بعد بحوث قيمة حول مواد القانون[1] والمصير إلى التفرقة بين قسمي المعلق، وإلى إلغاء اليمين بالطلاق، والمعلق الذي في معنى اليمين، سيرد الناس إلى الشريعة المطهرة، وسيكون سبباً في انقراض هذه الأيمان، وهذه التعليقات لعدم الفائدة منها، إذا قيل بعدم الوقوع،لأنها لا تكون أداة توثق بل تكون من لغو الكلام.

وقد عرف القول بوقوع الثلاثة في لفظ واحد عن الأئمة الأربعة، ومعظم أتباعهم، كما عرف القول بوقوعها واحدة فقط واعتبار الزائد لغواً عن أئمة آخرين متقدمين، وشهر بذلك من المتأخرين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والشوكاني، فقد دافعوا عنه، وأيدوه أتم تأييد. ويذكر ابن رشد وهو سابق على ابن تيمية بقرن أو يزيد، في كتابه بداية المجتهد خلاف العلماء في ذلك، ويروي مذهب الجمهور وغيرهم ويقول: وسبب الخلاف هل الحكم الذي جعله الشرع من البينونة للطلقة الثالثة يقع بإلزام المكلف نفسه هذا الحكم في طلقة واحدة؟ أو ليس يقع ولا يلزم من ذلك إلاّ ما ألزم الشرع؟ ثم قال بعد التوجيه لكل منهما: وكأن الجمهور[2] غلبوا حكم التغليظ في الطلاق سداً للذريعة،وعلق عليه بقوله. ولكن تبطل الرخصة الشرعية والرفق المقصود في ذلك، أعني في قوله تعالى: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾.

وقد أصاب بن رشد المحز فيما أخذه على الجمهور من الاحتياط الذي

---

(١) من كتاب بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج والطلاق.

(٢) أي في قولهم بوقوع الثلاثة في طلقة واحدة.

جاوز الرفق المقصود. وفي الحق أن القول بوجوب تفريق الطلاق، وانه لا يمضي من ذلك إلّا ما شرعه الله، لا ما تجاوزه الناس بطغيانهم، هو ما يناسب صريح القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويتفق وروح التشريع وبالله التوفيق.

كلمة خاتمة:

وقد بقيت هنا كلمة لا بد منها بشأن ما دأب فريق من الناس وبخاصة الهيئات النسائية على المناداة به من تقييد الطلاق وجعله بيد القاضي، ومنع تعدد الزوجات، وعنيت الصحافة ببحث هذه الموضوعات التي تجلي اهتمام الرأي العام بها؛ وخصصت جريدة المصري زمناً طويلاً صفحة السبت لعلاجها، وتلقي آراء المواطنين فيها من مؤيد ومفند.

ولو رجع هؤلاء المولعون والمولعات بتقليد الغرب إلى حمى الإسلام، يستمدون منه صيانة الأسرة وحفظها لكان لهم فوق ما يطلبون.

لقد كان معقولاً أن يعذروا في التقليد إذ عجزو عن الاجتهاد، يوم كان الغربيون راضين بحالهم، محافظين على تقاليدهم، مراعين لأسرهم، سعداء في حياتهم لم يصيروا إلى الطلاق، ولم يكثروا منه ويسرفوا فيه، برغم ما يحوطه من تعقيد شديد.

نعم لقد كانوا أحرياء بالمغفرة، يوم لم يثر الغربيون على قيود الطلاق، تلافياً للآثار الخطيرة الناجمة عن انفصال الزوجين واقعاً، وإن أنكره القانون حدث كاتب معروف[1] عن مشاهداته في بريطانيا أثناء إقامته بها زمناً طويلاً، ان من النساء من ينفصلن عن أزواجهن سنين عدداً، حيث لا أمل في المعاودة، ويجد كل من الزوج والزوجة عوضاً عن صاحبه، من منفصلين ومنفصلات يتعاشران بدون وجه قانوني، وما ذلك إلّا لحظر الطلاق في الانفصال قبل مضي أربع سنوات، وكثيراً ما يعجز طالب الطلاق منها عن دفع رسومه الباهظة،

---

(١) الأستاذ عبد المنعم الصاوي في كلمات قطر الندى من جريدة المصري.

فيفضل الهجر على الطلاق، ورُوي فيما روي حادثة لوزير بريطاني تعمد ستر اسمه، هجرته زوجته إلى رجل أمريكي يشتغل بالسينما، حيث رحلت معه إلى أمريكا، بعد أن أنجبت من هذا الوزير ولداً، هو الآن وزير على سنن أبيه، في دراسة أحوال المستعمرات، وانتظر الوزير سنوات حتى حكمت له المحكمة بالطلاق (وساعتها أحس أنه رجل استعاد كبرياءه الجريح، وصحح موقفه من سيدة هجرته إلى سواه).

بل لقد ثار مجلس العموم مرات، وهب النواب في وجوه الوزراء مطالبين باسم مواجهة الواقع، أن تصدر الحكومة من التشريعات ما يخفف من قيود الطلاق، علاجاً للمساوىء الاجتماعية التي ستخنق حياة الأسرة، وتهدد مصائر الأطفال.

إن منع تعدد الزوجات المقترح، وتقييد الطلاق إلاّ بإذن القاضي على أحسن الفروض، بما يلوح فيهما لبعض الناس من بريق النفع وظاهر العلاج، أشبه ما يكون بأمرين قال الله فيهما: ﴿ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

فلئن كان فيهما نفع فهما ضاران، والضرر فيهما بالغ الرجحان، وخير من ذلك أن نعالج الأسرة بما عالجها الإسلام، فنعلمهم أحكامه وآدابه، وما فرض الله لرعاية الأهل والأبناء، حتى يقيم كل رجل من نفسه رقيباً على نفسه، وتجعل كل أنثى لنفسها هادياً وزاجراً من نفسها، فتمضي سفينة البيت في بحر الحياة هادئة مطمئنة، مليئة الجوانب بالرحمة والسكينة والمحبة، بريئة من الأدواء، وفي ذلك الشفاء وأي شفاء.

* * *

تعقيب:

انتهينا بعد قرابة عشرين عاماً من ظهور هذا الكتاب «المرأة في الإسلام» إلى تسجيل ما استبان لنا بشأن الطلاق، في كتاب خاص بعنوان: «الطلاق في الإسلام محدد ومقيد».

أبنا فيه وجهات نظر الأئمة، ومن بينها المذاهب الثمانية التي تحرر منها موسوعة الفقه الإسلامي في المجلس الأعلى التابع لوزارة الأوقاف المصرية، وأقمنا الدليل على ما اخترناه منها، وخلاصته أنه لا يمضي من الطلاق إلاّ ما شرعه الله تعالى وأذن فيه، لا ما تجاوزه الناس بطغيانهم أو جهلهم.

فالطلاق المسمى عند الجميع بدعياً باطل ولا يلزم.

وطلاق الغضب الذي يخرج صاحبه عن امتلاك إرادته، فيدفعه إلى ما لا يريده من الطلاق باطل.

والطلاق مفرق، لا يملك الرجل منه إلاّ واحدة، تمضي إن وقعت على ما أذن الله فيه، ولا يتبع الطلاق الطلاق، إنما يعتد بالثاني ان وقع بعد رجعة صحيحة.

والنكاح وقد ثبت بيقين، لا يزول بغير يقين، ولا يقين في أمر اختلف العلماء فيه.

وبهذا ينحل ما سماه الناس مشكلة الطلاق، حلاً إسلامياً من صميم الفقه الإسلامي، لا من دخيل هنا أو هناك.

فارجع ان شئت إلى الكتاب، ومنه سبحانه العون والصواب.

المرأة في الميراث والشهادة

لعل من نافلة القول ومعاد الحديث ما يقال من أن المرأة في الإسلام شقيقة الرجل وصنوه، خلقت منه وخلق منها، فهي بنت وأخت وأم، وهو ابن وأخ وأب، خاطبها الإسلام كما خاطب الرجل، وشرع الفرائض والعبادات، ورتب الحساب والجزاء، للرجال والنساء جميعاً، وهل بعد هذه الآيات الكريمة التي يفيض بها القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ من مقال لقائل فيما كرم به الإسلام المرأة، وصانها ورفع شأنها، وحفظ منزلتها.

وأجمع العلماء على أن كل ما كان من أوامر الدين ونواهيه، وآدابه وتشريعه للناس، فهو عام للرجال والنساء، سوى ما تقتضيه التفرقة الضرورية بين الرجل والمرأة في الطبيعة والفطرة، وما يتبع ذلك من آثار.

للبنت على أبيها حق الرعاية والتربية والتعليم كما هو حق أخيها، وللمرأة حقوقها المدنية، ولها من الحقوق السياسية ما تملك به التوجيه والإرشاد، وتسهم به في صلاح الحياة العامة.

لها تملك المال، والتصرف فيه، وحرية اختيار زوجها وشريك حياتها، ولها الحقوق الخاصة بكونها زوجة وأما، كفاء ما عليها من تبعات جسام، كذلك لها حق الولاية كما للرجل، تأمر بالخير وتنهي عن الشر، وتدلي برأيها، وتنصح للمؤمنين، فإذا قال الرسول ﷺ «الدين النصيحة...» فالقرآن الكريم يقول: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾ ويقول في مقابل ذلك

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم﴾.

ونعتقد أن ذلك واضح لا يحتمل مزيداً من البيان.

وقد يبدو أن التفرقة بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية واضحة في الميراث، والشهادة، فقد جعلت المرأة على النصف من الرجل في أكثر صور الميراث كما اعتبرت شهادتها على النصف في الأموال. ومن فهم هذه التفرقة على أنها تفضيل للرجل على المرأة، فقد غبن عقله كما غبن الحق على السواء.

والحق الذي لا ريب فيه، أن الإسلام أعطى المرأة من المال أكثر مما أعطى الرجل، وجعل لها من الحق فيه ما لعله يوازي ضعف ماله أو يزيد، وذلك لأن المرأة في طبيعتها أضعف منه جلداً، وأقل كسبا، فوق ما تشغل به من الحمل والإرضاع.

فالمرأة وهي بنت لها النفقة على أبيها كاملة، فإذا تزوجت فنفقتها على زوجها ثم ابنها من بعد، فإن احتاجت ولا عائل لها فعلى بيت مال المسلمين.

أما أخوها فله الرعاية والنفقة إلى البلوغ قادراً على الكسب، فإذا تم له ذلك احتمل من واجبات الأسرة الشيء الكثير، فعليه نفقة أبيه وأمه إن احتاجا إليه، وعند تكوينه أسرته الخاصة يقدم الصداق لزوجته ملكاً خالصاً، ونحلة طيبة، ثم عليه نفقة زوجته وأبنائه، يعولهم ويقوم بأمرهم.

فإذا كانت المرأة لا تكلف نفقة في صغرها، ولا مالاً في قرانها، أو بيت زوجها، فما أخذته ميراثاً من أبيها، أو صداقاً من زوجها، فهو فوق حاجتها، ولعلها تدخره لبعض أيامها، أو تزيد به في استمتاعها، أو تضيفه طائعة مختارة لمال زوجها، بعد أن جعلت المودة والرحمة منهما غاية واحدة وهدفاً واحداً ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾[1].

ولعل إنساناً يرى في ذلك غضاضة على المرأة حيث تكون عالة على غيرها،

---

(١) سورة النساء: آية (٤).

بل لعل المرأة نفسها ترى فيه ما يخفض من أمرها، وعندي أن ذلك شعور المرأة التي نشزت على طبيعتها، وتمردت على فطرتها، فالمرأة إذ يغذوها أبوها صغيرة، تشارك في أعباء البيت وواجباته، بما يوفر الخير والراحة لآلها وذويها، وهي مع زوجها تنجب له وللحياة قرة أعين، وعماد ظهر، تغدق عليهم من دمها ولبنها وعافيتها ما يمنحهم الحياة والقوة والشباب، فوق ما ترعى له من بيته وماله.

* * *

عرضت سيدة من النساء القانونيات في مؤتمر تورنتو بإيطاليا لمندوبة مصر وكانت تشرح ما تتمتع به المرأة المسلمة من حقوق، وتذكر فيها تذكر الصداق يدفعه الرجل للمرأة عند رغبته الزواج بها، وقاطعتها قائلة: إن معنى ذلك أن الرجل يشتري المرأة بما يدفعه لها من صداق، فأجابتها مندوبة مصر[1]:.

إن ذلك على كل حال خير من أن تشتري المرأة الرجل عندما تدفع له «الدوطة». فإن وجدت امرأة تحس غضاضة في أن يدفع لها الرجل صداقاً من ماله يتودد إليها ويشعرها بحبه لها، وتوطينه النفس على البذل في سبيلها، كي تقبل مشاركته الحياة وانتقالها إلى بيته، فكم تحس هذه المرأة وسواها من أضعاف تلك الغضاضة، وهي تسعى إلى الرجل بنفسها، وتبذل له من مالها، وتغريه على قبولها، لتشاركه بيته وتنسلخ من لقبها لتفنى فيه، وتحمل بدلاً من لقبها لقبه.

ثم إن المال الموروث ليس هو كل ما يتمول، فكم من وارث أضاع، ومعدم ملك القصور والضياع، وهي لا تمنع التجارة، ولا استثمار المال إن شاءت.

هذا: ولو تخيلنا نظاماً آخر، ولم نلتزم ما شرع الله في كتابه الحكيم إذ يقول: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أو كنا من مذهب أولئك الأولى واللائي درسوا ودرسن «الإسلام في أرقى جامعات أوروبا»[2] وموّهْنا الأمور، ولبسنا الحق بالباطل فقلنا: إن الإسلام أعطى المرأة النصف في بيئة لا ترى لها شيئاً على سبيل التدرج، وهو بهذا لا يمنع المساواة الكاملة، لأن

---

(١) الأستاذة عطيات الخربوطلي المحامية، والبقية في فصل المرأة والحياة السياسية.

(٢) من كلام دكتورة صحفية كانت ترد على من جهلها بالإسلام.

الإنصاف غايته، لو تخيلنا ذلك القيل، أو تجاوز المتجاوزون تعاليم الإسلام في هذا الأمر فكيف نحدد العلاقة بين الرجل والمرأة؟ أنكلفهما تكليفاً واحداً، وإنفاقاً مساويا، وكسباً معادلاً؟ وهل تطيق المرأة ذلك وهي مشغولة الجسم والعقل بالبيت والأبناء؟ وهل يكون ذلك في صالح المرأة والرجل على السواء؟.

ألا إنها القشور تصرف عن اللباب، والتغرب يبعد عن الصواب، وقد كان في هدى الله الحكمة وفصل الخطاب، والآيات البينات لقوم يبصرون.

* * *

تعقيب:

ومن حق المرأة في الميراث نشير هنا إلى مسألة هامة، عرضت في سؤال على علماء المعهد الديني بطنطا: بخصوص:

ميراث من عمة لم تترك سوى أولاد أخيها من بنين وبنات، كان بعضهن بمنزلة بناتها في القيام بشئونها، فلما أحضرت محاميها لكتابة وصيتها، توفيت قبل إنجازها.

وكان الجواب المعروف حسب المذاهب الأربعة، باختصاص أبناء الأخ بالميراث، دون أخواتهم.

وكان أخذ ورد بين المستفتين ولجنة الفتوى، لفت النظر إلى وجوب البحث... ثم كان بحث استغرق أكثر من عامين، استبان فيه أن الإسلام لم يحرم قط أنثى ورث أخوها، وأن الحديث الواحد الذي اعتمدته المذاهب الأربعة، في منع بنت الأخ ونحوها مع شقيقها وهو:

«ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» والذي تفاوتت بعض رواياته، وذكره البخاري أربع مرات في أربعة أبواب من صحيحه ـ هذا الحديث موجه توجيهاً أقرب وأيسر، بما لا يمنعهن حقهن مع إخوتهن للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن هذا الحق ثابت لا شك فيه.

ونشر خلاصة ذلك بأدلته من مجلة الأزهر عامي ١٣٨٩ ـ ١٣٩٠ هـ تحت عنوان: قضية بنت الأخ والعمة وبنت العم في الميراث بقلم المؤلف، ولم يعترض حينذاك أحد من الباحثين فيما أعلم.

ثم تبينت بعد نشر البحث بسنين، أن مذهب طوائف من الشيعة يقول بما انتهى البحث إليه، حكمًا مسلمًا، لا خلاف عندهم فيه. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الشهادة:

أما الشهادة فقد جاء في القرآن الكريم، في شأن المعاملات المالية والمداينات بين الناس من سورة البقرة ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ (1).

وعلل ذلك بعض المفسرين، بأن النساء ناقصات عقل ودين، فلم تعتبر شهادتهن إلا لضرورة من عدم توافر شاهدين من الرجال، وقبلت مكملة لا مستقلة.

ويرد ذلك التعليل عالم جليل من المتأخرين ويقول: والسبب الصحيح أن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة. ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل. يعني أن من طبع البشر ذكراناً وإناثاً أن يقوي تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها ــ ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية، فإنه قليل لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء، وبالأصل فيها(2).

فهل ما رآه الشيخ محمد عبده وقرره في تفسيره رأى مجاملة على ما يزعم بعض الناس؟ وقبل أن أسوق الدليل على صحة ما ارتآه، وخطأ ما يخالفه، أحب أن ألفت النظر إلى أن شهادة الرجل في نظر الإسلام، لا تقبل إذا شابها ما يضعف الثقة بها، من قرابة قريبة، أو منفعة، أو عداوة، أو من نقص في

(1) سورة البقرة: من آية المداينة ٢٨٢.
(2) تفسير المنار في شرح هذه الآية جـ٣.

خلق الشاهد ومروءته، أو من غفلة تجوز عليه فيشتبه بها وجه الحق، وإن كان الشاهد في نفسه صالحاً، حتى إن قاضياً يقول: إن من أصحابي من أرجو بركته، ولا أجيز شهادته. بل لقد بلغ من التحوط في أمر الشهادة وإقامتها على وجهها، أن يرفض بعض القضاة شهادة الخليفة؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يطعن عليه إن كان ثمت مطعن.

وحيث كانت المرأة في الماليات غالباً ضعيفة الذاكرة، فلا بأس أن يطلب للشهادة سواها ممن يرضي عنه من الرجال. توثيقاً لهذه المعاملات، وصيانة للمرأة عن ميادين المنازعات والمخاصمات، فإن اضطر الحال إلى استشهادها، فلتكن شهادتها على النصف، تعويضاً لما يشوبها من ضعف، وإتيان صيغة المبالغة في التعبير القرآني ﴿واستشهدوا شهيدين...﴾ إيحاء بوجوب التوثق والاحتياط الذي يحتم اختيار الأكمل من الشهداء. أما هي فيما تحسنه، فشهادتها كاملة، نافذة على الرجال والنساء، وشهادة الرجل فيما يخص النساء ليست بذات موضوع، ولعل أعجب من ذلك أن تقبل شهادة المرأة الواحدة في القضية الهامة مما يتعلق بأعمالها، ولا نعلم شاهداً واحداً من الرجال يكفي إلا أن يكون معه شيء آخر يقويه كيمين صاحب الدعوى، والمرأة اعتبر النبي ﷺ شهادتها وحدها وقضى بها، ولم يكن حكمه خاصاً، ولا تحوطاً كما فهم البعض، بل كان عاماً وجازماً، ولذا استدل به فريق من الأئمة، وإن قالوا: بأن شهادة الثنتين أحوط.

روى البخاري في صحيحه تحت ترجمة: باب شهادة المرضعة بسنده عن عقبة بن الحارث قال: تزوجت امرأة فجاءتني امرأة سوداء فقالت: أرضعتكما، فأتيت النبي ﷺ فقلت: تزوجت فلانة بنت فلان، فجاءتنا امرأة سوداء فقالت لي: أرضعتكما وهي كاذبة، فأعرض (عنه) فأتيت من قبل وجهه، فقلت إنها كاذبة قال: كيف بها وقد زعمت أنها أرضعتكما ـ ففارقها عقبة ونكحت زوجاً غيره.

وترجم عليه الشوكاني في نيل الأوطار: باب شهادة المرأة الواحدة بالرضاع قال: وروى الحديث أحمد والبخاري، وذكر رواية أخرى وقال رواه الجماعة إلا مسلماً وابن ماجة، وناقش آراء العلماء وصحح العمل بشهادة الواحدة[1].

---

(١) جـ ٦ ص ٣١٩.

وفي حاشية ابن عابدين في نصاب الشهادة قال: والبكارة وعيوب النساء وما لا يطلع عليه الرجال، امرأة حرة مسلمة والثنتان أحوط[1].

فأين هو نقص العقل والدين في ذلك كله؟ أليس من حقنا إذا أن نرفض التعليل الذي ساقه بعض المفسرين غير آسفين، وهل هو إلا التحوط البالغ في قبول الشهادات، لما يترتب عليها من قضاء نافذ الأحكام بليغ الآثار؟ ومن هذا القبيل رد شهادة البادي على المقيم، لضعف خبرته في شئون الحاضرة، فقد نهى النبي ﷺ أن يشهد بدوي على حضري وفي رواية أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية. رواه أبو داود وابن ماجة[2]. قال في نيل الأوطار قال الخطابي يشبه أن يكون إنما كره شهادة أهل البدو لما فيهم من عدم العلم بإتيان الشهادة على وجهها، ولا يقيمونها على حقها، لقصور علمهم عما يغيرها عن وجهها، وكذلك قال أحمد. وبه قال مالك وأبو عبيد[3].

بقيت كلمة لعلها تحوك في صدر بعض الباحثين ذلك أن القول بنقص عقل المرأة والاستدلال عليه بأن شهادتها على النصف، ونقصان دينها لأنها تترك الصلاة والصيام أيام حيضها مروي عن النبي ﷺ فليس ذلك من عند المفسرين حتى نرده عليهم.

والجواب يسير، نعم قد ورد ذلك في الصحاح، وله شواهد تؤيده وتقويه فلا يجوز الطعن عليه، ولا إنكاره مسايرة لإسراف المسرفين، بيد أنه استعمل هنا كما يستعمل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الصلاة..﴾ أو ﴿ويل للمصلين﴾ جاء مقتطعاً من مكانه، مستعملاً في غير وجهه، فضعف المرأة في غير اختصاصها واقع لا شك فيه، وشهادتها إذا على النصف بنص القرآن الكريم، فهي قد نقصت في غير ميدانها، واكتملت في شئونها بأكثر مما اكتملت شهادة الرجل في

---

(١) جـ ٤ ص ٥١٤.

(٢) ابن رشد في مقدمته ـ الشهادة ص ٤٥٣.

(٣) جـ ٨ ص ٢٩.

ميدانه الذي تُقبلُ شهادته فيه، فكان ذلك نقصاً يعوضه كمال آخر، وكان تركها الصلاة والصيام في الحيض والنفاس نقصاً في أعمال الدين، لا تلام عليه ولا تؤاخذ فيه.

قالت عائشة: خرجت عام حجة الوداع، حتى كنت قريباً من مكة فحضت قالت: فدخل علي النبي ﷺ وأنا أبكي فقال: أنفست؟ يعني الحيضة قلت نعم: قال: إن هذا شيء كتبه الله على بنات حواء، فاقضي ما يقضى الحاج غير ألا تطوفي بالبيت حتى تطهري. فإذا جاء بعد ذلك نصيحة رسول الله ﷺ للنساء وأمره لهن بالصدقة والاستغفار، ونهيهن عن الشطط والإسراف، وتحذيرهن من فطرتهن، وما جبلت عليه النفوس من نزعات وأهواء، وما طبعت المرأة خاصة عليه من عاطفة غالبة جموح، فليس في النصيحة والتحذير انتقاص أو تحقير، بل ما هو إلا أن يسمعه النساء فيسألن عن سر ما خفي، ويستزدن من المعرفة، ويسترحن إلى التوجيه الكريم، ويبادرن إلى الصدقة والاستغفار.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلي فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني أريتكن أكثر أهل النار فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تُكثِرنَ اللعن وتكفـرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن؛ قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟ قلن بلى قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن بلى قال: فذلك من نقصان دينها ــ وفي رواية ابن عباس عنده. فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه. ذاك نقص فيها لا تحسنه، وهذا نقص في العمل، ولو كان نقصاً في حقيقة الدين، ونور اليقين، لكان المريض والمسافر بترك الصيام ناقصين في الدين، وكان الفقير يعجز عن الزكاة، والمريض عن الجهاد، كل منهما ناقص الدين، ولم يقل بذلك أحد من المسلمين.

وهل يعقل أن النبي ﷺ يفرق بين رجـل وزوجته ويهدم بيتاً قائماً بشاهد ناقص العقل ناقص الدين؟.

وقد جاء قول النبي ﷺ في وصيته للنساء وتحذيره لهن، كقوله لرجلين من الأنصار.. إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً فتهلكا، وكقوله: الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة، وكقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي[1] ــ إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مَسَّه الخير منوعا إلا المصلين[2] ــ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ــ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ــ إن الإنسان لظلوم كفار﴾ كل ذلك وأشباهه بيان لبعض الطبائع السوء، وتحذير من غوائلها، ولا يمنع ذلك من أن يكتب الله التكريم لأبناء آدم ويقول: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[3]. ويقرن الطيبات والمؤمنات بأخواتهن من الطيبين والمؤمنين، ويركم الخبيثات والمنافقات بأشباههن من الخبيثين والمنافقين؛ فيقول سبحانه: ﴿والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات ــ كما قال قبلها ــ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾[4] ويقول: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[5]. كما قال من قبل: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾[6]. فمن الغبن إذاً أن يسوق الرجل أمثال هذه التحذيرات والتنبيهات والوصايا في شأن المرأة مساق التهوين والتحقير، مقتطعة عن روحها ومساقها، ولو أنصف لأغناه ما يعلمه من نقص نفسه، عن الإساءة لصنوه وبنات جنسه.

---

(١) سورة يوسف: آية ٥٣.
(٢) سورة سأل سائل: آية ١٩ ــ ٢٠.
(٣) سورة الاسراء: آية ٧٠.
(٤) سورة النور: آية ٢٦.
(٥) سورة التوبة: آية ٧١.
(٦) سورة التوبة: آية ٦٦.

المرأة والحجاب

جاء في شأن الحجاب من سورة الأحزاب، بصدد الحديث عما يجب على المسلمين لبيوت النبي ﷺ ونسائه من التعظيم والتوقير والاجلال قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبيّ فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذلكم كان عند الله عظيمًا﴾[1].

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في السنة الخامسة للهجرة بعد بناء النبي بزينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد دعا إلى طعام فأكل القوم وانصرفوا، عدا ثلاثة جلسوا يتحدثون وطال بهم المقام، وفي بعض طرق الحديث يقول أنس: «وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، وزوج رسول الله التي دخل بها معهم، موليةً وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشدّ الناس حياء، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزاً، فقام رسول الله ﷺ فسلم على حُجره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر».

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٣.

ولم تكن زوجات النبي ﷺ قبل محجبات كما هو الشأن حينذاك، بل اشتركن فيما يشترك فيه سواهن من المؤمنات، فقد حضرت عائشة غزوة أحد، وحملت الماء وسقت الجرحى، وشمرت عن ساقها مع نسوة أخر، وكان بيت النبي مقصوداً من الجميع، يدخل المؤمن والمنافق عليه فيه، ولا بد من صيانة خاصة لحرمة هذا البيت المطهر، تجاه قالة السوء من مرضى القلوب والمرجفين، قطعاً لسيل الأذى من ألسنة المنافقين.

وكان عمر يشير بالحجاب ويلح فيه. أكل مرة طعاماً مع النبي وأكلت معهما عائشة، فأصابت أصبعه أصبع عائشة، فجذبه متأوهاً وقال: لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فلما نزل الحجاب قرت عينه وأعين المؤمنين، ويقول متحدثاً بنعمة الله، وافقت ربي في ثلاث، ويذكر منهن الحجاب.

وحجاب زوجات النبي إنما هو بالنسبة للأجانب من الرجال، أما من عدا هؤلاء فقد رفع سبحانه عن أمهات المؤمنين الجناح فيه، فقال إثر الآية السابقة ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن، ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن، واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾.

ومن تمام الحجاب لأمهات المؤمنين قوله تعالى مخاطباً نساء النبي: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد ليذهب عنكم الرجسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة...﴾[1].

فكن لبيوتهن ملازمات، لا يخرجن لغير ضرورة، روى مسلم عن عائشة قالت: خرجت سودة بعدما ضرب عليها الحجاب لتقضي حاجتها، وكانت امرأة جسيمة تفرع النساء جسمًا، لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقال: يا سودة والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

عرق. فدخلت فقالت: يا رسول الله إني خرجت فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن في حاجتكن[١].

كذلك نزل في اكتمال الصيانة لجميع النساء عند خروجهن لحاجتهن قوله تعالى: ﴿يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾[٢] وأنذر الباغين الذين يعرضون للمؤمنات بالأذى أن يسلط عليهم رسوله فيخرجهم أذلة فقال: «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً»[٣].

والحجاب على النحو السابق من وجوب القرار في البيوت، وإرخاء الستار بينهن وبين الآخرين، خاص بأمهات المؤمنين، فقد حرم عليهن الاختلاط بالأجانب، ومكالمتهن أو معاملتهن لهم إلا من وراء حجاب، ومن خرجت منهن للغزو حملت في هودجها.

نقل النووي في شرحه لمسلم عن القاضي عياض قوله: فَرْضُ الحجاب مما اختص به أزواج النبي ﷺ، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة، ولا غيرها ولا يجوز لهن إظهار شخوصهن وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه الضرورة من الخروج للبراز...

وبالنسبة لغيرهن فالواجب المفروض على المرأة الستر والتصون والاحتشام، فلا تظهر محاسنها وزينتها للأجانب، ولا تبدي من ذلك غير ما اعتيد كشفه من الوجه والكفين.

روى أبو داود في سننه عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على

---

(١) الجزء ١٤ ـ ص ١٥١.
(٢) سورة الأحزاب؛ آية ٥٩ ـ ٦٠.
(٣) جـ ١٤ ص ١٥١.

النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا ـ وأشار إلى وجهه وكفيه.

وللمسلمات أسوة حسنة بأمهات المؤمنين، ولكن لم يفرض عليهن الحجاب أو القرار في البيوت، كما فرض على زوجات الرسول، فكن يشاركن في الجمع والجماعات، والأعياد والغزو، محتشمات غير متبرجات.

* * *

وقد ظن قوم الحجاب عاما، وأوجبوا القرار في البيوت على النساء وقالوا: لئن أمر بذلك أمهات المؤمنين وهن في الذروة من الطهارة والصيانة والعفاف، فغيرهن أولى. ولا مشاحة في أن مملكة المرأة بيتها، وأنه أصون لها وأليق بها، ولكن الله سبحانه لم يوجب على سائر النساء ما أوجب على أمهات المؤمنين، ولم يجعل لغيرهن من الكرامة والمنزلة ما جعله لهن، ولم يحرم نكاح امرأة بعد زوجها كما حرم نكاحهن بعد النبي، فحرمة الرسول فوق كل حرمة، ولهن من ذلك شرف لا يعدله شرف، وتبعاتهن كفاء ذلك مضاعفة، فمن أساءت ضوعف لها العذاب، ومن أحسنت أوتيت مرتين من الثواب ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين، وأعتدنا لها رزقاً كريما﴾[(١)]. وتزيد الآيات معنى الخصوصية وضوحاً، وتبرزه تصريحاً في قوله تعالى: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء. . .﴾[(٢)].

فالحجاب كما هو ظاهر من الآيات خاص بأمهات المؤمنين.

روي أن أخت الأشعث بن قيس أو بنته تزوجها رسول الله ﷺ ومات قبل أن يدخل بها فقيل طلقها، وقيل أوصي بتخييرها ـ فتزوجت بعده عكرمة ابن أبي جهل بحضرموت، فشق ذلك على أبي بكر وأراد أن يرجمه، فقال له عمر:

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٠ ـ ٣١.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٣٢.

ما هي من أمهات المؤمنين، ولا دخل بها ولا ضرب عليها الحجاب، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها، فاطمأن أبو بكر وسكن[1].

وكان النبي ﷺ إذا خرج لغزو أو سفر أقرع بين نسائه، فمن خرج سهمها خرجت معه، وكانت بعد الحجاب تحمل في هودج لا يراها أحد، وغيرها من نساء المؤمنين يسقين ويداوين، وربما دعت الحال فباشرن القتال.

* * *

أما الآيات العامة في شأن المؤمنين والمؤمنات فهي آيات النور، وليس فيها على المؤمنات حجابٌ أو قرار في البيوت، إنما فيها العفة في القلوب والأبصار، والتصون والستر والاحتشام قال الله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، أو آبائهن. . . . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[2].

والخمار ثوب تغطي به رأسها، وتجعل بعضه على صدرها ونحرها.

عن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة، فذكرن نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش فضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل[3] فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ مُعْتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[4].

---

(١) رواه ابن الأثير في أسد الغابة من ترجمتها وابن كثير في تفسيره عن ابن جرير باختلاف يسير.

(٢) سورة النور آية ٣٠ ـ ٣١.

(٣) المرط المرحل: كساء من صوف أو خز فيه تصاوير ـ واعتجرت به لفته حول رأسها.

(٤) أورده ابن كثير في تفسيره من سورة النور، ورواه عن البخاري ـ وعن أبي داود.

وهذه الآداب العالية التي شرعها الاسلام، إنما هي صيانة للمرأة من العيون الشرهة؛ والقلوب المريضة، وحفظ لحيائها الحي أن يمس أو ينال، وليس ظن سوء بها، أو إهدارا لحريتها، بل قد صانها الإسلام أبلغ الصيانة عن أذى الألسنة، وحمى شرفها وعرضها من أفواه السفهاء والماجنين، فعد قذف المحصنات من الموبقات، وسلكه الرسول ﷺ مسلك الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، والتولي يوم الزحف. وسجل القرآن الكريم اللعنة في الدنيا والآخرة على قاذفي المحصنات، وأمر بجلدهم ثمانين، ورد شهادتهم، وإسقاط كرامتهم، لأنهم الفاسقون، وعند الله هم الكاذبون، فقال في مواضع من سورة النور ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا، وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ وقال: ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ وقال: ﴿إن الذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات لعنوا في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم﴾.

* * *

وعلى منهج الصيانة والرعاية لكرامة المرأة جاء النهي عن خلوة الأجنبي بها، ولو كان من أحمائها، كذلك النهي عن سفرها سفراً طويلاً بدون محرم أو رفقة مأمونة، حتى ولو كان ذلك للعبادة المفروضة. اكتتب رجل في الجهاد وكانت امرأته حاجة فأمره النبي ﷺ أن يذهب فيحج مع امرأته.

وإذا كان الدين يرشد إلى ذلك في حق المرأة صيانة ورعاية وحفظاً. فقد أرشد إلى مثله في حق الرجل، فأمره بغض بصره، فلا يتبع النظرة النظرة، وبحفظ فرجه، كذلك نهاه عن السفر الطويل وحده وحذره منه، فقال رسول الله ﷺ «الراكب شيطان والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب» رواه الحاكم وغيره.

هذا هو هدى الدين، يأمر المرأة بما يحفظ عليها دينها وشرفها وكرامتها، ويأمر الرجل بما يحفظ عليه دينه وشرفه وكرامته، لا تفريط في شيء من ذلك ولا إفراط، لا تهاون يجر الضياع، ولا تضييق يؤذي أو يغري بالتمرد والانطلاق.

الحجاب عند المسلمين:

تلك حقيقة الحجاب في الإسلام، أما الحجاب عند المسلمين فهو غيره في الإسلام، لقد كانت المعركة العلمية الدينية مشبوبة الأوار أوائل هذا القرن، حول كشف المرأة وجهها وكفيها، وجواز ذلك أو حرمته، وكان المسلمون يتشددون في ذلك ولا يترخصون، حتى ليقول كاتب ديني كالسيد رشيد رضا «وكل ما استحدثه المسلمون في المدن والقرى الكبيرة من المبالغة في حجب النساء فهو من باب سد الذريعة، لا من أصول الشريعة»[1] ويقول قاسم أمين بعد ذكره مغالاة الفرنج في التكشف إلى درجة يصعب معها الصيانة: «وقد تغالينا نحن في طلب التحجب، والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال، حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعاً من المقتنيات..»[2] ثم تبدل الحال غير الحال، فاحتجب الحجاب تماماً أو كاد، واحتجب معه الحياء وغاض، وغدت الشوارع مسارح لعرض الأزياء والألوان، وأضحت الشواطىء سوقاً للأجساد والأبدان، وصار ماكان يدعو إليه قاسم أمين من الحجاب الشرعي، وما كان يدافع عنه ويراه أصلاً من أصول الآداب، تحللاً وإباحية وشهوات، فلو امتد به زمن ليرى الآن ما نحن فيه، لتقطع قلبه أسى وحسرة، بل لانتفض انتفاضة المحموم، وهب ثانية ـ وكان مدرها لقضية المرأة في مستهل هذا القرن العشرين، ليكون مدرها لها كرة أخرى، فينادي قومه مخلصاً نداء النذير العريان[3]. أن صبّحكم مسّاكم.

لقد كان الأمر أولاً أمر حجب المرأة وحرمانها الحق الطبيعي الذي جعله الله لها، من العلم والنور لتحسن في نفسها، وتحسن تربية الأبناء، فصار الآن أمر الأمة كلها، بدت لها الهاوية فاغرة فاها بما انحدرت إليه الأخلاق والآداب، وحداة الضلال يهتفون: إلى الإمام، ضاعفوا الجهد، وأوسعوا الخطا، فشهوات

---

(١) في كتابه نداء إلى الجنس اللطيف في الحجاب ص ١١١.

(٢) في كتابه تحرير المرأة عند الكلام على الحجاب.

(٣) هو من يرى الأعداء فيتخفف من ثيابه مسرعاً إلى قومه ينذرهم الغارة على عادة بعض العرب.

الغرب سبيل محاذاته في العلياء، وأفانين أهوائه ومُتعه عنوان التقدم والارتقاء، وإذا حرم قوم الحياء فقل عليهم العفاء[1].

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا

ولا عاصم اليوم إلا من رحم الله، ولا حياة للأمة إلا بهذا الروح الذي أنزل الله رحمة وعصمة، ونوراً وهدى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[2].

واجب المسئولين:

وإذا كان حقا ـ وإنه لحق ـ إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فأحق الناس أن يكون وازعاً إلى الهدى، وحاجزا عن الردى، من آتاهم الله سلطاناً، ومكن لهم في الأرض، واستخلفهم فينظر كيف يصنعون.

إن عليهم حقاً مفروضاً، أن يعيدوا للدين مجده وعزه، فبه مجد الوطن وعزه، وبه جمع قلوب المواطنين على نهج سواء، وبه توافر عود الثقة بالحاكمين.

إن من مظاهر التوفيق والتأييد، أن يكون للحاكمين مستشارون من ذوي البصيرة في الدين، والبصر بصالح المسلمين، فإذا أراد الله بحاكم خيراً جعل وزراءه ومستشاريه صالحين، مخلصين وناصحين، إن نسى ذكروه، وإن ذكر على الخير أعانوه، وليكن ذلك من رأس الدولة إلى كل من يتولى سلطة عامة للمواطنين.

إن على المسئولين حقاً مفروضاً أن يستجيبوا لآمال المواطنين، في القضاء

(١) سيجيء هذا في موضعه من فصلي: المرأة والشواطىء والمرأة والأقلام المسمومة.

(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.

على كل دخيل في العقائد والأخلاق والآداب، قضاء مبرما يمحو كل أثر سيء من آثار الاستعمار والمستعمرين، وأن يصونوا الأمة والأسرة بصيانة الدين والخلق المتين، وأن يضربوا على أيدي المستهترين والعابثين.

«ولينصرن الله من ينصره» وعدا لا يتخلف.

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾.

المرأة والمسجد

عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» وعنه «إذا استأذنكم نساؤكم إلى المسجد فأذنوا لهن».

وعن عائشة، رضي الله عنها: «أعتَم رسول الله ﷺ بالعَتَمة حتى ناداه عمر نام النساء والصبيان، فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما ينتظرها أحدٌ غيركم من أهل الأرض ولا يُصلي يومئذ إلاّ بالمدينة».

وعن أبي قتادة الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مخافة أن أشق على أمه».

خرّج الحديثين الأولين الإمام مسلم في صحيحه، في باب خروج النساء إلى المساجد، في جملة روايات فوق العشرة.

وخرج الأخيرين الإمام البخاري في باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس، كما خرج عشرات من الأحاديث في هذا المعنى متفرقة في صحيحه، سنشير إلى بعضها في ثنايا البحث.

وروى مثل ذلك الإمام مالك في موطئه، وغير أولئك من الأئمة الأثبات رواة الحديث.

والدارس للسنة المطهرة في منابعها الأصيلة يرى المرأة على عهد رسول

الله ﷺ وعلى عهد خلفائه الراشدين لم تحرم نصيبها من المسجد. ولم تمنع من شهود الجماعة، والاستماع إلى المواعظ والتذكير والإرشاد.

بل لقد كان النبي ﷺ يعطيهن مزيداً من عنايته، فربما وجه إليهن موعظة خاصة بعد انتهائه من الموعظة العامة، نظراً لأنهن في آخر الصفوف.

فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ «أنه ﷺ خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع النساء، فوعظهن وأمرهن بالصدقة. فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه» وإنهن ليزددن رغبة في هذه المواعظ. ويكرهن التخلف عن الرجال في هذا المضمار، فيطلبن إلى رسول الله ﷺ أن يخصهن بيوم يتحدث إليهن فيه، نظراً لقلة اجتماعهن به، فيروي البخاري عن أبي سعيد قال: «قال النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن، وأمرهن».

وفي شهودها الجمعة خرج الإمام مسلم بسنده عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت: «لقد أخذت (ق والقرآن المجيد) من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر» ومثله عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان.

وهكذا كانت المرأة على عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تحضر الجمعة والجماعة ومشاهد الخير، وترجع إلى بيتها قريرة العين راضية النفس؛ عامرة القلب بالإيمان والتقي، فتحسن القيام بأمر بيتها والتبعل لزوجها، وتربية أبنائها، وقد علمت من أمر دينها ما علم الرجل، فكانت عونه وساعده.

بيد أن ذلك لم يفرض عليها لزاماً:

نظراً لما يستغرق المرأة أحياناً من عمل بيتها، ورعاية أبنائها، حتى لا تجد متسعاً من وقتها للتردد على المسجد في كل الصلوات، ولما ينالها كذلك من الحيض والنفاس، وهي لا تباشر الصلاة أثناءهما ولا تمكث في المسجد، فيسر الله لهن الأمر، ووكله إلى مشيئتهن، غير انه طلب ذلك طلباً أكيداً في صلاة العيدين، وأمر النساء أن يخرجن قاطبة يشهدن الخير ودعوة المسلمين، حتى من

لم تباشر الصلاة منهن لمانع شرعي، تشترك في التهليل والتكبير، وتسمع الوعظ والتذكير وتتفقه في الدين.

فقد روى البخاري ومسلم عن طاووس عن ابن عباس قال: «شهدت صلاة الفطر مع نبي الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب قال: فنزل نبي الله ﷺ كأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء ومعه بلال، فقال: يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً». فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال: أنتن على ذلك؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن. نعم يا نبي الله ــ لا يُدري حينئذ من هي ــ قال: فتصدقن، فبسط بلال ثوبه ثم قال: هلم فدى لكن أبي وأمي، فجعلن يلقين الفتخ[1] والخواتم في ثوب بلال».

ومن طريق عطاء قال: سمعت ابن عباس يقول: «أشهد على رسول الله ﷺ لصلى قبل الخطبة، قال ثم خطب فرأى أنه لم يسمع النساء، فأتاهن فذكرهن ووعظهن وأمرهن بالصدقة، وبلال قائل بثوبه، فجعلت المرأة تلقي الخاتم والخرص والشيء».

ويجيء في ختام رواية أخرى عن ابن جريج قلت لعطاء: «أحقاً على الإمام الآن أن يأتي النساء حين يفرغ فيذكرهن؟ قال: أي لعمري، إن ذلك لحق عليهم، وما لهم لا يفعلون ذلك» ومثله عند البخاري من رواية جابر.

وعنوان صحيح البخاري «باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى» وفيه روايات عن أم عطية، وعن ابن عباس، وعن جابر، ورواية أم عطية: «أمرنا أن نخرج الحيض يوم العيد وذوات الخدور فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم ويعتزل الحيض عن مصلاهن، قالت امرأة يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب، قال لتلبسها صاحبتها من جلبابها» وفي رواية أخرى تسأل امرأة أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها ثوب ألا تخرج؟ فقال: «لتلبسها صاحباتها

---

(١) الفتخ: الخواتيم العظام.

من جلبابها، ولتشهد الخير ودعوة المسلمين». والروايات كثيرة جداً لا سبيل هنا إلى إحصائها.

فهذا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى الناس كافة رجالاً ونساء بل إنساً وجناً لم يقبل أن تتخلف المرأة عن هذا اليوم المشهود، وتجلس في بيتها، ولو لم يكن لها ثوب يناسب الجماعة، أو كانت لا تباشر الصلاة، بل عليها الحضور تجدد إيمانها، وتقوي يقينها، وتفقه دينها، وتعرف واجباتها، وتبتهج كذلك بهذا العيد كما يبتهج الرجال، بما يعود بالخير عليها في روحها ودينها وجسمها.

كذلك شهدت المرأة المشاهد الأخرى الجامعة. كصلاتي الاستسقاء وكسوف الشمس، وروايات عائشة وجابر وأسماء في صلاة الكسوف نصت على وجود النساء، تقول أسماء: «وكان يتولاني الغشى من طول القيام والركوع حتى آخذ القربة من الماء فأصب على رأسي، وأنظر إلى المرأة أسن مني، وإلى المرأة أضعف مني».

هذا: وقد ظن بعض الباحثين أن حضور المرأة إلى المسجد كان في أول الإسلام أيام كان المسلمون قلة، وكانوا بحاجة إلى تكثير سوادهم، وقد رده المحققون، وقليل من النظر في أحاديث رسول الله ﷺ وعمل أصحابه يرده ويبطله، فعن ابن عباس انه قال: «إن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفاً فقالت: يا بني والله لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة. إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب». رواه البخاري، وفي رواية لها: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه، فصلى المغرب بالمرسلات، فما صلاها بعد، حتى لقي الله عز وجل وقول عائشة الآتي: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني اسرائيل، شاهد ببقاء الحكم وشهود النساء المسجد إلى ما بعد رسول الله ﷺ.

واعترضت امرأة عمر بن الخطاب وهو يخطب على المنبر، وكان يحث الناس على الاقتصاد في المهور، فقالت له: ليس ذلك إليك يا عمر، إن الله

تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً...﴾ فأعلن على منبره صواب رأي المرأة. وكان ــ رضي الله عنه ــ وقافاً عند حدود الله[1].

فهذا وغيـره كثير قاطع بان المرأة كانت تشهد المسجد للصلاة في عهد رسول الله ﷺ وبعده، وأن الإذن كان عاماً.

ومع ذلك فترى بعضاً من الأئمة رحمهم الله، يعقدون الفصول والأبواب في ترغيب النساء في الصلاة في البيوت ولزومها، وترهيبهن من الخروج منها. ويعتمدون في ذلك على أحاديث شريفة هي عند التدقيق لا ترد هذا الحكم العام الذي استفاضت به أحاديث الصحاح، هذا ونحن نعلم أن البحث في الأحاديث النبوية في حاجة إلى تدبر وروية، ومعرفة، بظروفها ومن يخاطب بها، وأسانيدها وتعميمها وتخصيصها.

عقد الإمام المنذري المتوفي سنة ٦٠٦ في كتابه الترغيب والترهيب فصلاً بعنوان[2]:

«ترغيب النساء في الصلاة في بيوتهن ولزومها، وترهيبهن من الخروج» ويسوق ثمانية أحاديث:

١ ــ عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي ــ رضي الله عنه ــ انها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك قال: قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتـك في بيتك خير من صلاتـك في حجرتك[3] وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي هذا، قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه وكانت تصلي فيه، حتى لقيت الله عز وجل. رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد، ومن طرق أخرى.
(٢) جـ ١، ص ١٣٤.
(٣) المراد بالبيت: المكان الخاص من المنزل وهو أعظم ستراً من الحجرة العامة، ومن رحبة الدار.

٢ ـ وعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «خير مساجد النساء قعر بيوتهن» رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفي أسناده ابن أبي لهيعة، ورواه غيرهما.

٣ ـ وعنها قال رسول الله ﷺ: «صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في حجرتها... إلى آخره، رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد.

٤ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن»، والأربعة الباقية إثنان منها بمعنى ما سبق، وآخران في التحذير من الخروج خشية الفتنة.

وليس في ذلك ما يدفع الأحاديث الجامعة العامة الكثيرة، وهذه فوق نزولها عن تلك في درجتها فالتخصيص في الحديث الأول وهو أهمها ظاهر، والنبي ﷺ طبيب يداوي كل مريض بدوائه اللائق به.

والخيرية في البيوت المذكورة في بعض الطرق لا تمنع الإباحة في المساجد. والإمام المنذري نفسه يعقد فصلاً آخر من نفس الجزء بعنوان: «الترهيب من تأخر الرجال لآخر صفوفهم، وتقدم النساء إلى أوائل صفوفهن»[1].

ذلك أن السنة أن يتقدم الإمام، ويليه الرجال صفوفاً ثم الصبيان ثم صفوف النساء خلف ذلك، ويُرْوِي عن أبي هريرة قوله قال رسول الله ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها». رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. وعلق النووي عليه في شرح مسلم بقوله: والمراد بشر الصفوف في الرجال والنساء أقلها ثواباً وفضلاً، وأبعدها من مطلوب الشرع، وخيرها بعكسه، وإنما فُضِّل آخر صفوف النساء الحاضرات مع الرجال، لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم، وتعلق القلب بهم عند رؤية حركاتهم، وسماع كلامهم، ويقول: أما إذا صَلين متميزاتٍ لا مَعَ الرجال فهن كالرجال، خير صفوفهن أولها، وشرها آخرها.

---

(١) ص ١٧٦، جـ.

وأما الفتنة:

في خروج النساء فلم يكن النبي ﷺ ليُغفلها، وهو يقرأ فيما أنزل عليه: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين...﴾ ويقول في حديثه ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء[1].

لقد نهى النبي ﷺ المرأة إذا أرادت المسجد عن الزينة والطيب، وأمَرها بضرب خمارها على صدرها ونحرها.

روى مسلم بسنده عن زينب امرأة عبد الله قالت قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً» وروي عن أبي هريرة: «أيمًّا امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة» ونحو ذلك رواه الإمام مالك في، موطئه في باب خروج النساء إلى المساجد.

وفي حديث عائشة المتقدم[2]: «وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور». ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلاّ قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤ وسهن الغربان، وهكذا كان النسوة من أصحاب رسول الله ﷺ يبالغن في الستر تأدباً بآداب الدين، وتباعداً عن دسائس الشر من خطرات قلوب المنافقين، فإذا خرجن خرجن محتشمات، وإذا صلين في المسجد صلين خلف الرجال معتزلات، فإذا قضين الفريضة انصرفن تَوًّا إلى بيوتهن.

وتقول عائشة فيما يروي البخاري: لقد كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات في مروطهن، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد.

---

(١) البخاري عن أسامة.

(٢) فصل المرأة والحجاب.

والنبي ﷺ يعمد إلى التيسير على النساء في الانصراف، وحياطتهن من زحمة بعض الرجال، فيتعمد المكث ريثما ينصرفن. خرج البخاري عن أم سلمة أن النساء كُنّ إذا سلمن من المكتوبة قمن وثبت رسول الله ﷺ ومن صلى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال. هذا هو هدى الله الذي أنزله فبلغه وعمل به وحمل المؤمنين عليه. وبه كفلت الشريعة الغراء للأمة أن يسير أبناؤها رجالاً ونساء على نور من الله، وفقه في الدين، ومعرفة بالحياة والإسلام، يعلم كل فرد ما عليه من واجبات وما له من حقوق، ويقوم بها كاملة غير منقوصة، فتحيا الأمة حياة عزيزة قوية سعيدة.

هذا هو هدى الدين في صلاح هذه الأمة. تحضر المرأة الجمعة والجماعة ومشاهد الخير، في عفة وأدب واحتشام، لتهتدي بنور الله، وتفقه دين الله، درج عليه المسلمون زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

ومع هذا: فقد غلبت الحيطة قوماً صالحين، فرغبوا في منع المرأة المسجد، وأملى عليهم ذلك تغير الحال عما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ ورأينا الإمام البخاري رحمه الله يروي سنة النبي الأمين في خروج المرأة إلى المسجد ثم يُعقب بقول السيدة عائشة، رضي الله عنها:

«لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني اسرائيل، ومثل هذا الصنيع عمل الإمام مسلم رحمه الله بعد ذكر أبواب ثلاثة، عرضت لصلاة النساء بالمسجد، وتسوية صفوفهن، وعدم رفع رؤوسهن حتى يرفع الرجال، والإذن لهن وعدم التطيب. . .

وروي عن عمرة بنت عبد الرحمن انها سمعت عائشة تقول: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل[١] ويقول النووي في شرحه ما أحدث النساء يعني من الزينة والطيب وحسن الثياب.

وهاك حفيد عمر بن الخطاب بلالاً يسمع أباه عبد الله يقول: سمعت

(١) كل ذلك بالجزء الرابع. وشرح النووي.

رسول الله ﷺ يقول: لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم إليها فيقول والله لنمنعهن، فيسبه سباً شديداً، ويقول أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول والله لنمنعهن، وفي رواية يقول: إذا يتخذنه دَغَلاً فضربه أبوه في صدره وقال بمثل ما سبق.

هذه هي الغيرة، دفعت الرجل حتى خرج عن حد الاعتدال. والغيرة وإن كانت محمودة مرغوبة شرعاً، إلا أن ضبطها بحدود الدين هو ما أمر به النبي ﷺ.

ولقد كان عمر لشدة غيرته يكره أحياناً أن تخرج امرأته. روى الإمام مالك في موطئه عن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل امرأة عمر، انها كانت تستأذنه إلى المسجد فيسكت، فتقول والله لأخرجن إلاّ أن تمنعني فلا يمنعها.

وذكر الحافظ بن حجر في ترجمتها من كتابه الإصابة جـ٨، انها تزوجت عمر بعد أن شرطت عليه ألاّ يضربها.. ولا يمنعها من الصلاة في المسجد النبوي، ثم تزوجت الزبير بعد عمر، وشرطت عليه ذلك، فتحيل الزبير عليها، بأن كمن لها لما خرجت إلى صلاة العشاء، فلما مرت به ضرب على عجيزتها، فلما رجعت قالت: «إنّا لله فسد الناس فلم تخرج بعد.

هذه هي الغيرة تدفعهم إلى منع النساء من المساجد، وكنّ على جانب كبير من الفقه يشار كن به الرجال، ويسألن عن الدين، ما يمنعهن الحياء أن يتفقهن فيه، ولقد بلغ من غيرة رجل كعمر أن عرفها له رسول الله ﷺ أكبر المعرفة. حدث البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته فوليت مدبراً، وفي رواية أخرى فأردت أن أدخله، فلم يمنعني إلاّ علمي بغيرتك. قال عمر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي يا نبي الله أو عليك أغار؟ وفي بعضها فبكى عمر وقال ما قال.

فإذا كان قد بدأ من جانب فريق من الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ كراهة لخروج النساء إلى المساجد كما كن على عهد رسول الله ﷺ، ورغبوا منعهن، فذاك اجتهاد خاص لا يغير من شرع الله ودينه الحكيم.

قال الشوكاني في نيل الأوطار[1] وقد تمسك بعضهم في منع النساء من المساجد مطلقاً بقول عائشة. وفيه نظر لأنها علّقته على شرط لم يوجد في زمانه ﷺ، بل قالت ذلك بناء على ظن ظنته فقالت: لو رأى لمنع، فيقال عليه لم ير ولم يمنع، وظنها ليس بحجة أ هـ وأقول: ما حذرته عائشة ــ رضي الله عنها ــ مما تغالى النساء فيه عالجه الرسول ﷺ ومنعه فقال: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً» ونهى عن الزينة والتعطر وكل ما يثير شهوة أو ريبة، وبقي الحكم نفسه وحق المرأة في المسجد قائمًا، فالوحي لم ينزل لزمن فينقضي بانقضائه، والنبي ﷺ لا ينطق بأمر نفسه ولا عن مجرد رؤيته وعلمه، إنما هو مبلغ لهدى ربه علام الغيوب، ولو شاء ربك منعهن المسجد لفعل، ولم يترك الحكم ليشرعه بعد النبي إنسان.

إصلاح الأمة بالرجوع إلى الهدى النبوي:

وإلى هنا وقد أسفر وجه الحق عن صبح أبلج لا ظلمة فيه، فلا مناص لنا من الرجوع إلى السنة المطهرة، والهدى النبوي الأول في شأن النساء وشهودهن المسجد، إذا أردنا لهذه الأمة صلاحاً واستقامة، وتربية دينية سليمة تكون روحها، وعماد نهوضها في العهد الجديد.

ومن رأيي مهما حاولنا النهوض بالمرأة وترقية شؤونها، وتهذيبها وتثقيفها وتعليمها الدين، من غير أن يكون لها حظها من المسجد والجمعة والجماعة ومشاهد الخير، فسيظل مكان هذه التربية الدينية العلمية من قلب المرأة شاغراً، لا يغني عنه غيره بحال.

لا بد للمرأة من المسجد، تنال حظها الكامل من طهارته وقدسيته وروحانيته، تؤدي الشعائر فيه إن شاءت بالليل أو بالنهار، وتعمر قلبها بنور الله، وتسمع الوعظ والإرشاد، وتحفظ من ذلك ما يحفظ الرجل، ولسنا بحاجة فيما أظن إلى الاطناب في أثر التدين في حياة المرأة، وقوة استعدادها له، وما يكون له من

(١) ج ٣، ص ١٣٢.

بليغ الآثار في سلوكها وحياتها وواجباتها، والقيام بشؤون بيتها، وصيانة نفسها ومال زوجها ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾.

* * *

ولعل قارئاً عجلان يقول:

أتريد لهذا المكان المقدس الذي تنزه عن الشهوات والنزوات، وصين من المفاسد والمنكرات، وحفظت له قدسيته على مر القرون والأجيال، أن يُشاب بشوب الاختلاط، وأن يصيب روحانيته ما أصاب غيره من كل مكان سواه؟ لقد اقتحمت المرأة كل ميدان، وولجت كل مكان، ولم يبق إلّا هذا الحصن المكين موئلاً للرجل وملاذاً، وكعبة ومعاذاً، فحاشاك أن تبيحه للمرأة فتحرم الرجل حصنه الوحيد.

هذا كلام يقال، ولكني سائل سؤالاً، أبهذا الذي كان من منع المرأة المسجد، وحرمانها منه صلح أمر الرجل، وحسن حاله، ورضع لبان الاستقامة؟

هل أقبل على المسجد يزكي روحه، ويطهر قلبه، ويتفقه في دينه، ويأخذ نفسه بآدابه وتعاليمه وإرشاداته، ويلقن آله وذويه فضائله، وينشيء بنيه عليه، فصلحت بذلك الأسرة ومن ورائها المجتمع؟ ثم سؤال آخر: أهذا اقتراح أقدمه أناقش فيه، أم هو دين الله الذي أنزله لعباده هدى ورحمة؟.

إن الإسلام لم يخص الرجل بعنايته واهتمامه، أو بره وإكرامه، بل انه راعي المرأة كما راعاه، وأولاها من العناية ما أولاه، وربما أضفى عليها مزيداً من حمايته وبره، فأجاب المسترشد عن أولى الناس بحسن صحابته[1] وأوصاه بأبيه بعد أن أوصاه ثلاثاً بوالدته.

وشرع لها من العبادات ما شرع للرجل طهارة وتزكية، وجعل لها نصيباً من المسجد تجدد روحها، وتزكي وجدانها، وتقوي يقينها.

ومهما تكن الأسباب التي حدت بالمسلمين إلى حرمان نسائهم من بيوت الله، فضرورة الإصلاح قاضية بوجوب الرجوع إلى سنة الدين، وهدى النبي

---

(١) الصحابة هنا والصحبة بمعنى واحد.

الكريم. المرأة الآن سافرة لا تحتجب، تخرج للعلم والتعليم، وللتجارة والصناعة والمهن العامة، وتخرج لقضاء حاجاتها، ولزيارة جاراتها وصديقاتها، وللرياضة والنزهة، بل (للسينمات)، والحفلات والشواطىء (والبلاجات)، ولم يعد هناك من مكان لا تتردد عليه سوى بيت الله، وهي في كل ذلك قلما تجد من حولها ما يعينها على إصلاح أمرها، وتقويم أودها، ويبصرها بواجبها، ويرسم أمامها المثل الأعلى لتكميل نفسها وتربية أبنائها.

تعلمت الفتاة تعلمًا مدنياً بعيدة عن دينها، فلم يصلح ذلك كثيراً من حالها، حتى رأينا زميلها الفتى أحياناً يؤثر الجاهلة عليها، لما يعلمه من أمر نفسه وأمرها، وتكشفت في الشوارع والأسواق والمنتديات والشواطىء، ولم تستقبح ذلك لنفسها، لأنها لا تجد من يستقبحه، بل هي في كل يوم تستزيد منه وتفتن فيه، لأنها ترى أثر ذلك استحساناً وظمأ في العيون الشرهة الطامحة، وقلما تسمع كلمة واحدة تقبح ذلك، لأنها لا ترد أماكن الفضيلة، ولا مواطن التربية والتهذيب.

كم نسمع الوعاظ والخطباء يتحدثون إلى الناس، بالبليغ من القول والقارص من اللوم، في شأن السفور والعري الحاصل من النساء، ولكنا لا نرى لذلك أثراً، اللهم إلّا تزايداً ومغالاة في ذلك العري وهذا السفور، فلو جاءت المرأة المسجد وسمعت الوعظ والإرشاد، وفقهت دينها وعلمت الحلال والحرام، وتربي ذوقها تربية دينية؛ وأساغت ما أساغ الدين، واستقبحت ما استقبح الدين، لكان لنا منهن نماذج صالحات، وقدوة حسنة يقاومن بسيرتهن وسلوكهن وحشمتهن، ما يجري إليه المجتمع سريعاً من التقليد المسرف في التبذل والاستهتار.

وإذا كنا نعلم الرجل واجبه نحو أسرته وزوجته، فكيف نعلم الزوجة واجبها نحو زوجها وبيتها؟ هل يعلمها الزوج؟ وإذا كان الزوج جاهلاً فمن يعلمها؟ أيعلمها المذياع؟ وهل عند الجميع مذياع، وهل يغني المذياع في كلماته القصار، وجوه المعروف عن الإشراق الروحي العظيم في بيت الله؟ ألا فليتجه المصلحون هذه الوجهة الصحيحة، التي تؤتي ثمراتها الطيبة بأقل جهد، وأقوم

سبيل، وليذكروا كم بين الإصلاح عن طريق الجمعيات النسوية التي تضم من الأفراد العشرات، وإن تتابع نجاحها ضمت المئات والألوف مع باهظ النفقات وشاق الجهود، وبين الإصلاح عن طريق المسجد الذي ينتظم (الملايين)، ولا يكلف من النفقات (الملايين) أو ما دون (الملايين).

إن هذا الدرس الأسبوعي، درس الجمعة الذي وضعه الله ذلك الوضع العجيب، وفرض فيه الجماعة، وأوجب أن يكون بالمسجد، وشرع له الطهارة والخطبة، لو أحسن المسلمون الانتفاع به والقيام عليه، وأدوه خير الأداء، واختير له أقدر الناس عليه وأكفؤهم له من كبار علماء الأزهر، وأفاضل المشتغلين بقضايا الدين، لكان للمسلمين المدد الروحي الذي لا ينفد، والنور الذي يضيء لهم سبل الحياة. ولأمكن محو الأمية العقلية والروحية من المسلمين، رجالهم ونسائهم بأقوم طريق، وأوضح منهج، وأهدى سبيل.

* * *

وإذا كنا ننادي بوجوب الرجوع إلى هدى الدين، وأخذ المرأة حظها من المسجد والوعظ والإرشاد، فليس معنى ذلك أننا نطلب بأن تزحمه وتأخذ مكان الرجل فيه، وكثير من المساجد يضيق بالمصلين، ولكن على المسلمين ــ حقاً واجباً ــ أن ينشئوا من المساجد ما يكفي لإقامة شعائر الدين، وبعض المساجد الحاضرة فيه سعة، وبعضها فيه جوانب يمكن حجزها للنساء، وكلها تتسع لدروس الوعظ والإرشاد في غير أوقات الصلاة، وعلى المسلمين أن يراعوا ذلك فيما يجدّ من مساجد، وأن يتوسعوا في دروس الدين للسيدات، تلقي من الوعاظ والواعظات.

بهذا لا بغيره نكون قد أدينا واجباً هاماً في سبيل المرأة المسلمة، والأسرة المسلمة، والأمة المسلمة، ويكون ذلك أول الطريق في عهدنا الحديث لنهضة حقيقية شاملة. وهذا نفسه هو منهج الدين في سماحته ورجاحته وتعليمه وتهذيبه حينما أخذ ــ ويأخذ ــ بيد الرجل والمرأة على السواء، فأقام منهما مجتمعه الأول سليمًا قوياً فاضلاً، شاده على العلم والعمل، وبناه على العفاف والطهر، وأسسه على تقوى من الله ورضوان، فانطلقت قواه من عقلها، ماضية في طريقها المقدور، موفقة إلى غاياتها البعيدة، ومُثُلها العليا، وكان من ذلك خير أمة

أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم﴾[1] صدق الله العظيم.

---

(١) سورة التوبة: آية ٧١.

المرأة والأزهر

رأينا في الفصل السابق أن حق المرأة في المسجد ثابت لا شك فيه، وأنه شرع الله وهداه، وأنه السبيل الذي لن يغني غناءه سواه في تقويم المرأة وتهذيبها، وصلاح دينها وخلقها، وإعدادها لتكون أماً فاضلة، تؤدي واجبها خير أداء وأكمله، وتنشىء جيلاً سليمًا قوياً، يعرف للوطن حقه، ويعيد له مجده، ويبني لأمته فيشيد البناء.

ومهما كانت الأسباب التي دعت المسلمين إلى حرمان النساء من روحانية المسجد وتقاه، فقد وجب الآن العودة إلى الهدى النبوى الذي تربي عليه الصحابة جميعاً، رجالهم ونساؤهم وأبناؤهم، حتى تخرجوا من مدرسة النبوة وفي بيت الله رسل العناية الإلهية، ينشرون العلم والنور حيثما ساروا، ويقيمون الخير والهدى أينما حلوا.

لقد علمت المرأة في إبان الدعوة الإسلامية من أمر دينها ما يعلم الرجل، وحضرت منهن من شاءت الجمعة والجماعة، وخرجن كلهن في العيد، وطلبن المزيد تعويضاً مما يتلقاه الرجال بدوام سماعهن من الرسول، حيث قلن، لقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً يلقاهن فيه بالتعليم والإرشاد، وقد أصبن من العلم والفقه والرواية الشيء الكثير، وحملن السنة النبوية والأحكام الدينية كما حملها الرجال، وتلقاها الرجال عنهن، كما تلقين عن الرجال، وكتب السنة زاخرة بمروياتهن، لم يُفرق في ذلك بين رجل وامرأة ــ بل لم تكن ثقافة المرأة مقصورة على رواية الحديث، والتفقة في الدين،

فقد علمت الشعر والأدب والتاريخ، وما استطاعت علمه آنذاك ــ وعائشة وهي من أعلم الصحابة بالدين، كانت في رواية الشعر والأدب إحدى الأعاجيب، وكان منهن المحدثات والمفتيات والخطيبات، وتتلمذ عليهن كثير من الأئمة.

والآن بلغت المرأة المستنيرة في العلوم المدنية المدى البعيد، وتلقت ثقافة واسعة، غير مكتفية بما يتصل برسالتها، ويتعلق بأعبائها وأمومتها، وشاركت في ميادين العلم وفروعه المختلفة، غير نوع واحد من التعليم حُرمته، وكانت له أوفق وكان بها أليق، ذلك هو العلم الديني في الأزهر، والتربية الروحية في المسجد، ولم يكن عجباً حينئذ أن نتقدم في ميادين العلم والمعرفة، ونفلس في مجال الأخلاق والتربية، وتزخر مشكلاتنا في الأسرة، وتكثر في المجتمع كثرة تزلزل كيانه، وتوهن بنيانه، وتفت في أعضاده، وما ذلك إلا لغلبة الأمية الدينية، والفقر الروحي في الرجل والمرأة على السواء.

إننا نطلب في صدق وإخلاص فتح أبواب الأزهر للفتاة، تأخذ حظها من العلم الديني، ويستنير قلبها بالهدى النبوي، ويشرق عقلها بنور الإسلام، فتعيد لنا مجد المسلمات في العصر الأول. وتصل من تاريخنا ما انقطع، وترفع من حاضرنا ما اتضع.

وإنه ليسرنا حقاً أن يرى هذا الرأي كثيرون. ويدعو إليه داعون عن إيمان واقتناع ــ بل لقد أخذ المسئولون بالأزهر يبحثونه حينا، واقتنعوا به ووعدوا بالعمل على تنفيذه[١]، وكان شأنه شأن غيره من نواحي الإصلاح الأزهرية، فكثيراً ما تنام في المكاتب إلى أجل غير محدود، حتى يبعث الله من يبعثها من رقادها، ويوقظها من سباتها، لتأخذ طريقها إلى عالم الأحياء.

ألا إنه لا سبيل إلى خلق البيت الصالح، وتكوين المجتمع الصالح، بدون المرأة الصالحة. ولا سبيل إلى إصلاحها إصلاحاً حقيقياً شاملا ما لم يكن لها حظها من المسجد، ونصيبها من الأزهر.

---

(١) وكان ذلك في عهد مشيخة المرحوم الشيخ مأمون الشناوي للأزهر ــ على ما أذكر.

إن صلاح فتاة واحدة صلاح لأسرة كاملة، ولما يتفرع عنها من أسر، عدا ما تشعه من أضواء الصلاح على المخالطين والمقاربين من الأهل والجيران.

إن عشرات من السيدات الفضليات يتربين تربية دينية، ويدرسن دراسة إسلامية، ويتفقهن في الدين، وتسمو به أرواحهن، وتطهر قلوبهن، أفعل في نفوس النساء بالقدوة الصالحة، والأسوة الحسنة، والنموذج الحي، من ألوف الدعاة من الرجال ــ وليس من شك في أن المرأة، أخبر بنفسها، وأعلم ببنات جنسها، وأهدى إلى عقولهن، وأصرح في مخاطبتهن، لقد كانت المرأة المسلمة تسأل رسول الله ﷺ عن الدقائق من خصائص المرأة ثم لا تقنع منه بالجواب المجمل، فيعرض عنها حياء، وتجذبها عائشة وتشرح لها ما أراد الرسول بأصرح مما يقول ــ فقد روى مسلم وغيره عن عائشة أن امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل ثم تأخذ فرصة من مسك ــ أي قطعة من قطن ونحوه مطيبة بالمسك ــ فتطهر بها، قالت: كيف أتطهر؟ قال سبحان الله، تطهري بها، وأعرض عنها حياء ــ قالت عائشة واجتذبتها إلي ــ وعرفت ما أراد ــ فقلت تتبعي بها أثر الدم.

بل لعل من اليسير أن تلج المرشدة البيت على أخواتها المؤمنات لتعظهن، وترشدهن إلى ما فيه خيرهن وسعادتهن، وتنهاهن عن تجاوز حدود الدين، حيث لا يستطيع ذلك واحد من الرجال ــ ولئن كانت الأخلاق تقبس من الأخلاق فإن صلاح المرأة رهن بوجود هذه المثل العليا من المرشدات، فتحذو المرأة حذوها، وتسمع لها، وتأخذ عنها، ولن تقتدي المرأة برجل الأزهر، ولن تأخذ عنه، بل أين ومتى تسمع منه؟ أفي المذياع وهل يتوفر للجميع، أو يتوفر لسماعه الجميع؟ أم في بيوتهن؟ والبيوت غالباً بين جهل فادح، أو علم لا يتصل بالدين، وقل من أتيحت لها بيئة دينية، وأقل منها من انتفعت بتلك البيئة؛ وتلقت التوجيه الصحيح.

إن المجتمع الآن تصهره عوامل شديدة الخطر، بعيدة الأثر، من التقليد الغربي ودور الخيالة، والصحف الرخيصة؛ والمجلات المبتذلة الخليعة، والحفلات الماجنة، والأغاني الإذاعية التي لا تمل الحب والحبيب أبداً، والعرى

الفاضح في الشواطىء مما يدفع المجتمع في قفاه دفعاً إلى مهوى سحيق من التحلل والإباحية، وطبيعي أن تنهج المرأة الشرقية نهج الغربية، ما دام علمها وقدوتها وافدة عليها من الغرب، وما دام قد ضرب بينها وبين الأزهر بسور له باب.

إن على المتثائبين طويلاً من دعاة الإصلاح. وعلى أولئك الذين اعتادوا أن يقنعوا أنفسهم بأنهم من دعاة الإصلاح، أن يفتحوا عيونهم في هذا المجال ليروا إلى أي مصير نحن صائرون.

إن هذه الموجة العاتية الآن، تدفع أمامها الكثير من تقاليد الصيانة والاحتشام، وتكتسح في طريقها الآثار الباقية من آداب الإسلام، في بيئات ما زالت تعد من المحافظين، وما ذلك إلا بوقوفنا الموقف السلبي من الإصلاح، فنكتفي بالقول والبيان، حيث يأخذ سبيله إلى عالم النسيان، وقد ينتابنا التأثر والحماس الشديد إلى حد الصراخ والبكاء، ثم يكون بكاؤنا صرخة في واد، ونفخة في رماد، لأننا لم نحاول الإصلاح جادين، ولم نسلك من طرقه ما يقطع السبيل على إخوان الشياطين.

إن السيدة المحافظة التي حبست في البيت فلا تنال من الأزهر علماً، ولا من المسجد زاداً، ستظل تحسب نفسها دون جارتها المترددة على (السينما) والخارجة إلى الحديقة، والمتزينة في الشارع، والمصيفة على الشاطىء. إلا أن تكون فوق أهواء البشر، ونزعات النفوس. فلو خرجت الخارجة إلى (السينما) وذهبت المحافظة إلى المسجد، وبرزت المتكشفة إلى الشواطىء، وسعت المحتشمة إلى الدرس، وجالت المتغربة في الطرقات، وحضرت المؤمنة الصلاة، فستشعر من عزة التدين، وترفع الاحتشام، وعظمة الأدب، بما يزدري التبرج والتكشف والانحلال.

إن في المجتمع قلة من السيدات المجاهدات الداعيات إلى الله، يقاومن التيارات الغربية، والسموم الأجنبية، والمخازي المجلوبة، فهل من الإخلاص لديننا ووطننا وقوميتنا أن ندعهن في الميدان بوسائلهن الضعيفة المحدودة، ونقف من جهودهن المشكورة متفرجين، مغتبطين أو لاهين؟ أليس واجبنا رعاية هذه

الروح العالية بتربية جيل من الفتيات تربية إسلامية، يتفقهن في الدين، وتختلط علومه وآدابه بقلوبهن ودمائهن، فيعدن لنا سيرة المؤمنات الصالحات في أسلافنا الصالحين؟ أليس واجب الأزهر إنشاء عدد من المعاهد الدينية للفتيات يشرف عليهن منذ نعومة أظفارهن، ويلقنهن من علوم الدين، ومعارف الحياة الكاملة ما يجعلهن أمثلة عليا للمرأة المسلمة التي تنشىء البيت المسلم، وتكون خير قدوة لآلها وذويها. ذلك الذي نرجو أن يكون، وبأسرع ما يكون.

هذا ولعل من دواعي الارتياح، أن نختم هذا الفصل بكلمة لعضو بارز من جماعة كبار العلماء[1] تحت عنوان «فتياتنا في الأزهر» تصلح أن تكون منهج الدراسة في معاهد البنات الأزهرية إذ يقول:

«علموهن الدين في بساطته وسهولته ويسره، كما كان في الصدر الأول، وأعفوهن من التفريعات الكثيرة والقواعد الاصطلاحية، وجنبوهن التعقيد الفلسفي والآراء الجدلية... فإن ذلك لا يلائم طبيعتهن، ولا يساير شيمتهن. افرضوا ما شئتم على الفتيات من الصيانة، وحوطهن بما ترون من الرعاية، واجعلوا هذا التعليم خاصاً بهن لا يختلطن فيه بالفتيان، ولكن لا تحرموهن الدين، وتقوية اليقين»[*].

---

(١) فضيلة الشيخ محمد عرفة: والمقال منشور بهلال يناير، سنة ١٩٥٥.

(*) قرأنا بعد ذلك رسالة لطيفة للأستاذة زينب الحكيم بعنوان رسالة الأزهر في القرن العشرين من وجهة نظر المرأة، أعيد طبعها أخيراً، وكانت من بين رسائل المسابقة في سنة ١٩٣٦، وتطلب فيها للمرأة «أن يفسح لها مجال في الأزهر، لتعرف شئون دينها، وتدرس أعظم شريعة سمحاء، اختصت المرأة بما لم تختصها به شريعة أخرى. وتقول: وهذا الاصلاح الذي لم يسبق الإسلام به دين ولم يبلغ شأوه تشريع، يقوي من عزيمة المرأة على نصرته، ويدينها بنشر رسالته، وهذه لعمر الحق درجة من الإصلاح البشري العام عظيمة، وخطوة للاصلاح النسوي خاصة. ص ٩ ـ ١٠.

تعقيب:

ثم تحقق الأمل بحمد الله بعد ذلك بسنين، وفتح الأزهر أبوابه للفتيات المسلمات، في معاهد خاصة بهن، وكلية بفروعها مقصورة عليهن. ونرجو زيادة العناية بالمعاهد وتعميمها، وزيادة الكلية إلى كليات، وتقريبها كرغبة المواطنين في المحافظات، مع العناية بجوهر الدراسة وما يقدم لهن من مادة علمية.

المرأة والحياة العامة

التعليم:

قطعت المصرية الحديثة شوطاً بعيداً في الحياة المدنية، فاقتحمت الميادين الكثيرة التي لم تَلجْها من قبل، وفتحت الأبواب التي كانت إلى عهد قريب مغلقة، وزاملت الرجل في عديد من الأعمال وسابقته، وطلبت من العلم ما طلب، ورحلت في سبيله كما رحل، وأخذت من أسباب الرقي والنشاط بمثل ما يأخذ أو قريب منه.

فالفتاة الآن تنال حظها من العلم كما ينال الفتى، ومدارس البنات من ابتدائية وثانوية تنتشر في المدن صغيرها وكبيرها من الشمال إلى الجنوب، وكليات الجامعات والمعاهد العليا تستقبل الأفواج وتخرج الأفواج من الفتيات.

والمرأة الآن مدرسة وطبيبة وكاتبة وصحفية وموظفة في شتى الوظائف فوق مزاولتها الأعمال الحرة كالتجارة ونحوها.

وقد أُلِّفت الجمعيات الكثيرة ساعية جهدها لترقية بنات جنسها، وإعلاء شأنها، والقيام بنصيبها من الأعباء الوطنية، حيث تقوم بعض هذه الجمعيات بالخدمات الاجتماعية الهامة، كالتمريض والتطبيب في المستشفيات والمبرات، ورعاية الأطفال والفتيات، وبعضها ينشر الثقافة الدينية والتربية الإسلامية ما أسعفتهن الوسائل المحدودة، ومنها من يعمل للأغراض السياسية، ويطلب المساواة بين الرجل والمرأة في هذا السبيل.

وبدأت المرأة تجرب نفسها في الأعمال العنيفة، وتطلب المزيد منها، فرحة مبتهجة بتلك الحياة الجديدة، فاشتركت الفتاة في الحرس الوطني، وتلقت التدريب العسكري، ولم يبق أمامها لتاج النصر، واكليل الظفر سوى المساواة السياسية ليتاح لها أن تكون نائبة في البرلمان، ومن ثم تأخذ طريقها إلى كرسي الوزارة[1] أو إلى أكثر منه، كما أخذته قرينات لها في بلاد أخرى.
والأمل قوي في مستقبل المرأة وأنه سيكون خيراً من حاضرها وأروع.

والناظر إلى الجيل الجديد الناشىء، لا يملك نفسه من الإعجاب بالتطور الكبير الذي وصلت إليه البلاد في تعليم أبنائها وبناتها، فإذا تجاوزت العاصمتين الكبيرتين ـ القاهرة والإسكندرية ـ وحظهما من العلم جليل، وشاهدت مدينة كطنطا أيام الدراسة، ورأيت شوارعها الرئيسية في الصباح وبعد الظهر، وكيف تموج بعشرات الألوف من تلاميذ المدارس وتلميذاتها، من قاطني المدينة والوافدين عليها، حتى ليخيل إليك أن الجمهور كله ذاهب إلى المدارس وخارج منها، إذا رأيت ذلك أيقنت أن المجتمع المصري في تطور سريع، وأن أولئك الفتيات ممن يطلبن العلم وينشدن المعرفة لا بد وأن يزداد أثرهن في حياتنا العامة.

بلغت المرأة ما بلغت من الثقافة والعلم، وإنه ليزداد حظ هذا القدر من الإعجاب إذا علمنا أن عهد المرأة بالتعليم العام قريب.

بدء تعليم الفتيات:

فأول[2] مدرسة أسست لتعليم البنات في مصر كانت في عهد اسماعيل سنة ١٨٧٣ أنشأتها إحدى زوجاته بحي السيوفية من القاهرة وعرفت بعد بالمدرسة السنية. ويذكر الأيوبي في كتابه عصر اسماعيل[3]: أن الأقباط سبقوا بإنشاء مدرستين إحداهما في حارة السقايين تضم خمساً وأربعين بنتا يتعلمن اللغة

---

(١) نالت المرأة عضوية مجلس الشعب (البرلمان)، ثم وليت وزارة الشؤون الاجتماعية.
(٢) الثورة العرابية للرافعي: ص ٢١٠. الأهرام في ٧٥ عاماً ص ٧.
(٣) جـ ١ ص ٢١١.

العربية، والأشغال اليدوية على يد معلمات سوريات، والأخرى بجانب الأزبكية وكان فيها ثمانون بنتاً. غير أن الدعوة إلى تعليم الفتاة كانت أسبق من ذلك، فقد نادى رفاعة الطهطاوى بوجوب تعليم البنت وتثقيفها أسوة بشقيقها الفتى، ووضع في ذلك كتابه القيم وسماه «المرشد الأمين للبنات والبنين» وحث فيه على صرف الهمة لتعليم الفتيات والفتيان، لترتقي المرأة ويزداد أدبها وعقلها، ويعظم في قلوب الرجال مقامها؛ وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها... وهذا من شأنه أن يصرف النساء عن البطالة[1]. وكان يستهدى في بحوثه آداب الدين».

وقد لاقت الدعوة من ذلك الحين تقديراً من الطبقات العالية، فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها في البيوت، على يد أساتذة من معلمين ومعلمات، فظهرت طبقة نالت حظاً وافراً من العلم والثقافة، ومن هذه الطبقة «عائشة التيمورية»، وقد نبغت في الشعر والأدب؛ وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم في هذا العصر، وهما فاطمة الأزهرية، وستيته الطبلاوية[2].

وجاء بعد رفاعة الطهطاوي قاسم أمين، فألف كتابيه: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، ووسع نطاق الدعوة، وعرف بها ونسبت إليه.

هذا البدء المتواضع للتعليم النسوي في عهده القريب، لم يلبث أن قفز بالمرأة سريعاً إلى مرتقى عال من الثقافة والعلم، سايرت به الرجل وشاركته في كثير من الميادين العامة.

والنتيجة المعقولة لهذه الخطوات الفسيحة المدى في رقي المرأة وتقدمها، واستزادتها من العالم، ومعرفتها بما لها وما عليها من حقوق وواجبات، ووضعها خبرتها وجهودها وعلمها لخدمة وطنها، أن تكون الأسرة المصرية أحسن حالاً، وأهنأ بالاً، وأكثر تماسكا، وأقوى ارتباطاً، وأن يحظى النشء برعاية كاملة، في

---

(١) ص ٦٦ الطبعة الأولى.

(٢) الثورة العرابية ص ٢٧٣.

ظل أمهات مستنيرات، عرفن من أسرار التربية، وواجب الطفولة وحسن التوجيه ما لم يتيسر للأمهات السابقات.

المصرية تؤثر العمل الخارجي:

ولكن المصرية المتعلمة التي رجي أن تكون أما نموذجية، وربة بيت مثالية، تقوم بإعداد الشبية إعداداً صالحاً، وتشرف على بناء الوطن في بنيه، كي ينهض الجيل الجديد مزوداً بالقوى النفسية، والملكات الخلقية، بما ينتظره من تبعات وأعباء جسام، هذه المصرية المرجوة لإقامة أركان الوطن على أساس متين، آثرت الكثيرات منهن ميدان الحياة العامة، ورأته أليق بها وآنق لها، وأرضى لطموحها ورغباتها، فرفضت الحياة الزوجية، أو جمعت بينها وبين العمل الخارجي.

ونحن مع إيماننا بوجوب العلم للرجل والمرأة جميعاً، وأن طلبه في الإسلام فريضة دينية، وترحيبنا بتعميمه للصغار والكبار من الرجال والنساء، نتساءل:

هل من الخير للفتاة أن تتعلم من العلم ما يتعلم الفتى، لتزاحمه في المكتب والمتجر والمصنع، وتقاسمه الوظائف العامة، وتحمل من الأعباء ما يحمل الرجل؟

وهل من الخير للأمة أن تعلم بناتها لتنتفع بها انتفاعها بأبنائها، وترفع بالجهود المشتركة المستوى الاقتصادي للأمة استجابة لظروف التطور الاجتماعي التي جعلت من اشتراك الجنسين ضرورة وطنية؟.

وهل من الصالح العام انتزاع الأم المتعلمة من أحضان بنيها، وحرمانهم من رعايتها الكاملة، لتهدى جهودها الخارجية إلى المجتمع بالإضافة إلى جهود الرجل كي يزيد الانتاج إلى المدى الذي يراه الداعون إليه؟.

وربما كان هذا الأخير ممكنا لو استغنى الصغار عمن يتعاهدهم ويرعاهم ويقوم بأمرهم مدة غياب الأبوين عنهم، أما ولا بد لهم من شخص يحل محل الأبوين مدة خروجها، فلم نوفر للأمة شيئاً، ولم نصنع سوى استبدالنا الدخيل

بالأصيل في تربية الأبناء ورعايتهم، فرضينا الخادمة أو الخادم للإشراف عليهم مدة خروج الآباء.

وقد يقال: إن بروز الأم المحامية أو المعلمة أو الصحفية أو النائبة... لعملها الخارجي أجدى على المجتمع، وأوفر له من خادم أو خادمة جاهلين، نكل إليهما الأبناء حتى تعود الأم بعد حين، ولكن هل هو أجدى على الطفل من حنان يدفئه، وعطف يبهجه، وتوجيه سديد يسعده ويسعد به المجتمع؟. إن المجتمع هو ذلك الطفلُ الصغيرُ من هذه الأسرة ومن تلك، ينشأ سليم الجسم والعقل والعاطفة فيسلم المجتمع بسلامته، أو تمرض نفسه، وتيبس عواطفه، وينحرف إحساسه، فيصيب المجتمع منه أذى كبير.

إن بعد الأبناء من عطف الأمومة الزمن الطويل، والقذف بهم إلى أحضان الخدم وأكتافهم، يكرعون من مواردهم، ويُطبعون على غرار خلائقهم، حرمان لفلذات الأكباد من حقوقهم الطبيعية في صلاح التربية وحسن التنشئة، بل في عواطف الخير والمحبة تعمر قلوبهم وأفئدتهم نحو ذويهم، وتمتد منهم إلى المجتمع الخارجي، إنه اليتم الفعلي لهذه الزهرات اليانعة من مهج القلوب، وثمار الحياة، تلك التي لا تنال حقها الفطري من الرعاية والعناية والحنان والتوجيه، وما أصدق شوقي في تعبيره عن اليتامى ذوي الأبوين إذ يقول:

ليس اليتيمُ من انتهى أبـواه من	هـمّ الـحيـاة وخـلّفـاه ذلـيـلا
فـأصاب بـالدنيـا الحكيمة منهمـا	وبحسن تـربيـة الـزمـان بـديـلا
إن اليتيم هــو الــذي تلقى لــه	أمّــا تـخـلـت أو أبــا مــشـغــولاً

قد يكون مفهوماً أن تعمل المرأة التي تضطرها ظروف حياتها إلى كسب عيشها، وواجب الدولة معونتها وحمايتها، ولكن أي شيء ــ غير الترف ــ يحمل المرأة المتزوجة المنجبة على ترك أبنائها إلى حيث تقضي الساعات الطوال في مقر عملها،موزعة القلب ملهوفة الفؤاد.

إن للمرأة ميداناً لا يجاريها الرجل فيه، فهل ستُصر على أن تكون ربته في الوقت الذي تشاطر الرجل عمله الخارجي، أو أنها ستشاطر الرجل في الخارج

ليشاطرها العمل الداخلي، ومن ذلك تجيء المساواة الكاملة؟. ولو كان ذاك، فإلى أي مدى يكون التوافق والانسجام والسعادة البيتية، في أسرة يعمل الرجل والمرأة كل منهما في طريقه، ليجتمعا آخر النهار متعبين مكدودين؟. أينفس عنها أم تنفس عنه؟ أيُعدُّ لها طعامها أم تعدُّ له طعامه؟ أم يتعاونان؟ ولو أفلح الرجل في مشاركة امرأته المنزل، أتراه يشارك في حمل الولد تسعة أشهر، وفي إرضاعه حولين كاملين أو قريباً منهما؟ أم ستضطر المرأة ويضطر معها الرجل إلى أن تنفرد هي بذلك، على أن ينفرد هو بالعمل من أجلها وأجل وليدهما؟

نشرت الأهرام[1] لكاتبة فاضلة مقالة ضافية بعنوان إلى الآباء، تنعى عليهم تقصيرهم في تربية أبنائهم، وعدم تخصيصهم القدر الكافي من أوقاتهم لرعايتهم، وأخذت على الآباء انشغالهم عن الأبناء ـ وصدقت ـ ولكن ما عساها قائلة في الأم المشغولة عن ولدها بعملها الخارجي، وليست في حاجة إليه، إلا إرضاء لكبرياء زائفة، أو استعباداً لترف قاهر.

إن اشتغال المرأة بالأعمال العامة من غير ضرورة ترفٌ لا خير فيه، وإهمالها بنيها، ودفعهم لمن لا يعني بهم إرضاء لمظهر براق، وتفضيلاً للعمل الخارجي على تربيتهم جرمٌ كبير، يُرَى أثرُه في الأم نفسها وفي الأبناء، حتى صار من المألوف انعقاد المؤتمرات لبحث مشاكل الأسرة ومعالجة انحراف الأحداث. ولئن قيل بأن بعض هذه العيوب موجود من قبل، فلقد كان الظن بتقدم المرأة أن يصاحبه على الأقل تخفيف آثار هذه الويلات لا تفاقمها وتزايدها يوماً بعد يوم.

أزمة الزواج:

بل لم يقتصر الأمر على مشكلة انحلال الأسرة وانحراف أبنائها فحسب ـ وإنه لخطب جسيم ـ وإنما جدت مشكلة بناء الأسرة وإقامتها، فقد كان من جرّاء اشتراك المرأة في الأعمال مع الرجل أن استعذبت الحرية والانطلاق، وآثرتها على المنزل وأعبائه وواجباته، وشعر الرجل بابتذال أنوثتها فلم

---

(١) بتاريخ ٦/١٠/١٩٥٣.

يسرع إليها، وساورته الشكوك في سلوكها فعزف عنها، وعرف منها ما وراء حريتها فساء ظنه فيها، وصار من المألوف المشاهد كثيراً أن تتقدم السن بالفتاة العاملة أو الموظفة، فتقضي أيامها عانساً يُقض مضجعها، ألم الوحدة، أو تنزل راغمة بعد فوات الأوان على زواج لم يكن ليرضيها، وكانت القوانين قبلُ ــ وما تزال قائمة ــ موضوعة لمنع التبكير الشديد في زواج الأبناء وهم صغار.

إن اندفاع المرأة في الحياة العامة، ومشاركتها الرجل في أعماله، إن هو إلا تقليد لنظم الغرب وسير في ركابه، وإذا كنا نحاول اقتفاء آثاره واحتذاء مثاله، فهل تيقنا أن كل ما يصلح لأوروبا وأميركا مثلاً يصلح لنا، وكل ما يفيدهم يفيدنا؟ وهل علمنا حقاً أنهم في مدنيتهم الباهرة، وحضارتهم الزاهرة، وقوتهم المادية القاهرة، سعداء بحالهم، هانئون في أوطانهم، راضون عن أمورهم، قويت لديهم روابط الأسرة، وحسنت تنشئة الأبناء عندهم بما حسنت به اقتصادياتهم.

إن عقلاءهم يتلمسون المخرج مما وصلت إليه حال بلادهم. وإن نفراً قليلاً من فلاسفتهم ومفكريهم كانوا يحذرونهم نتائج التغالي في النواحي المادية، وعواقب التفريط في المثل الروحية، والمبادىء السامية، وقد صارت الأفراد القليلة الشتيتة الآن جماعة كثيرة العدد جهيرة الصوت، وحد بينها في الأمم المتفرقة شعورها بالخطر المحدق على مدنيتها المادية، فولت وجْهَهَا نحو الشرق تجوب أقطاره وتلقى رجاله، وتلتمس من آدابه، وتستمد من دينه وعقيدته ما ترجو به انقاذ الغرب مما تردى فيه[1].

لقد ازدادت مشاكل الطفولة وانحراف الأحداث عندهم كأثر من آثار

---

(١) تذكر الصحف بين الحين والحين أخبار جماعة التسلح الخلقي واشتراك مصر بممثليها في بعض نشاطها، وأوردت الجمهورية أنباء رحلتهم في الشرق، وفي أثناء عودتهم من الحجاز إلى مصر وجه مندوبها إليهم جملة أسئلة وكان مما قاله المستر جولدنج الانجليزي: «إن الغرب بدأ يتجه إلى الشرق التماساً لمساعدته والأخذ بيده في علاج مادياته التي شطرته إلى شطرين». وأجاب الهر جارايس الألماني عن سؤال: لماذا وقع اختياركم على الدول الإسلامية والبدء بزيارتها، بقوله: «إن الإسلام دين متين عامر بالقيم الروحية والمعنوية، وقد صمد في وجه القوى التي تألبت عليه في شتى العصور، ونحن نعتمد على روحانية الإسلام، فإذا ساعدنا المسلمون أمكن أن يعم الخير العالم».

تفكك الأسرة، نتيجة لعمل الأم خارجها وتكسبها كالرجل، وتركها الأبناء للخدم ودور الحضانة وسواها.

جاء في الأهرام[1] تحت عنوان: الطفولة المشردة في أميركا ـ بخط عريض ـ ما قاله المدعي العام هربرت براونل في خطبة له: إن هناك أكثر من مليون من الأطفال المشردين في هذا العام سيقعون في قبضة البوليس وقال: إن مستقبل هؤلاء مخيف ما لم يدرس أمرهم في دقة، واقترح علاجاً للموقف إنشاء فرع للأحداث في كل قوة من قوات البوليس... في كلام آخر طويل.

وهذه هي المؤتمرات العالمية تعقد لمكافحة الجريمة بين الأحداث، ودراسة أسباب انحرافهم، ومحاولة إصلاحهم، والأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل، كما عقدت مؤتمرات عربية لمثل هذا الغرض بإشراف هيئة الأمم[2] فهل تريد الأمهات عندنا وقد بدت مظاهر الأزمات الخلقية بين الصغار والكبار من جراء ضعف التربية المنزلية، وترك المرأة شؤون بيتها، وبروزها للعمل الخارجي، هل تريد أن تصل إلى آخر الشوط فيزداد عدد الأطفال المضيّعين عندنا، ويتضاعف عديد المنحرفين منهم، وتنكب البلاد في أعظم ثروة لديها، وأعز شيء عليها، وهم بنوها وناشئتها، وشباب المستقبل وعدة الوطن؟!!!

أما القول بأن اشتراك المرأة في الإنتاج القومي ضرورة وطنية، فليس إلا تعلات خيالية، يبررون بها ما يريدون، فنحن لا نشكو قلة اليد العاملة حتى نستعين بيد المرأة الصناع، ولن نذكر هنا ألوف العمال أو عشرات الألوف ممن يبتغون العمل، فذاك شيء تعلمه وزارة الشؤون وسواها من المشتغلين بقضايا العمال. ولكنا نعلم عن خبرة ويقين في محيطنا الريفي أن الفلاح المصري يتعطل شهوراً كثيرة في العام وهم على الأقل بضعة ملايين[3]. إن بلاداً سبقتنا بالعلم والصناعة والزراعة، ورزقت الأرض الفسيحة، ومع ذلك فمزاحمة النساء للرجال

---

(1) في تاريخ ٢٠/١٠/١٩٥٣.

(2) ديسمبر سنة ١٩٥٢.

(3) زادوا بحمد الله في هذه المدة أضعافاً.

فوق ما أحدثته في محيط الأسرة والطفولة كانت سبباً في تعطل عدد هائل من العمال يزداد يوماً بعد يوم، ويهدد الدولة بالشر المستطير.

نشرت الأهرام في ١٩٥٤/١/٣١ تحت عنوان: إزدياد البطالة في أميركا ما يأتي:

أصدر مكتب الإحصاء الأميركي بياناً أشار فيه إلى أن عدد العمال المتعطلين بلغ مليونين و٣٦٠ ألفاً في الولايات المتحدة هذا الشهر، أي بزيادة نصف مليون عن عددهم في شهر ديسمبر.

ولعل من المفارقات الواضحة أن يكون في نفس العدد من الأهرام بعنوان «ديموقراطية التوظف ــ الفتاة ووظائف الدولة» مقال ذكر فيه كاتبه نجاح المرأة فيما تولته من أعمال، وجاء فيه: وقد شرط المشرع الفرنسي على المرأة التي تلتحق بخدمة الجيش أن تستمر بالخدمة من ثلاث إلى خمس سنين، وأن تكون غير متزوجة، أو أرمل أو مطلقة، أو منفصلة عن زوجها، وأن تتعهد بالعمل في جميع أنحاء الجمهورية الفرنسية ــ وقد حبذ رؤيته للفتاة المصرية وقد شغلت مناصب القضاء، والمناصب الرئيسية الكبرى في الوزارات، واتخذ من فرنسا دليلاً على ما يقول.

هذه هي الحياة الناعمة المدللة يريدها الرجل لنفسه، كيما يلطف جو العمل من حوله، بالمرأة تشاركه في أعبائه، فيدعوها إلى التشبث بما تحسن وما لا تحسن، وإن جر عليها العناء والشقاء.

قد تضطر المرأة بحكم ظروف الحياة إلى العمل الخارجي، فلا بأس أن تتولى منه ما تحسن، وقد تحسن المرأة التدريس أو تربية الطفولة في دور الحضانة ورياض الأطفال. أو معالجة المرضى ومساعدة المنكوبين، وهذه نواح تستغرق جهاد المرأة المستعدة لها وهي بها أليق وأوفق ــ ولكن تطلع المرأة لمشاركة الرجل في كل عمل وإن كان شاقاً، ومزاملته في المهمات وإن كانت مرهقة أمر تنوء به طاقة المرأة ويعجز عنه احتمالها، وليس ينقض ذلك أن تخرج امرأة على القاعدة

فتحسن ما يحسن الرجال من أعمال العنف والقوة، فالأحكام العامة إنما تبنى على الأعم الأغلب،لا على الندرة والشذوذ.

كذلك من الأحوال الاستثنائية نشوب الحرب وقد شهدنا المرأة في القديم اشتركت في حروب الإسلام[1] وكان دور المرأة فيها رعاية الجرحى وخدمة المحاربين، وربما تحرّج الموقف حتى رأت المرأة نفسها في حال دفاع فحملت المهند ساعة من نهار. وما تزال المرأة كذلك تدفعها المواقف الحرجة، والأخطار المحدقة، فتندفع اندفاع الأم اللهفي رُوّعت أشبالها، والأمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي والعالمي، والتاريخ المصري الحديث، وما أبلته المرأة المحجبة في دفاع الفرنسيين منذ لاحت سفنهم على شاطىء الاسكندرية، وفي كل مكان وطئوه، إلى أن جلوا عنها مدحورين. وكان الشعور بالخطر هو دافع المرأة إلى القتال والاستبسال. هذا الأمر مسلم به في القديم والحديث. تعارفه الناس في كل الأمم والأزمان، وساروا عليه حتى في هذا الزمن الذي تطرفت فيه المرأة مبالغة في دعوى المساواة، ومالأها كثير من الدعاة استملاحاً لوجودهن ومشاركتهن، ما تزال المرأة تقوم بدورها الطبيعي المناسب مما ليس شاقاً ولا عنيفاً، وإن تطلب حكمة وإخلاصاً وصبراً.

وفي مثل هذا المجال يقول شاب من قادة الثورة بلسان القائد المحنك مقالة الخبير[2]:

«إننا لا نمنع المرأة من الكفاح، ولكننا كجنود نحب أن يُحدَّد لها اختصاصُها وميادينها، فالقائد لا بد أن يحدد لكل جيش ميدانه، ولكل سلاح اختصاصه، ولا بد من أن ينظم قوات تموينه وإسعافه، وقوات الصيانة الخاصة، ولا يمكن أن ينتصر جيش إلا إذا كانت صفوفه المجهولة تعرف واجبها تماماً، وتؤدي هذه الواجبات، أما إذا تركت لتحمل السلاح مع الصفوف الأولى فلن يكون نصيب الجيش كله غير الهزيمة، ولهذا وجب أن يؤدي كل سلاح مهما

---

(١) انظر: فصل المرأة والدعوة.

(٢) قائد الجناح حسن إبراهيم في ١٩٥٣/١١/١٩ يجيب مندوبة المصور عن دور المرأة.

صغر الواجب الملقى عليه سواء في خط النار، أو بعيداً عن خط النار، وعندما تعمل الأسلحة متحدة نحو هدف واحد، فالنصر مكفول وفخر النصر للجميع... ثم قال.. لقد حددنا أهداف الثورة، وتطهير الوطن من كل غاصب.. ثم خلق المواطن الصالح. ورفع مستوى المعيشة، ولا شك أن على المرأة عبئاً كبيراً في تحقيق هذا، وهو خلق البيت الصالح لانشاء المواطن الصالح، إنها هي التي تربي الطفل وتلقنه حب وطنه، وترضعه الإباء والشمم والكرامة، فهل هناك بعد هذا الكفاح كفاح؟.

وتكلم على نجاح المرأة في ميادين أخرى اجتماعية، ورغب أن يكون النساء جميعاً مؤمنات بحق هذا الوطن وتبعاته، غير راغبات في التباهي والظهور.

وبعد:

فلعل المرأة تقنع بهذا الدور الخطير في الحياة، لعله يكفيها ان تكون صانعة الحياة، فتوفر جهودها لكل ما يرقيها ويزكيها ويحفظها، فذلك أجدى عليها من تبديد قواها بين عمل خارجي، وواجب منزلي لن يغني أحد غناءها فيه، وإذا كان الله سبحانه لم يجعل «لرجل من قلبين في جوفه» كما أنزل في كتابه، فماأراه عزت قدرته آثر المرأة بذينك القلبين.

إن المرأة وقد خلقت من الرجل، إنما تكمله في رسالته، لا تزاحمه في مهمته وأعبائه وهما بالاتحاد في الغاية والتوزيع في العمل سعيدان، فإذا خاضا لجة الحياة متسابقين فقلما يصلان.

عقدت جريدة المصري مسابقة النيل[1]، ورصدت لها الجوائز المغرية واشترك فيها سباحون عالميون وزانت أكاليل النصر هامة شاب فرنسي، لم يكن باتفاق الجميع أقدر السباحين، ولا أقواهم يداً، ولا أرحبهم ذراعاً، ولكن القدر حباه زوجة مواتية، نزلت القارب إلى جانبه في غسق الليل وزمهرير البرد،

---

(١) ديسمبر ١٩٥٣.

تحوطه بحنانها، وتنفخ فيه من روحها، وتسقيه الشراب الدافىء بيدها، وتشد من عزمه، وتهديه أيسر السبل، وكان ما يشبه الاجماع على أن زوجته أكبر أسباب نصره.

ولقد وقفت عند هذا الحادث العارض وتأملته ملياً، ثم تخيلت هذه الزوجة سابحة مع زوجها في الماء، تصارع الأمواج وتكافح البرد، ساعية إلى الهدف، طامعة في مضاعفة الجائزة، وزوجها يفكر فيها مرة وفي نفسه أخرى. وللقارىء الحكم آنئذ فيما إذا كانا سيقبضان كلاهما على غير الماء.

إن رسالة المرأة في حقيقتها إيثار وإخلاص ونكران ذات، وعملها في اختصاصها يعدل مايقوم به الرجل من جلائل الأعمال، وجسام الأمور. تطلعت النساء على عهد النبي ﷺ إلى مزاحمة الرجال في بعض ما يخصهم، فنزل قول الحكيم العليم: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما﴾[1].

وأوفدت النسوة أسماء[2] بنت يزيد الأنصارية. إلى رسول الله ﷺ فجاءت وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك: إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الأجر والخير؟. فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله وقال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن في مساءلتها في أمر دينها من هذه؟. قالوا يا رسول الله:

---

(١) سورة النساء: آية ٣٢.

(٢) ابن الأثير في أسد الغابة من ترجمتها.

ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله، فانصرفت المرأة وهي تهلل. رواه ابن الأثير في أسد الغابة من ترجمتها. وفي الإصابة لابن حجر: أنها شهدت اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهراً.

ألا فلتعلم الأم المثقفة أن أعظم رسالة تؤديها في الحياة هي هذه الحياة الناضرة القوية السليمة، المليئة بالتفاؤل والسعادة والاتزان، من بنين وبنات، منحهم حنانها هذه الخصال، وأمدهم توجيهها بتلك الخلال، ونشأتهم رعايتها أفضل التنشئة، يملئون جوها بهجة وغبطة، ويحملون عبء الحياة مقدمين، غير هيابين ولا وجلين، وهي بحكم الحياة شريكتهم فيما يصلون إليه من عز، وما ينالون من مجد وفخر، وهي بحكم الدين شريكتهم في المثوبة والأجر، لها مثل ثوابهم من غير أن ينقص شيء من أجورهم، يصل ذلك إليها في حياتها وبعد مماتها. وفي الحديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له. والمرأة والرجل في الثواب سواء.

المرأة والحياة السياسية(١)

تدور الآن رحى معركة شديدة حول المطالب السياسية للمرأة وهل هي حقوق لها، ومن الخير أن تمارسها، أو أن المرأة برسالتها العليا في الأسرة التي هي الأمة مصغرة، يجب أن تكون بمنأى عن السياسة وشرورها؟ وقد بلغت هذه المعركة مرحلة تكاد تكون حاسمة، بتقرير اللجنة الفرعية في لجنة الدستور لمطالب المرأة السياسية بأغلبية ثمانية أصوات إلى ستة.

وكان من مظاهرها المثيرة أخيراً ذلك الاعتصام الذي قام به فريق من السيدات في نادي نقابة الصحفيين، وإعلانهن الاضراب عن الطعام حتى تجاب مطالبهن السياسية، أو يمتن دونها، وما صحب ذلك من تشجيع كثير من الهيئات النسائية المصرية، وبعض الهيئات أو الشخصيات الأجنبية النسوية، كذلك بعض أفراد وجماعات من المصريين.

وقد سبق ذلك رأي ديني عام أو شبه عام ضد المطالب السياسية، توّج بفتوى رسمية، من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، وأيد ذلك المفتي الرسمي، وشيخ الأزهر، وهيئات دينية كثيرة وبعض الجمعيات النسوية.

---

(١) حسمت المعركة بالنسبة للمرأة المصرية، بإعطائها حق الإنتخاب اختياريا لمن تشاء، وحق الترشيح للنيابة عن الأمة، على أن ما حسم في مصر ـ ما يزال على أشده في بعض البلاد الإسلامية كالكويت مثلاً، وأملا يراود البعض الآخر في غيرها.

والبحث ـ على أي حال ـ معروض بوجهات النظر لكل فريق مع مناقشتها، لمن شاء التماس وجه الحق في الموضوع، وتقدير المصلحة الوطنية فيه.

وقد كان من اليسير أن أعفي نفسي وأعفي القارئين من علاج موضوع كهذا كثر الكلام فيه، مكتفين بما بذله أشياخنا من جهد مشكور، وما ابتغوا الله فيه من قصد كريم، وما قدموه للأمة من نصح وتوجيه.

ولكن ولي على ما ارتأته لجنة الفتوى ملاحظات، لم أر بدا من أن أدلي بدلوي المتواضع، على النهج الذي التزمته في البحث، من تحري الحق لاآلوه جهداً، ولعل القارىء الذي سار معي إلى هذا الحد، رأى فيما سبق ـ وسيرى بعون الله فيما سيأتي ـ أن البحث لا يخالف أحداً رغبة في خلاف، ولا يوافق إيثاراً للسلامة من الألسنة، أو تخففا من عناء الدراسة، إنما هدفه وغايته الحق خالصاً لله وللوطن؛ والحق أحق أن يتبع.

وعندي أن المرأة المصرية التي تطلب ما تراه حقوقاً سياسية، إنما تريد ما يشبه أن يكون رد اعتبار أدبي؛ فالمرأة وقد بلغت ما بلغته من الثقافة والعلم، وخاضت لجة الحياة العامة، ونجحت في ميادين كثيرة فوق ما قدّر لها، لا يرضيها الآن أن تكون الحياة النيابية وقفا على الرجال، سواء في ذلك عالمهم وجاهلهم، غنيهم وفقيرهم، من دون النساء عامة، وفيهن صفوة ممتازة، ومنهن من تزامل الرجل مدرسة في الجامعة، ومحامية في المحكمة، وصحفية في الجريدة، وناظرة في المدرسة، ومفتشة في الوزارة، وطبيبة في المستشفى، وتاجرة في المتجر إلى غير ذلك من الميادين العامة، فكيف يُضن عليها باعطاء صوتها في الانتخاب، أو قبول توجيهها في السياسة بحجة أنها امرأة؟ فهل لا تزال ناقصة العقل والدين[1] مع كل هذا الذي تقوم به من أعمال؟.

ويلحق بما سبق أن المرأة في كثير من البلاد الغربية والشرقية اعتُرف لها بالحقوق السياسية، وفيها بلاد أقل مدنية وحضارة ورقياً من بلادنا ـ إلى أن بعض البلاد التي أشركت المرأة في سياستها بلاد إسلامية، بنت دستورها المدني على القرآن، فهي أكثر منا في السياسة محافظة، ولو مَنَع الإسلام المرأة من البرلمان لكانت تلك البلاد أولى بمنع نسائها.

---

(١) انظر: فصل المرأة... في الشهادة.

وتؤيد المرأة مطلبها وتزكيه، بأن الواجب يقتضي من المرأة وهي نصف الأمة أو تزيد، أن تشارك في السياسة التي تُساس بها، والقوانين التي تسري عليها، وبخاصة ما يتعلق بنظام الأسرة، وعندها أن الرجل يحابي نفسه في بعض ما يضع من قوانين.

هذه خلاصة لفكرة من يرى منح المرأة مطالبها السياسية.

ويقابله الرأي القائل بأن للمرأة مهمة أصيلة وقفا عليها لا ينهض بها الرجال، فهي بانية الوطن حين تبني الأسرة، ولا ينبغي أن تصرف عنها ببريق المظاهر الخادعة من الشؤون السياسية، إلى جانب أن السياسة معترك شديد بنوء به كثير من كفايات الرجال، ويحتف به حسبما يؤيده الواقع الملموس ما لا يليق بالمرأة الكريمة أن تتعرض له، فمن الخير للدولة وللمرأة نفسها أن تنصرف إلى ميدانها الطبيعي، فتخصه بجهودها وجهادها، وإنه لجهاد وأي جهاد، وكل ميسر لما خلق له.

ويزاد فوق ذلك الفتوى بأن الدين الاسلامي يمنع المرأة من البرلمان.

وسنعرض أولاً للفتوى بدرس ما هو من موضوعنا بسبيل:

استجابت لجنة الفتوى[1] مشكورة لتساؤل الكثيرين، ورغبتهم في بيان شاف من علماء الدين، بعد أن كثر القال والقيل.

وترى اللجنة كتمهيد للموضوع: أن اختلاف الأفكار من طبيعة الاجتماع، ولكن البحث يجب ألا يتجاوز دائرته إلى النيل من مقام السلف أو الغض من أقدار العلماء. . . .

وترى في الموضوع أن المسألة ذات شقين:

١ ــ أن تكون المرأة عضواً في البرلمان.

٢ ــ أن تشترك في انتخاب من يكون عضواً فيه.

---

(١) نشرت كاملة بالأهرام في ١١ من يونية سنة ١٩٥٢.

ثم تمضي تبين كلاً منهما فترى في الأول أن الإسلام الذي أعطى المرأة حرية التصرف في شؤونها المتعلقة بها، أعطاها كذلك حق الولاية الخاصة بالنسبة لغيرها، كالولاية على الصغار، والولاية على المال، والنظارة على الأوقاف، فهي تملك من ذلك ما يملك الرجل، وأرشدتها الشريعة إلى ما يحفظ كرامتها، ويصون شرفها ومكانتها.

أما الولاية العامة ومن أهمها عضوية البرلمان، وهي ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها، فقد قصرتها الشريعة على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة، وقد جرى العمل على هذا فلم يسند إلى المرأة شيء من هذه الولاية مستقلة أو مع غيرها من الرجال، وكم من اجتماعات شورية لم تشترك المرأة فيها، ولم تدع إليها، وبيعة الخليفة الأول تمت بدون اشتراك المرأة أو دعوتها كذلك.

والدليل الشرعي: ما رواه البخاري وأحمد والترمذي والنسائي من قول النبي ﷺ وقد وردت الأخبار بأن الفرس ملكوا عليهم امرأة «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

وبينته قائلة: والحديث نهى أكيد عن توليه المرأة الشؤون العامة، بأسلوب من شأنه أن يبعث القوم الحريصين على فلاحهم، وانتظام شملهم على الامتثال.

هذا ما فهمه أصحاب الرسول، وجميع أئمة السلف... فهم جميعاً يستدلون بهذا الحديث على حرمة تولي المرأة الإمامة الكبرى، والقضاء وقيادة الجيوش» وما إليها من سائر الولايات العامة.

ثم مضت اللجنة في بيان رائع تشرح أسباب هذا الحكم من طبيعة المرأة، وتفند ما يستدل به دعاة حق الانتخاب، من حضور السيدة عائشة واقعة الجمل وأنها قد اعترفت بخطئها. وأن مبايعة النبي للنساء بيعة خاصة بهن، وعلى غير ما بايع عليه الرجال من الجهاد والنصرة، أما تولي شجرة الدر فليس في ذلك حجة دينية، ولا شبه حجة.

وحيث مُنعت المرأة البرلمان، فما يؤدي إليه من حق التصويت ممنوع. وهذا هو الشق الثاني للمسألة. ثم أكدت ذلك بما يصاحب عملية الانتخاب من سلسلة اجتماعات واختلاطات، تتعرض المرأة فيها لأنواع من الشر والأذى، ينبغي أن تكون بمنأى عنها حفظاً لشرفها وكرامتها.

هذه خلاصة فتوى اللجنة في المسألة.

وجوهر الموضوع:

١ ــ أن البرلمان ولاية عامة.

٢ ــ وأن المرأة ممنوعة منها بالحديث الصحيح المتفق عليه قولاً وعملاً، وكذلك ممنوعة مما يؤدي إليها.

أما أن البرلمان ولاية عامة فظاهر من أن كل فرد فيه ينتخب عن دائرة من الدوائر، أو يكون في جملة المعينين بالاختيار، ينوب في المسائل التي تعرض على المجلس عن الأمة كلها، لا عن نفسه شخصياً، ولا عن أهل دائرته فحسب، وللبرلمان سلطة تشريعية، فهو يسن القوانين، ويهيمن في رأي اللجنة على تنفيذها.

ولكن أية ولاية عامة هذه؟ هل هي من نوع ما ورد فيه الحديث الشريف من الملك والإمامة الكبرى؟ أو من قبيل ما قاسه العلماء السابقون عليه كالقضاء على خلاف بينهم، وقيادة الجيوش؟.

يقولون إنها ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها، وسن القوانين والهيمنة عليها كلمة فخمة ضخمة، فأية قوانين تلك التي يسنها البرلمان، أو لجانه الفرعية؟ أيسن قوانين يكمل بها الدين؟ أم يقرر شيئاً يخالفه؟.. أم هو يضع ما يراه من نظم الحياة في دائرة الإسلام من ليس من حقه أن يتخطاها؟.

ونحن معشر المسلمين، وفي مقدمتنا اللجنة الموقرة، نعلم أن الله أكمل الدين منذ أنزل على نبيه في حجة الوداع «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً». فكان يوم عرفة عيداً لنا إلى يوم القيامة. فليس من عمل البرلمان المسلم إذاً أن يسن قوانين يكمل بها الدين.

أما إن سن ما يخالفه، فهل نعترف به، ونقر الرجال عليه، وتجب طاعة الولاة فيه؟ إن البداهة الإسلامية ترد ذلك وتأباه، فرسول الإسلام يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» والخليفة الأول يقول في خطبته الخالدة: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم».

بقي أن يسن بعض النظم الجزئية التي يراها لصالح المجتمع في دائرة من الإسلام لا تعدوه. وهذا شيء لا بأس فيه.

على أن أجل مهام البرلمان تمثيل رغبات الأمة، وإبداء الرأي فيما يعرض عليه من قوانين، ومحاسبة الحكام على ما يعملون، وإقرار تصرفاتهم، أو اعتراض عليها إن لم تكن في صالح المحكومين.

ولم يقل أحد في الإسلام بأن المرأة ممنوعة من إبداء رأيها، أو توجيه النصح للحاكمين، أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، متى كانت عالمة بما تقول، وفي الكتاب الكريم:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله﴾.

وقد راجعت امرأة النبي في ظهار زوجها منها، وكان من قبل يعد طلاقاً، وجادلت فيه، واشتكت إلى الله ظلم زوجها، فسمع الله شكواها، وشاء الله سبحانه أن تكون محاورتها فرجاً من ضيق، فنزل قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها، وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما... الآيات﴾[1].

وكانت هذه المرأة تنصح أولياء الأمور. خرج عمرُ ومعه الناس فمر بعجوز فاستوقفته[2] ووعظته، فقال رجل يا أمير المؤمنين: حَبست الناس على هذه العجوز فقال: ويلك تدري من هذه؟ إنها خولة بنت ثعلبة سمع الله

(٢) من أول سورة المجادلة.

(١) روي من طرق كثيرة، وهي موجزة في حسن الأسوة، ص ١٣٧.

شكواها من فوق سبع سموات... والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلاّ للصلاة ثم أرجع.

وأنكرت أخرى على عمر ما أبداه من رغبة في تحديد المهور، وخطب الناس بذلك، فقالت: ليس ذلك إليك يا عمر إن الله تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ فرجع عن رأيه، وأعلن صواب رأيها.

فمراجعة المرأة الرجل في بعض ما يضع من نظم عامة وقوانين أيسر من ذلك.

وعندي لو أن الرجل كان مسلمًا كامل الإسلام لنامت المرأة هانئة لا تشتكي ظلمًا ولا هضمًا.

وهذه المراجعة في القوانين ليست هي الولاية العامة التي مُنعتها المرأة في الإسلام، فليست من قبيل ولاية الخلافة، أو الملك، أو قيادة الجيوش، أو ولاية إقليم مثلاً، من كل ولاية عامة يكون للوالي الرأي الأعلى فيها، والكلمة النافذة، وعلى الآخرين السمع والطاعة، مما يخاف معه من طبيعة المرأة وما فطرت عليه من حساسية غالبة، وسرعة تأثر، وشبوب عاطفة، فولاية البرلمان وإن علت فوق سلطة الوزراء والحاكمين أحياناً ــ أو هكذا يجب أن يكون ــ ليست ولاية فرد ولا أفراد، إنما هي ولاية الأمة، وسلطة الجماعة تحاسب المسؤولين، لا يملك الفرد فيها سلطة خاصة سوى الحجة والإقناع، يتخذ الأعضاء من القرارات ما يستقر عليه الرأي بأغلبية أو بإجماع، والمسؤولية ملقاة على المجموع، والحديث فيما أرى بين الدلالة، واضح المقصود، خاص بغير ما نحن فيه، ونصه الذي معنا يقول: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وليس هو لن يفلح قوم أشركوا المرأة في أمرهم أو انتفعوا برأيها ــ ويعين هذا الفهم في الحديث الرواية الأخرى التي أوردتها اللجنة في سياق الفتوى عن أبي بكرة، وذكرها ابن حجر «لن يفلح قوم تملكهم امرأة».

فهذه هي الولاية التي حكم فيها رسول الله ﷺ بخسران هؤلاء الأقوام، ولنا أن نقيس عليها ما قاسه بعض الأئمة من ولاية القضاء، اجتهاداً يتشعب الرأي فيه، لا نصاً يقف المسلم فيه عند حد لا يعدوه.

والحديث بهذه الصورة حديث من لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحي يوحي، ذلك أن القوم تتولاهم امرأة فتملك من أمرهم ما لا يملكون، إن كانت خيرهم للأمر وأقدرهم عليه فبئس القوم هم، إنهم أشباه رجال وليسوا برجال، وحق لهم ألا يفلحوا.

وإن لم تكن المرأة خيرهم وأقدرهم فقد قدموا غير مقدَّم، وحق لهم ألا يفلحوا، وصدق الرسول الكريم.

أما مثل ملكة انجلترا والاعتراض بها على الحديث فليس شيئاً ذا غناء، ذلك ان الرجل في مكانها من الدولة لا يملك من أمره الخاص كثيراً، فضلاً عن شؤون المملكة.

إن ملك انجلترا لا يستطيع تصريف شيء من أمر الدولة إلّا ما يسمح له به، بل ليست له الحرية الشخصية في التنقل والتحرك والاتصال إلّا بإذن رئيس الحكومة، وبياناته وأعماله بأمر الحكومة، وهاك الملك الأسبق الذي لم يستطع التزوج بمن ارتضاها لنفسه فتنازل عن العرش ليخرج من ربقة الحجر عليه، فالملك أو الملكة رمز استقرار، والأمور كلها بيد الحكومة.

إلى هنا وأرانا انتهينا من النص الوحيد الذي استدلت به اللجنة على منع، المرأة من البرلمان وليس فيه دليل.

وكأني بالقاريء الآن يستوضحني الرأي الذي أراه في دخول المرأة البرلمان.

وهنا أورد ما أوردته اللجنة بين يدي بحثها، مما يعلمه كل دارس للإسلام، ويقرره كل منصف ولو كان من غير أهله حيث تقول اللجنة بحق:

«وهذه المصادر والأدلة (الكتاب والسنة وما يرجع إليهما) بما اشتملت عليه من المبادىء العامة، والقواعد الكلية، لا تضعف عن النظر فيما يجد في الحياة من مشاكل، ولا تأبى الأخذ بما فيه مصلحة، إلّا أن تكون مصلحة براقة تلوح لبعض الأنظار من بعض النواحي، على حين تلازمها مفسدة مثلها أو أعظم منها، فمثل هذه المصلحة تلغيها الشريعة ولا تأبه لها».

فلننظر إذاً على هذا النحو لنرى هل يكون اشتراك المرأة في البرلمان خيراً للدولة وللمرأة؟.

من المعقول أن يكون دخول المرأة البرلمان حافزاً لها ــ إثباتاً لجدارتها، وتبريراً لموقفها ــ أن تتقدم بالمقترحات الهامة في محيط الأسرة وغيرها لإصلاح بعض النظم المنحرفة أو الخاطئة، وهذا حسن.

ولكننا على ثقة من أن هذا الخطأ الواقع في بعض النظم، وما يصيب الأمة من جراه، ما جاء إلّا لأنه منقول عن الغرب تقليداً ومسايرة بغير تمحيص دقيق لما يفيد المجتمع الشرقي وما لا يفيد، أو لتقصيرنا في الاطلاع على الفقه الاسلامي وتفهم روح التشريع، وسنظل حتمًا في أخطاء متلاحقة، نصلح جانباً بإفساد آخر مهما عمل الرجال والنساء، ما دمنا بعيدين عن روح الإسلام وهداه، ولو طبقنا الإسلام بروحه السمحة المشرقة لما كانت هناك شكوى، ولما اضطرت المرأة إلى تحمل الأعباء الثقال، لتدفع عن نفسها غلواء الرجال.

ثم طريقة دخولها البرلمان، أن يكون بالانتخاب أم بالتعيين؟.

وفي الانتخاب يجمع المؤيدون والمعارضون على ان عملية الانتخاب بصورتها المعروفة، وفي أيامنا هذه مما ينبغي أن تصان المرأة منه، حفظاً لشرفها وكرامتها، ولذلك آثر الداعون لذلك أن يكون تمثيلها في البرلمان على طريقة التعيين، وإن كان ذلك، فلا أظن أننا نتجاوز فيه ما هو عند الغربيين، وتقول زعيمة المعتصمات في ذلك:

إني لا أريد أن تمثلنا في البرلمان سوى ست أو سبع سيدات على الأكثر، فان نسبة السيدات في جميع البرلمانات الأخرى الممثلة فيها المرأة لا تزيد عن ٢ ٪ أو ٣ ٪ وهكذا يكفي.

فإذا كان يكفي الزعيمة ست أو سبع في مئات الأعضاء من المجلسين، فهل هذا العدد أو ضعفه سيكمل الحياة النيابية، وينهض بما عسى أن يقصر فيه الرجال؟ وهل هذا العدد لو رأى رأياً في صالحه يستطيع فرضه على الآخرين؟.

إننا لم نحتج على المرأة بما جُبلت عليه من حساسية قوية، وتأثر شديد،

وما ينالها من العوارض الطبيعية الخاصة بها، بل وما يوحي به خَلقها، وينطق به تكوينها الجسماني، من استعدادها الفطري لميدان غير ميدان الرجال، لم نحتج بكل هذا، لأنه كما يتأتى بالنسبة للبرلمان،يتأتى بالنسبة لكل عمل هام تتولاه المرأة في الحياة العامة.

إننا لا نرحب باشتراك المرأة في البرلمان، لا لأن البرلمان ولاية عامة وليست هي أهلاً لها، ولكن لأنه لا نفع يرجى من اشتراكها في البرلمان، والضرر في ذلك غير مأمون.

إن التاريخ أعدل حاكم، وأصدق شاهد في الموضوع، إنه يحدث عن مجد اليونان والرومان والفرس والعرب، ويذكر أن المعول الوحيد الذي هدم المدنيات العريقة، وأتى على بنيانها من القواعد، فخرت شوامخها كثيباً أهْيَل، هو الترف الذي انغمست هذه الشعوب فيه، وذروته خروج المرأة إلى الحياة العامة، وتدخُّلها في شؤون الدولة وسياستها، وما يصحب ذلك من تحلل وإباحية وانتكاس.

جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر، على ما أورده المرحوم فريد وجدي في دائرة معارفه ما يأتي[1]:

كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال، وكن يشتغلن في بيوتهن، أما الأزواج والأباء فكانوا يقتحمون غمرات الحروب... في ذلك الحين، حين احتجاب النساء، برع الرومانيون في كل شيء، نحتوا التماثيل، واستبدوا بصولجان الملك والعظمة دون سواهم من الأمم، ولكن دعاهم بعد ذلك دواعي اللهو والترف إلى إخراج النساء من خدورهن، ليحضرن معهم مجالس الأنس والطرب، فخرجن كخروج الفؤاد من بين الأضالع، فتمكن ذلك العنصر المهاجم (الرجل) لمحض حظ نفسه من إتلاف أخلاقهن، وتدنيس طهارتهن، وهتك حيائهن، حتى صرن يحضرن التياترات، ويغنين في المنتديات، وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول في تعيين رجال السياسة وخلعهم،

---

(١) الجزء الثامن، ص٦١٨.

فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدري ولا تدري، حتى إن القاريء للتاريخ ليدهش، حينما يرى ذلك الصرح الروماني الباذخ، قد هدمته المرأة حجراً بعد حجر بيديها الرقيقتين، لا سوء نية منها، ولا لأنها مفطورة على الشر، بل لافتتان الرجال بها، وتناظرهم عليها، هذه حقيقة سياسية، لا مجال للجدال فيها.

كذلك أودى بالفرس اشتراك المرأة في سياسة الدولة ووصولها إلى عرش المملكة، والعرب من بعدهم دال عزهم وذهب ريحهم، بتدخل المرأة سافرة أو مقنعة في الشؤون السياسية للأمة، وإذا كان الكلام عن الرومان والفرس والعرب يعد كلاماً عن القديم لدى أبناء القرن العشرين؛ فهذا هو عصرنا الحالي، وتاريخنا الحاضر، وتجاربنا الخاصة كفيلة بأن تسفر عن وجه المسألة بما لا يدع مجالاً لمرتاب في أن سنة الله لن تتغير في أمة أو جيل.

بدأت مصر عهدها الحديث في عدد لا يجاوز الملايين الثلاثة من المواطنين تابعة لسلطان تركيا سياسياً، كما هي تابعة له روحياً، فلما انتفضت غاضبة على تركيا وولاتها الغاشمين، لم يكفها تحرير نفسها من سلطانها، بل سارت جيوشها مظفرة في شمال سوريا حتى قلب الأناضول، ولولا تألب الدول الأوروبية خشية قيام الامبراطورية المصرية، لحملت مصر لواء الخلافة آنئذ على أنقاض تركيا، كذلك ارتفع لواؤها من قبل فوق الأراضي العربية، وعبرت البحر إلى ربوع اليونان، تنجد في الحالتين دولة السلطان. ولو رُزِق ذلك الرجل الذي قادها حينذاك حظاً وافراً من العدل فلم يُنكل بمن أعانوه وناصروه، وأخلصوا له يوم ألبسوه خلعة الولاية على البلاد، من علماء مصر وزعمائها ورجالاتها، لكان لها الآن شأن وأي شأن.

وسل نفسك أين كانت المرأة المصرية في النهضة الكبرى زمن محمد علي ليأتيك الجواب شافياً بقرارها في كنِـها، تؤدي دورها أكمل الأداء.

بل أين كانت قبل محمد علي يوم أبلت أروع البلاء وأقواه، يوم ساهمت مع الرجل في إدارة رحى القتال، ودافعت الغزاة الفرنسيين في كل بلد وعن كل

شبر من أرض الوطن، في اسكندرية بأعلى الأسوار، وفي داخل المدينة، مصوبة الرصاص من نافذة بيتها إلى صدر نابليون، ولولا القدر يساعفه لخط التاريخ مصرعه بيد مصرية من السكندريات، وفي دمنهور، وفي العاصمة، وفي المنصورة وسواها من المدن والقرى، بحيث لم ينل المحتل من مقاومة الأهالي وثوراتهم ـ على تحببه إليهم وإعلانه الدخول في الإسلام ترضية لهم ـ راحة ترد عليه أنفاسه اللاهثة، إلى أن جلا عنها يائساً حسيراً.

لقد كانت المرأة في بيتها، تعكف على ما تحسن من شؤونها المنزلية، تاركة للرجل أعباءه الخارجية، حتى إذا روّع الوطن بالدخيل، وقفت من خلف أبيها وأخيها، وزوجها وولدها، تشد أزرهم، وتسند ظهورهم، وتروي ظمأهم، وتأسو جراحهم، وربما احتملتها الحمية فتلقت الرصاص بصدرها من دون صدورهم. يقول الكابتن فيروس[1]: يصف دفاع الأهالي عن بعض القرى، وصدهم الفرقة المغيرة حتى استنجدوا بالقيادة العامة: وجاءنا المدد.. وقتلنا من الأعداء [الأهالي] من ٤٠٠ ـ ٥٠٠ بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام.

وتجاوَزْ أول العصر الحديث إلى ألصق أيامه بنا وأقربها إلينا، إلى القرن العشرين، وهذه مصر بحمد لله تضاعف عديدها، وعظمت مواردها، ورقت من سلم العلم والمدنية درجات ودرجات، وهذا زعيم الأمة في حفل تكريمه بعد عودته من منفاه، يتقدم إلى أقرب امرأة فيمزق النقاب عن وجهها، وتلتهب الأكف النواعم والخشن بالتصفيق المتواصل تحيي الزعيم، لإعلانه عيد الحرية بالنسبة للنساء، واقرن مع هذه الصورة صورة الجهاد الوطني التي شَركتْها في الزمن، سائرة معها متجاورتين متجاوبتين، لترى صورة من التهريج السياسي، في شكل أحزاب وهيئات رجالية، وأخرى نسائية، تستمر في كفاحها للمستعمرين نيفاً وثلاثين عاماً من ذلك التاريخ لم تنل منالاً، ولم تحصل على طائل بل لقد

(١) ص ٣٢٥، الحركة القومية للرافعي.

انحدرت البلاد في أخلاقها إلى مهوى سحيق من الانحلال جاوز مداه، حتى لم تعد تشكو وجود المحتل فحسب، بل ضروباً لا تحصى من المشاكل الخلقية والاجتماعية والاقتصادية، وصار من المألوف مطالعة القوانين بعد القوانين لمنع معاكسة السيدات في الطرقات!!! بل تقدم الأمر خطوة إذ تقدم كبير من رجال الأمن، محافظ سابق لدمياط، إلى وزارة العدل باقتراح يطالب فيه بضرورة سن تشريع يكفل حماية الرجال والشباب من النساء اللائي يقفن في الطرقات والميادين للإغراء والتحريض على الفجور[1]... وأيامنا القريبة وما داخلها من فساد في الأخلاق والسياسة مريع، أطاح بالملك السابق، ونحيّ مشايعيه من الأحزاب، لم تغب بعد عن الأذهان... وحفلات شويكار، والمواساة، ومأساة فلسطين، وأسلحتها الفاسدة[2]، وتدخل سيدات القادة والوزراء، مما كشفت عنه تحقيقات الجيش، ومحكمة الثورة كل ذلك قريب ومعروف، ولا حاجة إلى الإطالة فيه، ولولا رحمة الرحمن بكنانته أدركتها بالثورة المباركة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لارتكست البلاد في هوة سحيقة لا يعلم مداها إلّا علام الغيوب.

فأين هذا من حمية الأهلين وحفاظهم وسلامة أخلاقهم، سلامة أتاحت لهم أن يدافعوا الفرنسيين أروع دفاع، حتى استلوا من الغزاة إعجابهم فأشادوا بشجاعتهم، كما سجلوا بلسان مؤرخيهم وعلمائهم ما كان المصريون عليه من أمانة وصدق. جاء في فصل عقده المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية عن تخطيط القاهرة، أثبتته الحملة في المجلد التاسع عشر من كتاب وصف مصر، أن مما استلفت نظره: (كثرة الوكائل التجارية في بولاق، ووفرة الغلال التي كانت تكدس على ساحل النيل بلا حراسة، وبغير أن توضع في مخازن). قال مسيو جومار: «إن الثقة بين الناس في مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يدٌ إلى تلك الغلال، وهذا يدلك على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصري» هكذا يشهد للمصريين شاهد عيان من

---

(١) ١٩٥٣/١١/١٥، المصري وأحيل الاقتراح إلى إدارة التشريع لإبداء الرأي فيه.

(٢) أو المدّعى فسادها.

الفرنسيين المحتلين تسجل شهادته في أعظم أثر علمي، تفتخر به تلك الحملة أو يفتخر به الفرنسيون من بعدها حتى اليوم(1).

فتلك أخلاق مصر وهي ترنو بعين كليلة إلى الإسلام، في عصر نعده من أوهن العصور، وأقربها إلى الظلمات، لزمت المرأة فيه بيتها إلّا لحاجة ظاهرة أو ضرورة قاهرة.

وهذه آلام مصر، وهي تنظر بعينين شاخصتين محملقتين إلى الغرب ومدنية الغرب، وتجري في ركابه، تقليداً لبهرجه، لا تعرفاً لحقيقة أمره، أو انتفاعاً بصواب ما وصل إليه، واعتباراً بخطأ ما وقع فيه، حتى ليُنعى على دعاة الفضيلة والأخلاق الكلام على الأذرع العارية،لأنهم بذلك يشغلون الأمة عن أهدافها. !!!

ولئن عزا الباحثون ما نشكوه إلى امتداد موجة التحلل والإباحية التي أعقبت الحربين الأخيرتين، فأهوت بالمعاول الشداد على المثل العليا في العقائد والأخلاق والآداب، وأفزعت المفكرين وذوي الرأي من رجالات الغرب، فذلك نفسه يوجب علينا ألا نندفع في التقليد ونسرف في المحاكاة، ولن يكون من ضرورة الرقي أن نساير مظاهر الغرب شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، كما لن يكون إعفاء المرأة من أعباء الانتخاب والسياسة إزراء بها وتحقيراً لها، فهي بنت الناخب وأخته وأمه، وهي ملكة البيت وربته، وليس منع الجيش من التصويت والتدخل في السياسات عند معظم الدول المتحضرة تحقيراً له واستهانة به، وهو حامي حمى الوطن، وسياج عزه ومنعته.

والحياة الراقية تعتمد التخصص في الأعمال، كما تعتمده في العلوم والفنون، ليتسنى الاتقان في مرافق الدولة كلها، ومن جميعها يقوم البناء شديد الكيان، قوي الأركان.

وقبل أن نختم هذا الفصل نسجل هنا على دعاة حق الانتخاب والسياسة

---

(1) حقائق ــ المقال الافتتاحي في مجلة الأزهر، عدد ٦، المجلد ٢٥، لرئيس التحرير الأستاذ محب الدين الخطيب.

للسيدات، إسرافهم في الدعوى ومبالغتهم في تصويرها، فقد دأبوا على تكرير القول بأن منع المرأة من البرلمان عبودية ورق، يجلبان العار والشنار على بلدنا العزيز، وخير للمرأة إذا لم تظفر بحريتها الكاملة أن ترحل من بلد تقيم على الضيم فيه، ولقد بلغ من إسرافهم أن عد اتحاد النساء مساواة المرأة بالرجل أقل ما ينبغي لها من كرامة واعتبار، كفاء ما تقوم به من مهام وأعباء.

فقد أرسل الحزب الاتحادي النسائي إلى رئيس الجمهورية السابق يطلب المساواة بالرجال (على الأقل) واحترام توقيع مصر على ميثاق حقوق الإنسان وجاء في برقيته ما نصه: «وما دامت المرأة المصرية عليها التزامات الرجل ومسؤولياته فلا أقل من مساواتها به، وبذلك يكون الدستور الجديد أقر الأمر الواقع، وهو تحميل المرأة نصيبها في بناء مصر»[1].

تضاحك صاحبي وهو يسمع ذلك الذي نقرأ، وسأل سائل: إن كانت المساواة على الأقل فماذا على الأكثر؟ وأجاب مجيب..

وقد يكون ذلك الإسراف تطرفاً وتكلفاً، أو تفكها وتظرفاً، وقد يكون دليلاً على حذقهن الأساليب السياسية، إذ يطلبن أكثر مما يرتجين، توصلاً إلى ما يرتجين، وعلى أي حال من أحواله فكان خليقاً أن نمر به متجاوزين، غير أن بعض من نجل ونكبر من قادة الرأي في الأمة، وذوي الحصافة المعروفة، والمواقف الوطنية المشهودة، ردد نفس هذه الأقوال، فسمعنا رجلاً كالدكتور علي ماهر رئيس لجنة الدستور يقول في بيان إلى المعتصمات بعد أن طمأنهن إلى نيل مطالبهن بالطريق الدستوري: «كما يهمنا لسمعة مصر في العالم أن تظفر المرأة المصرية بالمساواة السياسية مع الرجل» فكان لزاماً أن نقف قليلاً إزاء هذا القيل، لنقول بدورنا لكل من تهمه سمعة مصر مخلصاً، إن هذه السمعة والكرامة ليست في المساواة السياسية، وليست في مجرد المجاراة والتقليد، إنها في أجل من ذلك وأخطر، وإليهم جميعاً ــ تطمينا لهم ــ أهدي بعض الحقائق التي سجلها مؤتمر عالمي، لا من الرجال، ولكن من صفوة النساء القانونيات، وشهدته مصر لأول

(١) الأهرام: في ١٣/١٢/١٩٥٢.

مرة وتناقلت أنباءه صحف العالم، وأشرت إليه في كلمة قصيرة بعثت بها إلى صحفنا الكبرى[1] التي ضنت بنشرها، وها هي ذي بنصها:

«المصرية أكثر نساء العالم تمتعاً بالحقوق»

لعل هذا العنوان غريب في موضوعه، وبخاصة في هذه الأيام التي يثور فيها فريق من النساء ثورة الحياة أو الموت، على ما هن فيه من استعباد وظلم، دفعهن إلى الاعتصام بنقابة الصحفيين، للظفر بحقوقهن السياسية، مؤثرات الموت على العبودية.

ولكن هذا العنوان على غرابته ليس من وضعي، بل هو عنوان سجلته الأهرام في سبتمبر من العام الماضي، حينما روت أنباء المؤتمر الذي عقدته القانونيات العالميات في مدينة تورنتو بإيطاليا، ومثلت مصر فيه لأول مرة.

وبحثت المؤتمرات موضوعاً طريفاً في بابه، ذلك ما سمي بحقوق الأم الآنسة، أي التي أنجبت ولم تتزوج، وترتيب حقوق لها ولولدها قبل أي رجل يتصل بها، وقد وفقت مندوبة مصر على ما روته الأهرام توفيقاً كبيراً.

ومن الحق بيان أن هذا العنوان الذي أذكره للأهرام، ليس من وضعها لتلفت نظراً أو تثير اهتماماً، بل هو قرار المؤتمر نفسه، حيث قالت الأهرام بعد نقل أخبار المؤتمر وما دار فيه: «ثم أخذت الأصوات لمعرفة الدولة التي تتمتع المرأة فيها بأكبر قسط من الحرية، وأكبر قسط من الحقوق، فاتفق المؤتمر على أن مصر هي أول دولة في هذا الصدد».

ويهمنا أن ننظر على ضوء هذه القرارات التي اعترفت بها القانونيات العالميات للمرأة المصرية، ونسائل أنفسنا من أين جاءتها الحرية الكاملة التي سبقت بها نساء العالم أجمع؟. ألتفوق مصر على العالم في معارفها وعلومها. وفي صناعاتها واختراعاتها ومدنيتها؟. أم هو لشيء آخر؟.

---

(١) بعثت بها إلى الأهرام والجمهورية والمصري أثناء الاعتصام.

إن بداهة النظر تقضي بأن تفوق المرأة المصرية في حقوقها، إنما هو أثر من آثار دينها، ذلك الذي سجل منذ قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان هذا المبدأ الكريم الخالد فقال في كتابه «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة» فكان ذلك المبدأ خالداً بحكم الفطرة السليمة في خلق الله، لأن النساء شقائق الرجال.

وإذا كان للرجال عليهن درجة، فذلك هو الواقع الملموس من عالم الأحياء.

وهي درجة تزيد في أعبائهم، وتضاعف من واجباتهم، وتقفهم موقف المسئولين عن أنفسهم وعمن حولهم.

وهي درجة تصلح بها الحياة، ويعتدل بها الميزان، وتتوحد الوجهة، ويستقيم عليها الأمر.

فهل لأولئك العزيزات المعتصمات أن يطلبن ما شئن من حقوق، على أن يكون ذلك في موضعه المعلوم من أنها مطالب الرفاهة، والأبهة السياسية، التي لا يروقها البيت وأعباؤه، ولا يشبع منها نوازع الترف؟[1]. .

---

(١) من طرائف أنباء الاعتصام النسوي ما رواه الأستاذ فكري أباظة عند زيارته لهن إذ يقول؛ وعندما دخلنا غرفة المعتصمات في صباح اليوم التالي، كانت المضربات في ثيابهن المنزلية، بينما ظهرت زعيمتهن في أكمل زينتها، فقلنا لها: إن الإضراب عن الطعام يعني الحرمان من إحدى ضروريات الحياة، ومادام الأمر كذلك فلم لا تقلعن عن الكماليات؟ ــ أية كماليات؟ ــ المساحيق، (كالبودرة والروج، وأحمر الشفايق). وابتسمت الدكتورة درية وقالت: ــ لا . . . إلا هذه، ومن ناحيتي فسوف أحرص على أن أبدو في كامل زينتي حتى لا تقوى يداي على عمل «التواليت» لا تنسوا أننا نساء قبل كل شيء . . . المصور في ١٩٥٤/٣/١٨.

ونحن من جانبنا لا ننسى أنهن نساء. وأنهن في حاجة إلى الزينة. وأن للزينة آنا غير هذا الآن، ومكاناً غير هذا المكان ــ ثم لو ظفرت الدكتورة بالبرلمان فهل ستحرص على أن تبدو في كامل زينتها؟ ــ ولم لا؟ ومن أسلحة المرأة جمالها؛ لقد ذهبت مظاهرة إلى مجلس العموم في بريطانيا، واستعانت باثنتين من ملكات الجمال.

ذلك أن المرأة لم تكن يوماً ــ ولن تكون ــ مستعبدة في بلد دينه الإسلام والسلام.

ذاك ما قلته آنذاك، وضنّت صحفنا الماجدة بنشره على كرمها الحاتمي في نشر الكثير عن هذا الموضوع.

والآن فنحمد الله على هذا الدين الذي ما زال إلى القرن العشرين سباقاً لكل ما ظهر على وجه الأرض من مدنيات، وسيظل حتمًا على سبقه إلى الحق والخير والمدنية الصحيحة الكاملة، ما دام هو تنزيل العليم الخبير، ولو كره الكافرون، وأنكر الجاهلون.

أما أولئك المتباكون على سمعة مصر أن لم تركب المرأة المركب الخشن، وتسلك الطريق الوعر الذي أدمت أشواكه وأحجاره من سلكنه قبلها، فلعلهم بعدُ أن يقروا عينا، ويطمئنوا بالا، ولعلهم يعلمون بأن مصر بتعاليم دينها ــ لو شاءت ــ أعز جانباً، وأثبت ركناً. والمرأة بنعمة إسلامها أكثر حقاً وأرفع شأناً.

ولو شاءوا أن يكونوا قادة ورأساً. لا ساقة وذنبا. فليتموا نعمة الله عليهم بإقامة أركان دينهم بتمامها. ويطبقوا تعاليمه السامية بنصها وروحها. إذاً لحقت لهذه الأمة زعامة الأرض وخلافتها. وعادت خير أمة أخرجت للناس. ومُكن لهم دينهم الذي ارتضاه خالقهم. كما وعد سبحانه المؤمنين الصادقين إذ يقول: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم. وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾(١).

وبعد: فإذا كنا لا نرحب بدخول المرأة البرلمان فلأنه كما قلنا لا خير يرجى منه، والضرر فيه غير مأمون، وليست هي الدعوى بغير دليل. وليست هي الدعوى يقوم عليها دليل يعارضه آخر أو يلاحيه. بل هي الأدلة القاطعة من القديم والحديث يطبق عليها الواقع. ويشهد بها التاريخ. وتطرد عليها سنن الاجتماع.

---

(١) سورة النور: آية ٥٥.

المرأة والشواطىء

الهدوء والراحة والاستجمام من عناء العمل، وكفاح العيش، وجهاد الحياة حق أولي للعامل المجدّ، وأمر طبيعي تمليه القواعد الصحية، والضرورات الحيوية، والنظم الاقتصادية، ويدعو إليه الدين ويأمر به، وفي الحديث الشريف «إن لبدنك عليك حقاً». وبالترويح عن النفس تثوب إلى العامل قوته، وتشحذ عزيمته، ويتجدد نشاطه ويقبل على عمله راضياً باسماً.

وقد حبا الله مصر شواطىء فسيحة، تمتد من غـزة في فلسطين إلى الاسكندرية ومرسى مطروح، كذلك شواطىء البحر الأحمر، والنيل وقناة السويس، حيث يتسنى للمصريين جميعاً ــ لو شاءوا، وشاءت حكوماتهم ــ أن يتمتعوا صيفاً بجو البحر النقي، وينعموا بنسيمه الصافي الجميل. وفي ذلك ما فيه من صلاح للأجسام والعقول، وصفاء للنفوس والقلوب ــ وفي وسع الأطباء أن يحدثونا بالشيء الكثير، عن أثر الشواطىء في الصحـة الجسمية والنفسية، وعما يحمل هواء البحر من «اليود»، وما يجدد من الدورة الدموية . . .

والمصايف معروفة في القديم والحديث، والشرق والغرب، وكان عظماء العرب يصطافون في الأماكن المعتدلة صيفاً، تحاشياً لوقدة الهجير، ولفحة الحر، ومن أشهر الأماكن عندهم مدينة الطائف، وما تزال إلى اليوم مصيفاً يؤمه سادة العرب وأعيانهم[1] كذلك بعض جهات نجد، وإقليمها أصح بلاد العرب وأطيبها هواء ولذا تغني به الشعراء قديماً. فقال قائلهم:

---

(١) محاضرات التاريخ العربي للأستاذ محمد سليمان بدير بكلية أصول الدين.

قفا ودِّعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن تُودّعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربّعا

وقال غيره:

ألا يا حبذا نفحات نجد ورياطيبها بين القفار

* * *

والآن وقد أصبح موسم الصيف عندنا في مصر جزءاً من حياة الألوف المؤلفة من عامة الشعب، فلنلق نظرة سريعة على أهم هذه الشواطىء التي يؤمها المصطافون حيث يقضون الأسابيع والشهور على الشاطىء الجميل ـ تعال معي إلى هؤلاء الذين هرعوا إلى البحر، يتخففون من عناء العمل، ومشاق الحياة وجهاد العيش، ويستروحون بطيب الهواء، وروعة الماء، وجمال السماء، ويستردون صحة النفس، وقوة الجسم، وراحة الأعصاب، لعلهم قد سعدوا في فراغهم بالنافع المفيد من الرياضة البدنية، والمطالعات الأدبية، والثقافات العقلية، وتعاهدهم ذوو الرأي من الأمة بالشيق اللطيف من التهذيب والتثقيف والتوجيه السليم، والإرشاد الحكيم، وتنبيه القلوب، وملئها بجلال علام الغيوب، من وحي ذلك المشهد الرائع، بين اليابسة والماء، وعلى بساط الأرض وفي ظلة السماء، فطهرت الأفئدة، وصفت النفوس، وفاضت من القلوب مشاعر الخير، حتى إذا عادت من المصيف إلى مكانها من الواجبات والأعباء، عادت إلى الأمة رسل هداية ورحمة، بما ابتعثه جو صالح، ومجتمع خير، ونظر سليم في ملكوت السموات وبديع الآيات.

ولكن ماذا نرى؟ أهؤلاء هم المصيفون؟ وهؤلاء قومنا أم هم قوم آخرون؟ ما بالهم متجردين؟ ما لهذه الأجسام، وقد منّ الله عليها بالتكريم، وخلقها في أحسن تقويم، وكساها بأنعمه، وزانها بزينته، ترتد مختارة إلى أسفل سافلين؛ فتنتزع عنها أستارها، وتبدي للناس عارها، ما بال هذه الفئة من الناس؟ أشاقتهم حياة الغاب؟ أم أثقلتهم رقاق الثياب؟ أم فدحتهم تقاليد الأخلاق والآداب؟ أم غرر بهم من الإنس شياطين، «يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا».

ثم ما بال هذا المحافظ بينهم؛ ذلك الرجل الكاسي، ومعه امرأته

الكاسية، ومن بين يديها ومن خلفها، وعن يمينها وشمالها الشباب الناضج المكتمل من الرجال، قد لبس ملابس البحر، وأخذ حظه من الماء، وسبح ما شاء، وصارع الأمواج، ثم خرج إلى الظلة فاستلقى أو جلس يسامر صاحبه، تُرى هل هي في شُغل عنه بزوجها؟ أو لعلها اعتادت هذه المناظر وألفتها، فلم تعد تثير انتباهها، أو تشغل بالها، أو تحرك شيئاً من غرائزها.

وهذا الرجل نفسه ومعه امرأته الكاسية، وذلك سرب من الظباء الرشيقات عاريات أو شبه عاريات، ينزلن إلى الماء يسبحن ويمرحن فيه. لعله كذلك في شغل عن السابحات ـ ولسن الفاتنات ـ غني بزوجته، أو هو اعتاد ذلك المنظر فلم يعد يحرك منه ساكناً.

أما الشباب الأعزب الثائر من فتيان وفتيات، وشباب وشابات، فإنه ينفس عن نفسه بمنظر تلك اللحوم الغريضة، المختلفة الأحجام والأوزان، والأشكال والألوان، وسوف يألف بدوره تلك المشاهد، فلا تعود تأسره أو تسحره[1] هكذا يقول بعض الكاتبين، يهونون العرى به على المتعرين.

فما أحوجنا إذا أن نروض الغرائز الجامحة بمثل هذا العلاج لو صح ما يزعمون، ولو صح لبطل كل شوق من زوج لزوجته، ومن زوجة لزوجها، إذ هما معاً متلازمان،وجهاً لوجه في الصباح وفي المساء، وقد ألِفَ كل صاحبه وخبره، وعرف خافيه وظاهره، فخبت لذلك رغبته، وخمدت غريزته، وسكن جائشه ولو صح ما كانت حياة، ولا كان إنسال.

يقول قائلهم: إنما تثير هذه المناظر أولئك الذين ألفوا التشدد والمغالاة في الحجاب، لأنهم لم يألفوا ذلك ولم يتعودوه، فغرائزهم مكبوتة تحاول متنفساً لتسرع إليه، أما ذلك الذي اعتاد أن يحيا حياة حرة طليقة فليست هذه المظاهر بالشيء الجديد عليه، وليست تثير منه ما تثير من صاحبه، بل ليست خطورة التكشف بأشد من خطورة التصون المتكلف، والتحفظ المتزمت «وأحب شيء

(١) انظر الفصل الآتي المرأة والأقلام المسمومة.

إلى النفس ما منعاه» ـ ثم إذا شب الصغير على هذه الحياة، لم يجد فيها أمراً غريباً حينما يبلغ مبلغ الرجال.

فهل من الحق أن إلف هذه المناظر، وذلك الاختلاط العاري يجعله أمراً عادياً لا يؤبه له ولا يلتفت إليه؟.

وهل نشأة الصغير عليه تجعله كعادة المشي لا يفكر فيه، ولا يلحظ كيف يخطو، أو كعادة الكلام، أو كمضغ الطعام، من كل شيء لا يثير التفاتاً، ولا يبعث انتباهاً؟.

ولو كان العرى عندهم لدواعي الصحة والرياضة، والتمتع بشمس البحر وهوائه الجميل، فهل يخلع الرجل منهم ملابسه لو كان وحده على شاطىء الماء؟ وهل تعرى المرأة من أستارها لو عرا المكان من الرواد؟ وهل يتكشف أحدهما لو كان في شمس بيته قريباً من البحر؟.

أو هي اللذة الجامحة، والشهوة العارمة، أضرامهما التحلل والتبجح والاختلاط، وهون الأمر فيه وفلسف له أقلام آثمة، وآراء مسمومة، وصمت عَييٌّ في سياط القانون.

يقولون: إن تكرار لذة حسية بعينها يضعف أثرها، ويفضي في الغالب إلى فقد الرغبة فيها ـ فهل كانوا على شيء من الصواب أو أن العادة ـ وهي كما قيل طبيعة ثانية ـ إنما تنشأ بالتكرار والمرانة والاعتياد؟.

إن علماء النفس: قد كفونا الجدل الكثير حول هذه الأمور. فقد قرروا المشاهد المحسوس، من أن اعتياد عمل من الأعمال يصيره عادة لا تستطيع النفس عنه انفكاكا بغير عزم شديد.

وقالوا[1]: إن كلّ عملية نفسية من حس وتذكر وتخيل وتفكير، وانفعال ورغبة ونزوع إلى عمل معين، تاركةٌ في النفس أثراً باقياً معروفاً عندهم بالميل النفساني. وتكرار عملية نفسية يزيد أثرها عمقاً. ويحدث في المرء ميلاً إلى سلوك

---

(١) من كتاب أصول علم النفس للأستاذ مرسي قنديل جـ١ ص٣٨.

مسلك خاص، يقتضيه هذا الأثر الذي تركته هذه العملية. وكلما ازداد تكرارها ازداد الميل تمكنا ورسوخا. ولذلك أثره الواضح في تكوين عادات المرء وسلوكه وأخلاقه في النهاية.

وقرروا: أن أساس العادة في الإنسان مرونة الأعصاب[1]. ولقد بلغ من أمر التكرار. وما يخلف من آثار، أنه لا يؤثر على الكائن الحي فحسب. بل يفعل فعله في الجماد: «فكل يعلم أن الملابس الجديدة تتخذ شكل الجسم وتنطبق عليه بعد أن تُلبس مرات... وأن القفل يسهل فتحه وإغلاقه بعد أن يعمل المفتاح فيه عدة مرات... وأن الورقة إذا ثنيت مرة ثم طبقت اتخذت شكلاً خاصاً، يسهل معه تطبيقها في المرة الثانية من غير ضغط عليها. وأن صوت القيثارة ليحسن في يد الموسيقي القدير، لأن ألياف ما فيها من الخشب تتخذ نظاماً خاصاً في تذبذبها. يصبح عادة فيها ملائمًا لها... وأن الماء بجريه المتتابع يحفر له مجرى يتسع ويزداد عمقاً، فإذا غاض ذلك الماء مرة ثم عاد إلى جريه سار في مجراه القديم الذي احتفره لنفسه أول مرة[2]» ومن هذا ما يحدث في الجسم الحي، ونسيجُ الجهاز العصبي أسرع قبولاً للتأثر والتشكل من سواه، كما أن المرونة في الطفولة والشباب أكثر منها في الرجولة والكهولة ــ وكما تكون العادات في الخلق وفي الوجدان، تكون في سلوك الإنسان وأفعاله اليومية الظاهرة، وهذا يزيد في قيمة العادات الطيبة ونفعها، ويجعل السيء منها كبير الضرر شديده، فالعادة كما ترى خير صديق، وألد عدو[3].

فما يغالط فيه المغالطون من ضعف تنبه الأعصاب للمعتاد، إنما هي سهولة التأثر، وسرعة القبول، حتى يصير ما اعتاده راسخاً فيه، يسهل إتيانه والسير بمقتضاه، بل يشق الانفكاك منه والتخلي عنه. وما الإدمان إلا أمر اعتاده صاحبه ومرن عليه، حتى أفقده اختياره أو كاد «ومن شب على شيء شاب

(١) المصدر السابق ص ٣٥، وما بعدها.

(٢) اقتباس من وليم جيمس نقله صاحب المصدر السابق ص ٢٢٦ وأشار إليه كتاب علم النفس والأخلاق تأليف ج. آ. هادفيلد. ترجمة الأستاذ أبو العزم.

(٣) المصدر السابق باختصار.

عليه» ـ وشتان بين عمل آلى قلما التفتت النفس اليه، وبين آخر ينبه الغرائز ويثيرها. . وذلك ما جعل «ماك دوجل» يقول بضرورة وجود مدرك يدركه الإنسان ليستثير الغريزة(١).

* * *

هذه حقائق علمية نفسية، معروفة ومحسوسة، تدمغ زيف المبطلين، نسبناها إلى أصحابها من علماء الغرب الذين اعتاد هؤلاء أن يتمسحوا بهم، وينقلوا عنهم، ويتلقفوا آراءهم مكبرين.

فهلا يقنع أولئك بالإثم يقعون فيه فلا يحاولوا استدراج مواطنيهم إليه!! أم تراهم يدارون ضلال أنفسهم بإضلال الآخرين؟!!.

أم يموهون بالترهات ليكسوا عارى الفجور. مزقا من باطل الأهواء، وزيف الآراء، كي يواروا سوءة ما يفعلون؟!.

أم يحاولون التغرير بالضمائر إن أحست لحظة بالهون والخطر الجسيم؟ ألا فليتق الله أولئك الأقوام في وطنهم وفي المواطنين، ولا يجمعوا إلى أوزارهم أوزار الآخرين، فليتقوا الله الذي يميز الخبيث من الطيب «ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً، فيجعله في جهنم، أولئك هم الخاسرون».

* * *

أما أولئك المتعرون والمتعريات على الشواطىء، الأولى يعرضون أجسامهم عرض الرقيق. فلن يصيب إقناعهم قضايا العلم وآداب الدين، نقذف بها أقفيتهم وبين أكتافهم، فما حاجتهم إلى شيء من ذلك بمثل حاجتهم إلى سياط تشق منهم الجلود؛ بما سفكوه من إنسانية، وارتكسوا فيه من شهوانية، وانحطوا إليه من إباحية، وبما أبادوا في نفوسهم من بقايا الضمير، ونوازع الكرامة، وآثار الحياء.

وأي ضمير وأي كرامة لمن يتباهى بلحمه وتتباهى بشحمها أمام الناظرين والناظرات!!

إنا لا نخاطب هؤلاء ولا نحسبهم من أهل الخطاب، إنما نخاطب فتياناً

---

(١) ص ١٦٤. من المصدر السابق.

وفتيات، كراماً وكريمات، نشد من عزمهم، ونمهد بنور الحق سبيل العزة أمامهم، وندرأ عن طريقهم آثام الخاطئين، وأخطاء الضالين، فلا يأبهون بهم أو يبالون، ولا يعجبون بهم أو يغترون، وبآدابهم ودينهم يستمسكون ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث. فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون﴾[1].

الإباحية بعيدة عن كل دين وإنسانية:

ما أبعد هؤلاء المتكشفين والمتكشفات عن منهج الإسلام والمسلمين، فما ألفنا المسلمين عراة متجردين؛ لقد جاء الإسلام وبين البشرية وعهود الغاب ألوف السنين، وفي القرآن الكريم ﴿يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾[2]. وفيه ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ وفيه ﴿وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم... وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾[3].

وما أبعد المتكشفين والمتكشفات عن المسيحية. وإنها لتعد كشف الرأس من المرأة غير لائق؛ ولو كانت بين يدي الله[4].

وما أبعدهم عن اليهودية، وإنها لتأمر بالستر والاحتشام؛ حتى في أبعد المواطن عن الشبهات؛ في أماكن العبادة وتقديم القرابين[5].

بل ما أبعدهم عن الآدمية الكريمة التي فضلها الله على كثير ممن خلق؛ وجعل إليها خلافة الأرض.

إن الطائر يزينه الريش السابغ الجميل، وإن من الحيوان ما يكسوه الشعر الغزير، فهل رضي المتجردون لأنفسهم دون ما رضيته الطبيعة للحيوان؟.

---

(١) سورة المائدة: آية ١٠٠.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥٩.

(٣) سورة النور: آية ٣٠ ـ ٣١.

(٤) رسالة القديس بولس ص ٣٠٠ العهد الجديد من الكتاب المقدس.

(٥) ف ٢٨ من سفر الخروج ص ١٣٩.

لئن كنا نتحدث عن الأسرة وصلاحها ببعض الجد فماذا بقي لها بعد فوضى الشواطىء وعرى البلاج؟!.

كيف يستقيم رجل رضي لنفسه وآله التجرد من الخلق والدين حينما تجردوا من الثياب!

وكيف تؤمن هذه الفتيات والنسوة على بيوتهن وأعراضهن، وقد رأين الأجسام حظاً مشتركاً، وحقاً مشاعاً للناظرين؟.

وكيف يُبتغى منهن احتشام، ويطلب تصون، ويرجى من الواحدة منهن أن تكون حليلة زوج ترعاه، وتصون عرضه، وتحفظ غيبه، وكيف بأولياء هؤلاء، فقدوا الغيرة، ففقدوا الرجولة، ففقدهم الوطن، بل كانوا له داء من ألد الأدواء ـ إن الذي لا يغار على أهله وعرضه لن يغار على أمته ووطنه، وكيف يرجى لغيره من لا رجاء فيه لنفسه؟.

الإباحية وجدت قديماً:

وليعلم من لم يكن يعلم أن هذه الإباحية الفاحشة، والبهيمية المسلطة، ليست من خصائص المدنية الحديثة، ولا وقفا عليها. إنها حالات من المرض الوبائي تلم ببعض النفوس، فتصيب منها السويداء، ولا تلبث إذا مهدت لها السبل في غفلة من الصالحين أن يتطاير شررها، ويشتعل أوارها، ويتفاقم خطرها، فلا يقف عند موقديها، بل يأتي على الجميع فيذروهم ذرو الهشيم، ما لم يقم لها صالحون مصلحون يحاصرون وباءها، ويكافحون لهيبها، ويتعقبون دعاتها، ويصرعون إثمها وفجورها، ليكفوا الناس شرها، ويدفعوا عنهم سوءها وداءها.

لقد وجدت الإباحية في الدولة الرومانية فهوى تاج عزها، وانفصمت عرى أوصالها، وخرت على أذقانها.

وقامت دعاتها في اليونان حينما تدلت مدنيتها، وأسفت فلاسفتها، وعرف من بينهم من بنى مذهبه على اللذة، وسمى أتباعه من بعده قطيع «أبيقور».

وراجت في الفرس واستكثرت من أنصارها، واستمال «مزدك» الشيوعي بدعوته الإباحية في الأموال والفروج ملكه المعاصر، فثار به الناس وخلعوه وفتكوا به، وجاء خلفه فقضى على «مزدك» وأتباعه.

إنها دعوة تستغل من الإنسان الجانب الحيواني، الذي جعله الله داعية النسل وسبب الحياة، وصانه بضوابط وحدود تقيه التبخر والضياع، فتحاول إزالة الحواجز والضوابط والحدود، حتى يسفح الماء ويغيض، وتنحل روابط الأسرة والمجتمع، ويصير أشبه بالسوائم المتناحرة، على شفا الهاوية من حفرة الفناء.

ضرورة الصدق في الإصلاح:

ألا فليتدارك المصلحون وذوو الغيرة والنخوة هذه الحال، ويكبحوا ما تطاير من شرر الإباحية، ودب من عقاربها وسرى من سمومها إلى المجتمعات والبيوت، وتسلل إلى الدور والخدور، وسكن بعض القلوب والصدور، قبل أن يعجز الداء، ويعز الدواء، ثم لا يرجى الشفاء.

إن أفدح الفوادح أن يُرى المنكر فلا ينكر، وأن يكتفي الصالحون بهز الرؤوس، وإظهار اليأس من الإصلاح، أو تهاجَم القشور، وتترك الأصول والجذور.

إن بعض المصلحين يتحدثون عن وجوب منع الصور الخليعة في الصحف والمجلات، وقد تركوا ــ ولعلهم مَلّوا ــ الحقائق الخليعة في الشواطىء «والبلاجات»، فهل رأيت داء يُكافح من جسم المريض على القرطاس، أو «ميكروباً» يقتله عدم تصويره للناس، أو عدواً مهاجماً يُترك شخصُه ثم يطعن في ظلاله، أو يُنال منه في مثاله وخياله؟!!!.

ألا فليصدق المصلحون حملة الإصلاح، وليكن رائدهم إن أرادوا فلاحاً كتاب الله وهداه، أو يريحوا ويستريحوا، فالعلاج الأبتر داء فوق داء.

لا بد للمسلمين من رأي ديني عام، وذوق إسلامي سام، ويقظة روحية نيرة، وصيانة لهذا المجتمع من الدمار، وضرب على أيدي العابثين المتحللين.

إن حكومة الثورة التي أخذت على عاتقها إرساء قواعد المجد لهذه الأمة، وأزالت من الحياة العامة كثيراً من رواسب الماضي وأوزاره، وقضت على الإقطاع، فأصلحت الجانب المادي، والناحية الاقتصادية بالتشريع الحكيم، والعمل الحازم السريع، جديرة بإتباع هذه الخطوات الجادة، **بجولة في عالم الأدب والأخلاق، ممسكة بدرّة عمر، وسيف المعز.**

الاباحية شيوعية: إن حكومتنا الرشيدة تناهض الشيوعية مناهضة العدو اللدود، بيد أنها تقر الشواطىء على ما هي عليه، وتترخص فيها على أنها من الحريات الشخصية التي تترك لأصحابها، وليست بذور الشيوعية، وجراثيمها الحقيقية إلا هذه الشواطىء الداعرة، وأمثالها من الاختلاط الفاجر المشين.

لم يدْعُ للشيوعية الفقير، ولم يروج لها الكادح، إنما يروج لها عنده صاحب الليالي الحمراء، ويُغري بها المتحللُ المستبيح الذي يستوحي أنظمة روسيا وذهبها وأموالها، ويسفك الأعراض على مذابح الشهوات.

إن هذه الآفات التي تعشش وتبيض وتفرخ على دفء الرمال، ونسيم البحر، ثم تنتشر تبرجاً في الشوارع، وتكشفاً في كل مجال، لن يقف تيارها بوليس الآداب في الشوارع والطرقات، يتصيدون العابثين والعابثات، ما دام هناك أصل الداء، ومصدر البلاء.

خرجت ظهر شم النسيم[1] إلى المتنزه العام بطنطا لأكمل الصورة عن هذه المجتمعات. ولم أبارح منزلي في يوم شم النسيم مذ كنت طالباً ناشئاً ــ فخفف عني أن لم أر فيه ما كنت أعرفه من خروج وابتذال شديد، فسألت صاحبي فقال: إن الأوامر الحازمة أعطيت لرجال الآداب، فأخرجوا من

(١) ٢٦ من أبريل سنة ١٩٥٤.

بين الجموع من رأوا فيه بعض الخروج، وأنذروا من لعب الورق، أو دق الطبول.

لقد ثارت حكومتنا واحتجت على ما استاءت له الأوساط في السودان، من أخذ صور لخمس وثلاثين فتاة سودانية، ومعهن المدرسات والناظرة بمعرفة بعض المصورين من الإنجليز، وعدوه سبة وإهانة أن تخلع الفتاة السودانية المعطف والخمار، لتقف أمام المصورين(1).

وهؤلاء هم عشرات الألوف من المصريين والمصريات، يخلعون دينهم وأجسامهم أياماً وشهوراً. فهل نتركهم سموماً نافذة في كيان الوطن، تفخر بالنكر، وتوحي بالعُهْر، وتدفع إلى الفسوق؟ إن الأخلاق تسرق من الأخلاق، وإن أسرعها لصوقاً ما صادف الأهواء وأشبع الغرائز والنزعات. وإن طريق الانحدار أيسر موطئاً وأخفض مركباً من طريق التسامي والصعود، فهل ندع هؤلاء المواطنين ينزلون ويجذبون معهم الآخرين؟ إن مثلهم هو هذا المثل الخالد في آيات الله وسننه الخالدة: من ركاب سفينة واحدة في خضم الحياة يستبد جماعة منهم ببعض جوانبها، فيقولون نخرق من هنا خرقاً نغترف منه الماء، فأن تركوهم وشأنهم غرقوا وغرق الآخرون، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجا الراكبون.

لئن دفعت الأخطار المحدقة بأخلاق الأمة بعض المخلصين إلى قارس اللفظ وقاسي القول. فما كانت الألفاظ والأقوال مؤتية ثمارها ما لم تصب موقع الاقناع، وقلما يقتنع المنحرف الذي تعمد الانحراف وارتضاه وأساغه، واستنام إليه وتلذذ به ودافع عنه، ولن يُقنع مثله سوى الملهبات من سياط القانون. ودِرَّات الحاكمين، وإن درة واحدة كدرة عمر أفعل في بعض النفوس من عشرات المواعظ والخطب.

ذهبت إلى شاطىء البحر لأرى بنفسي ما سمعته بأذني وقرأته بعيني.

---

(1) الأهرام في ١٩٥٣/٩/١٨ وقبله بأسبوعين.

وركبت السيارة وسألني القائم بالتذاكر وجهتي فقلت: إلى سيدي بشر. فقال: المسجد؟ فقلت أو كل شيخ هنا لا يكون إلا للمسجد؟ إني أقصد الشاطىء لأرى ما فيه، وتحدث إلّي الرجل. واحتفى بي ونزل معي، وتحدثت إلى بعض الموظفين هناك وتحدثوا إلي. ورأيت في عيونهم. ومن مظاهر حفاوتهم. وعنوان ضجرهم بالحال وما فيه، ما قرأت منه أنهم يستنجدون بالأزهر ورسالته. ويطلبون إليه الغوث والنجدة.

أعطاني أحدهم وهو شاب ناشىء تذكرة لبعض جهات الشاطىء، وقال بقروش وفيها من الإثم الألوف، قلت وماذا جاء بك وأنت على ما هنا ساخط؟ قال: أوامر الرؤساء وطاعة المرؤوسين.

وعلمت أن المسجد الأنيق الرشيق، يخطب خطيبه وواعظه فينصح المصطافين، قلت مسكين ذلك الرجل، يتعب وينصب ويرى بعيني رأسه الهزء من حوله، والسخرية بقوله، والزراية على ما هو فيه. ولو قد أعطي سوطاً ومن حوله بعض جلاديه، فأذاق من هان جسدُه على نفسه بعضَ الهوان لكان أبلغ قائل وأخطب خطيب.

إن على أولئك المسرفين في نقد الأزهر، المبالغين في اتهامه بالتقصير، المحاسبين له على ما انزلقت الأخلاق فيه، وهبطت النفوس والقلوب إليه، أن يعلموا تمام العلم أن الدين لم يجعل قصاراه قولاً يقال، ولفظاً يتلى، وآية تقرأ، إنما جعل القوة تسند الحق وتخدمه، والسوط يصون الأدب ويحميه، والحدود تردع المعتدين وترد الباغين.

إن الحديد تذيب النار قسوته ولو صببت عليه البحر ما لانا

وإذا لم يكن في يد الأزهر سيف يفرض به الآداب، فسيفه الحكومة الرشيدة العادلة، تحمى حمى الدين والخلق المتين، فعلى الأزهر البلاغ، وعلى الحكومة التنفيذ.

وعلى أولئك الذين يطيب لهم إلقاء التبعة على الآخرين أن يعلموا أنهم كمسلمين مسئولون عن ذلك كما يسأل عنه كل أزهري وكل مسلم، إن الله

لم يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصاً بفئة ولا وقفاً على أحد، وإنما فرضه عليهم أجمعين، فقال سبحانه يعم كل مؤمن ومؤمنة:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..﴾.

وكل واحد قادر في اختصاصه، ومن ذا الذي يزعم أنه عاجز عن أمر نفسه ونهيها، وأي رجل يعجز في بيته وأبنائه؟ «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

فإذا أمر كل واحد نفسه ومن يليه، ودرج على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يبصر غيره بالصواب كما يبصر نفسه، استقام أمر الجماعة واعتدل حالها، وكان لنا رأي ديني عام يرد الخارجين، ويردع المتمردين.

ولو كان لنا في كل مسلم قلب حي يغير ما يراه غير سليم، لما جرؤ المسرفون وتبجحوا، ورأوه ظرفاً ومدنية؛ ولما انزلق إلى المنكر كثيرون ممن يرون الناس عنه ساكتين.

إن الإسلام فرض الرأي العام الديني وجعله واجباً على الجميع؛ فقال ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» بل قد وسم بميسم الخروج من زمرة المسلمين من لا يعني بأمرهم، ولا ينصب في سبيلهم فقال ﷺ: «من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» وأنذر المتهاونين بمثل عقاب الظالمين: «إذا رأى الناس الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بالعذاب».

رجاء:

وأخيراً فإن الحكومة الرشيدة التي تعني بأمر الإسلام والمسلمين، وتسعى جاهدة لضم شملهم وإعلاء كلمتهم، وتتولى زعامة الدعوة للمؤتمر الإسلامي، والتي تطارد الاستعمار، وما خلف من آثار، لجديرة بأن تطارد عوامل الهدم في

الشواطىء، وتقضي على إباحيتها وفوضاها، وتحظر العرى والتكشف وتراقبها كشأنها في مراقبة الآداب في الشوارع والطرقات، وأن تجعل للسيدات أوقاتاً، وللرجال أوقاتاً.

كذلك تملأ هذا الفراغ الواسع بأنواع شتى من الثقافات التي تعود بالخير الكبير، على المصطافين، ولن يقل بذلك المصيفون، بل سيكونون أضعافاً إلى أضعاف.

المرأة والأقلام المسمومة

ليست المرأة وحدها هي التي تضار بآثار الأقلام المسمومة، ولو كان ضرر تلك الأقلام واقعاً على المرأة وحدها لكان ضررا بالأمة بالغاً، يصيب سويداءها ويطعن فؤادها؛ فالمرأة من الأمة مكان القلب من الجسد، يمنحه الحياة والبقاء، ويمده بأسباب القوة والنماء، فإذا وهن القلب أو اضطرب، فما أسرع ما يشيع الوهن في الجسد كله، يزلزل بنيانه، ويهد منه كيانه.

إن الأقلام التي تتملق نوازع الشباب والفتيان، بدعوى الحرية في التفكير والتعبير، فتثير منهم الغرائز الحيوانية، والشهوات البهيمية، وتلك التي تعرض الفجور والنكر، تزخرفه، وتلح فيه، وتدفع إليه وتغرى به، وهذه الصحف والمجلات التي تسود صفحاتها بالقصص الهزيل، والأدب المكشوف، والصور الخليعة التي تدور كلها حول الجنس، ولا تهدف لغير استمالة فريق من القارئين، وتنفث الزُعاف يسري في الأوصال، فيذرو بقايا الآداب والأخلاق في القلوب والنفوس ذرو الهشيم ــ هذه وتلك أقلام آثمة، وصحف جائرة ينبغي أن تكافح بما تكافح به وسائل الشر في المجتمع.

فإذا كانت الكتابات لأقلام معروفة، وصحف مقروءة في مصر والشرق العربي، كان الأثر أنكى، والسهم أشد.

لا ننكر على الكاتب أن يطرف قراءه بما رأى وشاهد من صور لا عهد لهم بها، ولا أن يحدِّث عن حياة أوروبا وأميركا وما راعه منها، وينقل إليهم صورة

من حياة القوم وبيئتهم وأخلاقهم، ولا عليه أن يشيد بما يراه من جد ونشاط وعلم وعمران.

ولكن الذي ننكره ونلح في إنكاره أن يخرج به الإعجاب إلى حد الإطراء لمباذلهم ومفاسدهم، وانطلاقهم في شهواتهم، فيخرج قبحهم في إطار من الألوان البراقة، والنقوش الزاهية، جاعلاً من هذه الحياة الماجنة طهارة وقدساً، بل ولا يستحي أن يزرى بما عليه قومه الشرقيون من استهجان مباذل الغربيين، فيخدع قارئيه مرتين، ويكون قوله أشبه بالمخدر الذي يذهل متعاطيه عما يحمل من أفتك الجراثيم، ثم هو يبثها أينما سارت كتاباته في الشمال وفي الجنوب، وحيثما طار بها البريد جيئة وذهوباً في عرض هذا الشرق وطوله.

يقول كاتب معروف في القبلات على قارعة الطريق:

والأدب في باريس لا يسمح بإزعاج العشاق، وظل الفتى يقبل الفتاة وهي بين يديه كالغصن المطلول، وكأننا لسنا هنا، وكأنهم ليسوا هناك.

ــ لا تحسب يا دكتور أن هذا فسق، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج.

ــ اطمئن فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التي تطوي عليها جوانح الغدَرَة الفجرة ممن يدعون الفضيلة[1].

وهذا كاتب لامع يفلسف للقبلة، ويشرح لزوجته التي كانت معه في زيارة باريس أن هذه القبلة ليست إلا تعبيراً عن إحساس جميل؛ وعاطفة نبيلة؛ ولا اعتبار للجنس بين المتحابين[2] وأن الثورة الفرنسية جعلت ما بين الرجل والمرأة في العواطف ما بين رجلين أو امرأتين، وأن الحرية افترضت (هكذا) البراءة في الناس.

«وذاك شاب وفتاة يتحدثان في الطريق، فلما آن أن يفترقا قبلته وقبلها؛

---

(١) بقلم المرحوم زكي مبارك من كتاب باريس الذي جمعه الأستاذ أحمد الصاوي محمد.

(٢) لا ندري ايحب زوجته فلا اعتبار للجنس بينهما. ام هو يبغضها ليعتبره.

واتخذ كل سبيله، وذكرت لها أن ذلك من متعارف أخلاق الأوروبيين، فهو لا يجرح حياء أحد، وهو كذلك لأنه قبلة أخوية للقاء أو وداع يعبر اللذان يتبادلانها عن إحساس جميل، وعاطفة نبيلة...» ثم يذكر أن الثورة جعلت «بين الرجل والمرأة من المساواة والإخاء ما جعلهما يتبادلان العواطف والمنافع كما يتبادلها رجلان، أو كما تتبادلها امرأتان، وأنها قضت في القلوب والأذهان على الاعتبار الجنسي الوضيع، الذي يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق في المكان الأول من قدر صلات الجنسين... وما دامت الحرية الحقة تفترض في الناس الطهر والبراءة، فليكن النظر العام للقبلات كلها على أنها قبلات إنسانية، كقبلة الأخ لأخته، والأب لبنته، والخطيب لخطيبته[1].

ثم تخطو هذه الأقلام المقروءة المسموعة في مصر والشرق خطوة أو خطوات، فتقرر أنها ما أحست الطهارة العليا الكاملة إلا بالحرية المطلقة في إتيان أي رذيلة بدون خشية قيد أو تحريم، وهذا هو السبيل الذي زهد الفيلسوف في الرذيلة، وجعله يمقت المادة، ويهيم في عالم الأرواح. انظر إليه يجعل من هذا الضلال فلسفة، ومن ذلك الفسق طهارة، بانيا من الإباحية الخليعة مملكة الروح.

أقسم لك يا جان (ساقي الأقداح) أني في حياتي ما أحسست الطهارة العليا الكاملة إلا في هذا الحي الخليع. أتصدق هذا؟ وهل تعرف السبب؟.

السبب بسيط: الحرية، تلك الحرية المطلقة في إتيان أي رذيلة بدون خشية قيد أو تحريم، هذه الإباحة للرذيلة، زهدتني في الرذيلة نفسها، إن الإنسان بطبعه يطلب الممنوع عنه، المحرم عليه، ويزهد في المباح. إن الملك شهريار الذي استمتع طول حياته بالنساء واللذة الجسدية، كاد يقتله الملل، فصار يقتل كل امرأة بعد ليلة، حتى جاءته شهرزاد. فكشفت له عن اللذة الروحية، فإذا هو ينقلب إنساناً يعشق كل ما هو روح، ويمقت كل ما هو مادة.

---

(١) بقلم الدكتور محمد حسين هيكل صاحب في منزل الوحي وحياة محمد ورئيس حزب كبير سابقا المصدر السابق ص ٣٩٣.

وإذا هو يصيح كلما عرضت له المادة «شبعت من الأجساد، شبعت من الأجساد» هذه الصيحة انطلقت من فمي يوما... كما انطلقت من فم كل فنان في مونمارتر. أرأيت كيف أن مونمارتر في حقيقتها مملكة الروح لا مملكة المادة[1].

ولئن كان هذا الكاتب الكبير أحس الطهارة العليا من حرية الإتيان بأي رذيلة، وصعد إلى عالم الروح على سلم درجه صيحات: «شبعت من الأجساد، شبعت من الأجساد» فهذا كاتب آخر أكبر منه في معناه ـ لقد أحس الطهارة في نفسه بعد خمس دقائق فقط، صُدِم في أولها بمشاهدة الراقصات العاريات إلا من أوراق التوت، فأكسبته هذه الدقائق الخمس آداباً وأخلاقاً حسانا. لم تصنعها له حياته الماضية كلها. بل جعلت منه قديساً يرى في استعراض العرى والجمال قطعة من روائع الفن العالية ثم هو يعرض ثمرات رحلته المظفرة علاجاً لمشكلة الشباب. اقتداء بالدول الغربية التي أباحت الدعارة سراً وعلناً. والأخرى التي أباحتها بشكل محتشم غامض: فيرى أن نجعل المرأة في شكل محتشم بين يدي الشباب ليزهد فيها.

كتب هذا الدكتور إلى صاحب ما قل ودل:

«أخي الأستاذ الصاوي تحياتي الخالصة من سويسرا. أكتب لك الآن من جنيف، وقد اطلعت على جرائد ومجلات الوطن العزيز، وراعني منها شدة اهتمامها بمعاكسة الفتيات. وكيف السبيل إلى معالجة هذا الداء الوبيل... ثم ثم قرأت كيف يعصر المفكرون قرائحهم لإيجاد حل سليم للخلاص من هذه الورطة الأخلاقية... ثم تذكرت كيف ذهبت بالأمس إلى مسرح في جنيف اسمه «الباتا كلان» لا ترتاده إلا أرقى الطبقات. وكيف بدت الراقصات عرايا تماماً إلا من ورقة توت صغيرة؛ وكيف صُدمنا نحن المصريين في بداية الاستعراض، ثم لم نلبث أن اعتدنا العرى والجمال بعد الخمس الدقائق الأولى، وأصبحنا ننظر إلى الاستعراض كقطعة من روائع الفن العالي.

وتذكرت باريس، وكيف أبيحت الدعارة فيها سراً وعلناً، وإيطاليا وكيف

(1) بقلم الأستاذ توفيق الحكيم من المصدر السابق ص ١٠٥.

نظمت الدعارة فيها بشكل محتشم غامض، وانجلترا العجوز، وكيف أباحت الحرية الشخصية في حدود القبلات والمقابلات في حدائقها العامة، وقلت لنفسي هل حالت الصراحة الجنسية دون تقدم هذه الأمم؟ لماذا لا نراجع أنفسنا وقوانيننا في حدود التطور العالمي الخلقي؟ فللشباب ثورته ولا مفر من مهادنته بطرق محتشمة حتى يزهد في المرأة عندما يراها في متناول يده..[1].

وبعد:

فهذا الجمال في الإحساس، والنبل في العواطف، والتعالي عن اعتبار الجنس، وعدّ المرأة والرجل كأنهما رجلان أو امرأتان، والطهارة المجلوبة من شبع الأجساد، والحرية الكاملة في إتيان كل رذيلة، ومملكة الروح، ثم تنظيم الدعارة بشكل محتشم غامض، وزهد الشباب الثائر في المرأة الجميلة وهي بين يديه، كل هذه عناصر العُقار العجيب، لشفاء الأخلاق والآداب، وإقامة الأمم على منهج الصواب.

أيتها الحكومات في مصر والخارج، إن كتابنا الأعلام، يقدمون إليكم من نتاج القرائح والأفهام، ما سوف يغنيكم عن البوليس والشرطة، وحفظة الأمن، وأماكن السجون، ودور القضاء، وما سيوفر عليكم ما تنفقون في هذا كله من (ملايين، وألوف الملايين).

لماذا تسنون القوانين، وتحدون الحدود، وتفرضون النظام، وتشغلون أنفسكم بالضرب على أيدي العابثين، فتزيدوهم ضراوة وإقداما، وحباً في الممنوع وتكالباً على المحرم؟.

كيف يفوتكم أن في الحرية المطلقة، والفوضى الكاملة، ما يرد الناس إلى الاعتدال!!!.

ألم يأتكم نبأ (الباتا كلان)؟: بل كيف غاب عنكم ما يقدمه لكم من علاج سليم!!!.

---

(١) الأهرام ٢٢ من يونية سنة ١٩٥٤ من رسالة الدكتور مصطفى الديواني.

أليست حرية الحصول على امرأة جميلة مزهدة في الجمال؟ أليست حرية السلب والنهب منفرة من احتياز الأموال؟ أليست حرية السرقة واللصوصية مبعدة عن السرقات؟.

هلاّ أبحتم هذا وغيره لتحصلوا في رأي كاتبنا على الإنسان «السوبرمان».

إن الآكلين زهدوا الطعام الشهي من طول ما هو مباح، والشاربين عافوا الشرب لأنه كذلك مباح، ولعلهم بقرب أن يزهدوا الهواء والشمس والنور لأنها مطلقة عن التقييد.

أي ضلال انحدرت إليه أقلام هو أفدح من هذا الضلال، وأي سموم تنشر باسم حرية الرأي هي أفتك من هذه السموم؟.

إن القانون الذي يُقيد للفرد ممن أتلف جسمه بكأس من الشراب المسموم، لجدير بأن يقيد للجماعة من دساسي السموم للعقول والقلوب والأرواح.

ماذا نراقب من عوامل الشرّ، ومعاول الهدم، ووسائل الإجرام؛ إن لم نراقب هذه الإباحية المتبجحة المستهترة، التي تعلن عن فسوقها، وتدعو إليه وتروج له.

إن الحياة العقلية للناس مزاج ما يحيط بهم؛ ويتفاعل معهم، ويؤثر فيهم من مشاهدات ومطالعات ومعلومات وأفكار، فإذا كانت خليطاً من المغالطات والشهوات، والأكاذيب والأضاليل. انحرفت بهم عن سواء السبيل، وصرفتهم عن منهج الرشاد، وهونت عليهم التقحم وارتكاب الآثام.

إن رائداً معاصراً من رواد الحرية الفكرية، يدعوه هؤلاء وسواهم معلم الجيل. يود لو وضع تحت المراقبة كل كاتب مريض بشهواته ونزواته، يصورها في قصص وروايات تسحر الفتيان والفتيات. وتنقل إليهم العدوى التي تجعل منهم مرضى قليلي العمل كثيري الهوس.

يقول الأستاذ لطفي السيد رئيس المجمع اللغوي[1]:

---

(١) المنتخبات، ص ٢٠٦، وما بعدها.

«. . . على هذا أكاد أتمنى أن يكون عندي هنا قلم مطبوعات. أي سلطة غير محدودة، كقلم مطبوعات الحكومة، ليضع كتّاب القصص، ومعرّبي القصص تحت المراقبة، حتى لا يضيفوا إلى التشويه الطبيعي تشويهاً آخر صناعياً، فإن الكاتب قد يكون ضعيف الأعصاب بالإجهاد الشخصي، أو بحكم الوراثة، هائج المجموع العصبي من جراء المعيشة المدنية، والإسرافات المتنوعة من شرب الكحول، ومن السهر، بل من البيئة المدنية المصفاة التي لا تكاد تفيق من اللهو واللعب، قد يكون الكاتب كما وصفنا، فيجرد من شخصه المريض بطلاً لروايته الغرامية.

ولا شك في أن أغلب الفتيان والفتيات في سن معلومة تسحرهم القصة، فتسري إليهم العدوى المعنوية من أخلاق أبطال الروايات إذا قرأوها في خلواتهم، أو شهدوها تمثل على المراسح، فتكرر في الجمعية بتلك الصورة المريضة، ويفشو في الناس التشوه الذي هو في الطبيعة، قليل المثال. . . وما أغنى الإنسانية وهي أحوج ما تكون إلى الأعمال المنتجة في سعادتها وهناءتها عن إكثار عدد المرضى، قليلي العمل، كثيري الهوس، والخيالات العقيمة.

يقول الكاتب الكبير ذلك من قرابة نصف قرن، وهو يخشى على الشباب (ميكروب) القصص المريض ينقل إليهم عدواه، ولم تكن النذر حينذاك لتعدو قطرات تسيل بها الأقلام، أو شرراً يتطاير من الأوهام، فكيف بنا وقد استطار الشرر فأمسى لهيباً يتسعر، واستحالت القطرات ركاماً من السحب انفجرت عن الصيب الغمر، بل الطوفان المجتاح، يأتي على القواعد من الآداب والعادات والعقائد والأخلاق.

هذه صحف يومية، وأخرى أسبوعية وشهرية، وتلك دور اللهو العامرة بالليل والنهار، تعرض القصص المقروءة، والصور المنظورة، والمشاهد المتحركة فتحشدها حشداً، وتفتن في أشكالها، وأوضاعها، وأحجامها، وعريها ومفاتنها، وهي في دءوبها، وإلحاحها وحرصها على إثبات ذلك في أذهان مشاهديها وقرائها، كأنما تطرفهم بأنباء عالم عجيب غريب لا عهد لهم بمثله، بل كأنما

تعالج المجهول من أسرار الكون فتبرزه، أو ما غاب عنا من وسائل استعمار القطبين فتجلوه، أو ما فات أوروبا وأمريكا من شؤون الذرة فتكشفه وتنفع به.

إن هذه الأقلام المفتونة بشهوات الغرب تقول لقرائها: هذه هي المدنية الغربية إن شئتم النهوض، فيها الصراحة الجنسية التي لم تكن حائلاً دون تقدمهم بل هي من أسباب هذا التقدم والفوق والامتياز، وكأن هذه المدنية قامت يوم قامت على الشهوات والنزوات والقبلات. كأنما لم تقم على الجهاد والجلاد والجد والكفاح.

أما والله لو منيت المدنية الغربية يوم قامت بهذه الإباحية لما كان لها من نهوض ولا قيام ــ لو منيت بها يوم قامت [illegible] أبدعت إبداعها الذي ملك عليهم القلوب والعقول، ولما اكتشفت واستعمرت، ثم ملكت ما ملكته بالعرق والدموع والدماء والحديد والنار.

إن هذه الصراحة الجنسية الحديثة هي الصراحة الجنسية في (أبيقورية) اليونان، وهي الصراحة الجنسية في أواخر امبراطورية الرومان. وهي الصراحة الجنسية في (مزدكية) الفرس، وهي الصراحة الجنسية في ليالي الأندلس وبغداد، وهي نفسها التي قضت على تلك المدنيات. وهي نفسها التي قام يكافحها عقلاء أوروبا وأمريكا. وجاءوا إلى هذا الشرق الخبيث، يلتمسون منه العون ليخرجوا مدنيتهم من مأزق يوشك أن يطبق عليهم بأسباب الفناء.

إن صاحب الدقائق الخمس الذي تطهر فيها بصدمة واحدة من كل آثار ماضيه في الحياء، لا يكفيه عري الشواطيء. ولا تكشف الشوارع. ولا ما يضج به المخلصون من الشكاوى الأليمة مما انحدرت إليه الأخلاق والآداب، فيقدم علاجه في ذلك استباحة المرأة ليزهد فيها الشباب.

كتبت فتاة مثقفة من طالبات الجامعة إلى رئيس تحرير الأهرام[1] تحمل

---

(١) ١٩٥٥/١/١٤.

على السيدات الخائنات لأزواجهن، الهادمات لسعادة أسرهن وأنفسهن، واقترحت على الصحف والإذاعة حملة شديدة لعلاج هذه الحالة الوبيلة. وعلى القانون صرامة في عقاب الزوجات الخائنات ــ وعلق الكاتب الكبير يؤيد هذه الصيحة ويقويها.

فهل علمت الفتاة المثقفة أن أعدى أعداء المرأة هي هذه الأقلام التي تزين لها الخروج عن الآداب والتقاليد المرعية بدعوى الحرية، والتي تشجع المرأة على مساجلتها ما ترجوه من شهوات ونزوات؟.

وهل رأت وهي الحصيفة الغيرى على كرامة المرأة وصالح الأسرة وخير الأمة أن هذه الأقلام (والأفلام) والصحف التي تغري المرأة بهذا الفساد، وتريدها على أكثر منه وأفدح، يجب أن تنصرف إلى مكافحتها جهود المخلصين من الرجال والنساء.

أليست توافقني ــ ومعها كل ذات عفة وكرامة ــ أن شر زراية وتحقير وامتهان للمرأة هو في مثل ما يقترحه الدكتور وأمثاله من مهادنة الشباب، حتى يزهد في المرأة عندما يراها في متناول يده؟!

يقول الأستاذ في ما قل ودل «وجريمة واحدة تذاع فضائحها هكذا تؤخر زواج مئات من الفتيات الطاهرات اللاتي لا ذنب لهن، ومن واجبنا أن نحميهن».

وأقول: وأي حاجة للشباب في أعباء الأسرة إذا كان كل ما رغبه رهن إشارته؟.

لماذا لا يستمتع ما شاء، وله في شهواته الغنم كل الغنم، وعلى المرأة وجنينها الغرم كل الغرم؟.

لماذا لا ينادي بالحرية في إتيان أي رذيلة، حتى تنطلق من فيه صيحات «شبعت من الأجساد، شبعت من الأجساد» فإذا هو بعد ذلك عدو للمرأة مبين، يتندر بها، ويعيبها ويزدريها، ويسوء ظنه فيها؟.

بل ما له إذا شبع منها لا يطلق عليها الرصاص من لسانه وألسنة إخوانه، إن لم يكن على حظ من شجاعة الشبعان من الخمسين، في شارع عماد الدين[1].

إن واجب المرأة الآن يفرض عليها الدفاع عن نفسها وبنات جنسها، لا من مغتصبي المطالب السياسية التي تريدها، ولكن من سارقي شرفها وعرضها ودينها.

إن خير ما تقدمه المرأة لنفسها وأخواتها هي الصيانة من ذئاب الرجال، واحتفاظها بآدابها، واعتزازها باحتشامها، وترفعها عن أن تكون ألعوبة الرجل، يلهو بها ثم يلقيها.

إن واجب المثقفة الكريمة على نفسها ووطنها أن تثور على كل ما يمس حياءها، أو يخدش عفافها، من صور خليعة لبنات جنسها، وأقاصيص مكشوفة وروايات غرامية، تدور حولها، وأزياء مبتذلة وعري فاضح ينال من كرامتها.

ورحم الله الكاتب المسلم، وأفاض عليه سحائب رضوانه إذ يقول:

«احذري أيتها الشرقية، وبالغي في الحذر، واجعلي أخص طباعك الحذر كله.

احذري أن تخدعي عن نفسك، إن المرأة أشد افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة.

الحب، الزواج، المال ــ هذه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوى أمام الدجاجة.

احذري السقوط إن سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب في مصيبة، سقوطها هي وسقوط من أوجدوها، وسقوط من توجدهم.

---

(١) حادثة اهتزت لها الأوساط العامة، وخاضت في تفاصيلها الصحف، وتناقلتها الألسنة. ووجد للجاني مذكرات دون فيها صلته بخمسين امرأة. وذكر أنه أطلق الرصاص على عشيقته؛ لاحتقاره لها وتخلصاً من مطاردتها له، وما تزال منظورة أمام القضاء.

نـوائب الأسرة كلها يسترها البيت إلاّ عار المرأة.

أيتهـا الشرقية احذري احذري»[1].

أيتها الشرقية الفاضلة، أيتها المثقفة الكريمة على نفسها وعلى ذوي الكرامة من مواطنيها، أصيخي لوحي ضميرك، وتنسمي ريح السعادة من دينك، واستنيري بنور الله، وتمسكي بالإسلام ولـوذي بحماه، فقد حماك من لحظ البصر، وغمز الحديث، وكوني مؤمنة في عداد المؤمنين، وازدري المنافقة والمنافقين؛ فالله تعالى يقول: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم، نسوا الله فنسيهم، إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾[2].

ويقول سبحانه في شأن الأخيار: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم، وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم﴾[3].

---

(١) للمرحوم الأستاذ الرافعي، وحي القلم، جـ١، تحت عنوان إحذري، ص٢٩٦.

(٢) سورة التوبة: آية ٦٧.

(٣) سورة التوبة: آية ٧١.

في رياض القرآن
وهدى الرسول

كأني بالقاريء الكريم، وقد طال به المسير في رحلة مباركة مرجو لها التوفيق، نفذت إلى الأغوار البعيدة في مجاهل من الرأي، ومذاهب من القول اختلط فيها صاف بزائف، واشتبه عقل بهوى، فكشفت عن الحر الأصيل من نتاج الألباب، ومقاطع الصواب، تبسط الرأي، وتناقش الخصم وتدلي بالدليل تلو الدليل، وتمحو ظلمة الباطل بضياء الحق، وتجبه الخاطئين والمخطئين بأسلحة العلم ــ كأني به وقد رغب التخفف من القال والقيل، كي يفيء إلى ظل ظليل من كتاب الله، يستروح به أنسام الجنة في هذه الحياة، ويتفيأ واحات النعيم في صحرائها المستعرة. فيروي من نميره. ويغتذي بثماره، ويغسل بطهره وفيضه ونوره آثار اللغو الكثير من تفاهات التافهين، وأوهام الواهمين، فإلى رياض القرآن بعقولنا وقلوبنا ساعة، عسى أن تكون لحياتنا عماداً، ولأيامنا زاداً، ولما انشعب من أمورنا صلاحاً وسداداً.

يقول القرآن الكريم في نسقه السماوي الرائع، يقرن الكوامل من النساء بالكملة من الرجال: ﴿إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٥.

فالفضليات من النساء مسلمات لله، خاضعات لأمره ونهيه، عاملات بشرعه وهديه.

مؤمنات به سبحانه، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، راضيات بقضائه وقدره، واثقات بفضله وبره.

قانتات داعيات، وعليه مقبلات، وفي رضاه قائمات.

صادقات الألسنة والقلوب، طاهرات السرائر والظواهر، أغناهن صدق الأعمال عن تـزيـين المقال.

صابرات على الطاعات، وأداء الواجبات، رابطات الجأش في الشدائد والملمات.

يزين هذا الصبر تواضع وخشوع، في رقة ولطف، لا خشونة وعنف. في هدوء وسكينة، وعزة وصيانة.

وتصدق على المحتاجين بفضل المال والعلم والتوجيه الحكيم.

وصوم عما يشين؛ وحفظ للجوارح والغيوب، ودوام ذكر الله، مع الرجاء في بره ورضاه، ولهن من ذلك عند الله المقام الكريم، والأجر العظيم.

هذه صفات الكاملات من المؤمنات، في الآية الكريمة التي تحدثت بمثلها عن الكاملين من الرجال.

وتسبق هذه الآية آيات، في شأن الفريق الأول الذي أقامه الله أمثلة عليا للمؤمنات، يهوين إليه بالقلوب والأفئدة، ويرينه بالعقول والبصائر، يرمقن جلاله، ويحتذين مثاله، ويترسمن كماله وفعاله. أولئك هن زوجات الرسول، شرفن بقول الله سبحانه ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم﴾ أعلى الله همتهن عن أن تكون الدنيا غايتهن، أو تكون زينتها من حظوظهن ورغبتهن، لأنهن قدوة المسلمات، والأعلام المرفوعة هداية للمؤمنات، والمبلغات لأعظم الرسالات، فليس كغيرهن من النساء وذلك قول الله سبحانه: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن

وأسرِّحكن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيمًا﴾[1] ــ فلم تكن منهن واحدة بعد هذه الآيات إلّا سارعت إلى الله ورسوله. وآثرت الحياة الباقية على زينة الدنيا، وحافظت على عهدها، حتى لحقت بجوار ربها.

لقد تفتحت براعم الحياة للمسلمين. واستهلت واردات الأموال في عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وبدأ الصحابة ينعمون بما أفاء الله عليهم من بركات، ثم فتحت الدنيا، وفاضت الأموال على عهد الخلفاء الراشدين، وكان لأمهات المؤمنين نصيبهن الكبير من هذا المال الوفير. ولكنهن ظللن كما كن على عهد الرسول، متقللات من الدنيا، زاهدات في أعراضها، متصدقات بحظوظهن على المحتاجين،من أبنائهن المؤمنين.

يجيء من البحرين مال، ويقضي الرسول صلاة الغداة ثم ينصرف فيلقاه في المسجد بعض المصلين، فيبتسم إليهم، وقد عرف لماذا هم واقفون ويقول: لعله قد بلغكم ورود المال. فيقولون: نعم؛ فيقول: أبشروا. ثم لا يفارق مجلسه حتى يفرقه في المسلمين، وعمه العباس في القوم يملأ حجره بالمال حتى لا ينهض به. فيقول للرسول: احمل علي، والرسول الكريم يضحك من عمه ورغبته في الدنيا، ويقول ناصحاً ومرشداً: «فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تُفتحَ عليكم الدنيا كما فُتحت على من كانوا قبلكم، فتنافسوها كما تَنافَسُوها فتهلككم كما أهلكتهم»[2].

والرسول وآله معه لا ينالون من الدنيا إلّا كفافاً ــ وتقول عائشة: ما شبع آل محمد من خبز الشعير ثلاثة أيام تباعاً. وتقول رضي الله عنها: كنا نعد الهلال والهلال والهلال، وما يوقد في أبيات رسول الله نار، فتُسأل عما كان يقوتهم، فتقول: إنما هو التمر والماء ــ وتقول عن نفسها بعد عهد الرسول ﷺ:

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٨ ــ ٢٩.

(٢) رواه البخاري وغيره.

ما شبعت من طعام قط وأحببت أن أبكي إلاّ بكيت. لما كان رسول الله ﷺ يجوع ثم لا يشبع.

هذا هو المثل الأعلى في حياة المسلمين، والقدوة الصالحة للرؤساء والحاكمين، لم يُكلف بمثلها عامةُ الناس، «إذْ لا يُكلف الله نفساً إلاّ وسعها» وإنما هي أعلام الهدى للمهتدين، توقظ همة المتوانين، وتشحذ من عزائم السباقين، وتفيء بالراحة والرضا على قلوب المحرومين، فلا يلبث أن نرى أثر ذلك فيمن حولهن من المسلمات إيثاراً وإخلاصاً وتفانياً.

جاء رجل مسلم يشكو ما به من جوع، فبعث النبي إلى إحدى نسائه، ما عندك من طعام؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي سوى الماء، فبعث إلى باقيهن واحدة واحدة، فلم يجد عندهن سوى الماء، فأخذه رجل من المسلمين إلى بيته، وسأل امرأته فلم يجد إلاّ عشاء عياله، فقال لها: ضيف رسول الله، فقالت: مرحباً بضيف رسول الله، وهيأت الزاد، ونوّمت الصبيان، وقدمت الطعام إلى زوجها وضيفه، وقامت إلى السراج متظاهرة بإصلاحه فأطفأته، وطعم الضيف، وزوجها يريه أنه يؤاكله، وما مد إلى الزاد كفاً، فلما أصبح الصحابي، ولقي الرسول كان الوحي أسبق إليه منه، فأخبره الرسول خبر الوحي، وقال له: ضحك ربنا مما فعلتما الليلة بضيفكما فغفر لكما.

ثم تطرد الآيات السابقة مستكملة ما ينبغي لزوجات الرسول من الآداب: «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء، إن اتقين فلا تخضعن بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولاً معروفاً، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة، وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة، إن الله كان لطيفاً خبيراً»[1].

ثم جاءت على أثر آيات الأمهات آية الفضليات من المسلمات، تعقد على رؤوس النساء أكاليل المجد، وتيجان الفخار، بما حزن من جميل الخلال،

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٣ ــ ٣٤.

وكريم الخصال، وعظيم الآداب، ولا عجب أن يثني الله على الصالحين من عباده، ويذكر من مكرماتهم رغبتهم إلى الله، ودعاءهم إياه، بأن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين، وبهجة أنفس، ورضا قلوب؛ فإذا هم على أمل في إمامة المتقين. قال تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً. . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾[1]. وكيف لا؟ وحديث الصادق المصدوق يقول: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله».

كذلك خير ما ترزقه المرأة المؤمنة بعد تقوى الله سبحانه، زوج صالح يكون بهجة قلبها، وعماد بيتها، ودرع أيامها، وتاج عزها والله تعالى يقول: ﴿الطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات﴾.

وإذا كانت المرأة في القرآن كريمة كرامة الرجل، وهي فوق ذلك مستودع الحياة، وموطن الحفاظ، ومناط الشرف، فقد صانها الإسلام أكبر الصيانة وحاطها بسياج من الكرامة والحصانة، فأمر النساء بالستر والاحتشام. فلا يكشفن من جسمهن سوى ما اعتيد كشفه من الوجه والكفين «ولا يُبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن. . ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ ذلك أقرب إلى الصيانة، وأدنى أن يعرفن بالكرامة، فلا يؤذين بالبذاءة. كما أمرهن بغض الأبصار حتى لا يطمعن مرضى القلوب فقال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ كذلك حفظهن من شره العيون، وطماح الأنظار. فأرشد أصحاب الضمائر الحية من الأخيار إلى ما ينبغي لهم، ويجمل بهم من غض البصر، وأنذر المنافقين والفجار، الذين يعرضون بالأذى وإرجاف السوء للمحصنات

---

(١) سورة الفرقانة: آية ٧٤.

العفيفات بسوء المصير، فقال سبحانه لنبيه: ﴿قل للمؤمنين بغضوا من أبصارهم﴾ وقال: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة لنُغرينك بهم﴾ ثم أبان عاقبة الحملة الصادقة عليهم من الطرد واللعن والتقتيل فقال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتــلوا تقتيلاً﴾.

وإذا كانت هذه صيانة الإسلام للمرأة الكريمة وكرامتها، فما أجدر المؤمنة الكاملة بأن تعتز بهدى القرآن، وتحتمي بحماه، فتسبغ ثيابها، وتدني جلبابها، وتصون رأسها وصدرها وأطرافها عن عيون المتطفلين، وسهام الناظرين، ما أجدرها بأن تجعل من بيتها جنة وارفة، يأوي إليه زوجها وأبناؤها، ثم يكون بيتها أفضل أستارها.

نعم: إن من حقها الخروج لحاجتها من علم وعمل، وخير وبر.

من حقها الترويح عن نفسها بالرياضة.

من حقها صلة من شاءت من خيرات الصديقات.

كذلك من حقها التحشم والتصون والستر.

من حقها وحق كرامتها عليها سبوغ الثياب، ووفاء الجلباب.

من حقها وحق كرامتها عليها أن تكون ملء القلب بالإجلال والصيانة والرعاية، لاملء الجسد بالشهوة والإسفاف والبغي.

فهي بالإجلال أمٌ تنبع منها الحياة.

وهي بالصيانة أخت وزوجة يُحْفظ لها وبها الشرف.

وهي بالرعاية بنت يُضاعَف لها الحنان والعطف.

ولكنها بالشهوة فتنة تسعى.

وبالإسفاف لفظة تؤذي.

وبالبغي عرض يُنتهَك.

ينظرها الرجل تتلوى فيذكر أخس ما فيه وأحقره.

يراها غوى الرجال عارية فتشوقه ولكن بالحيوان فيه، كما تشوق الطفل دميته التي يريدها تلهيةً، ثم يلقيها بعد السآمة منها محطمة.

ويراها الرشيد مائلة مميلة، فتثير اشمئزازه وامتعاضه وتحقيره وسخطه.

في الحديث الشريف «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها، ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس».

هؤلاء يفسدون الناس بالإذلال والقهر.

وأولئك يفسدنهم بالشهوة والعُهر.

* * *

لن تكون المرأة كريمة على الرجل لأنها تزامله في كرسي البرلمان، أو تماثله على مكتب الديوان، أو تراقصه في حلبة المجون والمجان، أو تتعرى له على شاطىء البحر، أو تعرض فتنتها عليه، فتشغله وتلهيه، أو تأسره وتصبيه!!.

إنما تكون كريمة على الرجل متى كانت كريمة على نفسها، ولن تكرم على نفسها ما لم تعرف حقيقة أمرها، فتعلم أنها في الحياة مستودع الحياة ومجراها، وإنها مكملة الرجل في رسالته، وأنه مكملها في رسالتها. ومن الخير لها ــ إن استطاعت ــ أن يكفيها العمل الخارجي، على أن تكفيه البيت وشؤونه، فإن اضطر إليها أمدته بعونها ورفدها، وإن فرغ من واجبه أعانها على أعبائها وأثقالها.

لقد شاركت المرأة المسلمة في مواقف الإسلام الكبرى، وشهدت مشاهده الجلى، وأعانت الرجل في حروبه ومعاركه، فلم يكن على الرجل بأس أن يشارك في بعض أعباء البيت تخفيفاً وترفيهاً.

وهذا هو السيد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه كان ــ أحياناً ــ يَقُم بيته، ويخيط ثوبه، ويخصف نعله.

كذلك رغب لآله ما رغب لنفسه، فقد جاءته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً فأرشدها إلى ما هو خير لها منه ــ روى البخاري بسنده عن علي كرم الله وجهه أن فاطمة أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحا، وبلغها أنه جاءه رقيق، فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة. فلما جاء أخبرته عائشة قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم. فقال على مكانكما. فجاء فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدميه على بطني فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما، وأويتما إلى فراشكما، فسبحا ثلاثاً وثلاثين؛ واحمدا ثلاثاً وثلاثين. وكبرا أربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم ــ قال علي فما تركتها بعد، قيل ولا ليلة صفين؟ قال ولا ليلة صفين.

وروى البخاري كذلك عن أسماء بنت أبي بكر قال: تزوجني الزبير وماله من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وفرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهو مني على ثلثي فرسخ، فجئت يوماً والنوى على رأسي. فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعاني ثم قال: إخ إخ ــ أي لناقته ــ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني استحييت فمضى، فجئت الزبير فقلت لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب، فاستحييت منه. وعرفت غيرتك. فقال والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه ــ قالت حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.

فالمرأة في بيتها تبني نفسها وزوجها ــ وليس معنى ذلك أن تخشن كفا، وتصلب عودا. وتشبه الرجل في قوته وفتوته، فما خلقت المرأة على نحو آخر غير الصلابة والخشونة والفتوة، إلا لهذا الحنان واللين والعطف تسبغه على زوجها، وتفيض به على وليدها الذي تجري له الحياة من أثدائها ــ ولكنه العمل يبارك

الحياة ويزينها، ويحفظ الصحة ويصونها، ويملأ فراغ المرأة فلا تحس بالضيق والضجر، ولا تنفق وقتها في غير نفع وثمر.

والمرأة أستاذة البيت وربته، تعين زوجها، وتحفظ مالها، وترعى أولادها، وتكون خير قدوة لهم، تطبعهم ــ إن شاءت ــ على مناهج الخير، وترضعهم ــ لو أرادت ــ لبان الاستقامة، وهي على ذلك أقدر، إذ بها تنعقد أبصارهم، وتتعلق قلوبهم.

إن على الآباء حقاً واجباً أن يكونوا مُثُلاً صالحة لأبنائهم، في أداء الواجب ورعاية الأمانة؛ وحسن المعاملة، وجميل الأخلاق، وأن يتحلوا بأكمل صفاتهم أمام أطفالهم، فإذا عاملوا أجملوا، وإذا قالوا صدقوا. وإذا وعدوا وفوا ــ نادت امرأة صبيا لها يلعب قائلة يا عبد الله: تعال حتى أعطيك، فقال ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ قالت تمراً، فقال: أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة.

ورعاية الأبناء والبشاشة لهم من خير ما يطبعهم على البشاشة والنظرة السليمة المتفائلة، فمهما شقت الأعباء على الأبوين فليكونوا مجتلى السرور والحب لأبنائهم، ولا يملئوا قلوب الصغار بآلام الحياة، ولا يقسوا عليهم رغبة في المبادرة بتكميلهم. كذلك لا ينبغي أن يسرفوا في تدليلهم، ففي المبالغة في إحدى الناحيتين إيذاء لهم، وإتلاف لأخلاقهم، وليكن لنا من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أعظم القدوة وأجمل الأسوة، فلقد بلغ رفقه بأبنائه وأحفاده وأبناء المسلمين وأحفادهم المبلغ الأسمى ــ تعلقت به بنت لأحدى بناته وهو خارج إلى الصلاة فحملها، وصلى بالناس وهي على عاتقه فإذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها ــ روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة الأنصاري قال. رأيت النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت النبي ﷺ على عاتقه، فإذا ركع وضعها وإذا رفع من السجود أعادها.

وروى البخاري في جملة روايات ما مؤداه أنه ورد إلى النبي ﷺ ثياب وفيها خميصة صغيرة سوداء ذات أعلام، فقال من ترون نكسو هذه؟ فسكت القوم، قال: ائتوني بأم خالد بنت خالد بن سعيد، فأتى بها صغيرة تُحْمل، فأخذ

الخميصة بيده فألبسها، وأشار إلى أعلامها فقال: يا أم خالد هذا سنة سنة وهي بالحبشية حسنة. قالت أم خالد: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي: فقال: دعها، ثم قال لها: أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي؛ فعمرت طويلاً.

ويكون ﷺ في صلاة الجماعة فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها شفقة بالطفل وأمه؛ وروى ابن أبي شيبة أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعة الأولى من الصبح بسورة نحو ستين آية؛ فسمع بكاء صبي فقرأ في الثانية بثلاث آيات وروى النسائي أن رسول الله ﷺ كان يزور الأنصار، فيسلم على صبيانهم. ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم.

ومع هذا اللطف البالغ. والرفق العظيم. فقد كان يؤدب أهله بما أدبه ربه، فإذا أخذ على أحد منهم كذبة هجره حتى يرى أنه أحدث توبة. وتناول الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، وكان صغيراً فقال له: كخ كخ إرم بها، إنا لا تحل لنا الصدقة. وأخذها من يده، ويقول في حديثه: ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن.

هذا:

ولو ذهبنا نتقصى مبادىء التربية الخلقية العالية في آداب الإسلام لطال بنا المقام. وإنه إلى القلوب حبيب.

فإلى الإسلام أيتها المسلمة. تمسكي بكتابه. وتأدبي بآدابه، واحتمي بحماه. إلى الإسلام أيتها المسلمة؛ أعيدي لنا مجد المسلمات الأوليات، وصلي من تاريخنا ما انقطع، وارفعي من حاضرنا ما اتضع.

إلى الإسلام أيتها المسلمة. لا يلفتنك عن أمجادك الأصيلة مفتون من الغرب بشهواته، يفر من الأسرة، ويتحلل من قيودها؛ ويريدك لنزواته.

إلى الإسلام أيتها المسلمة، كافحي التجارة بجسمك، والعدوان على حيائك في هذه الصور الخليعة، والصحف المستهترة، والأقلام المسمومة (والأفلام) الماجنة، والتكشف والتبرج في الشوارع والطرقات، والتعري الفاضح في الشواطىء (والبلاجات).

إلى الإسلام أيتها المسلمة استبيني الذي يدعوك إلى الله، ممن يدعوك إلى الشيطان. ومن يرجو لك الصيانة، ممن يريدك على الهوان.

إلى الإسلام أيتها المسلمة، إلى الله، فربك أبر وأرحم، وشرعه أكرم وأحكم وطريقه أحفظ لك وأسلم.

والله يتولاك، وبفضله يرعاك، وبتوفيقه يسدد خطاك، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

ونسأله جلت قدرته، وتعالت حكمته، أن يهبنا البصيرة في الدين، والقوة في اليقين، والعمل بهديه، والإخلاص لوجهه؛ والعزة في الحياة، والخير في لقاه، وأن يجمع شمل المسلمين، ويوفق ولاة الأمور لما فيه خير مصر والعروبة والإسلام.

والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين؛ وأمهات المؤمنين، وصحابته أجمعين، من المؤمنين والمؤمنـات، والتابعين والتابعات لهم بإحسان إلى يوم الدين. آمين؟.